سلسلة روايات الدعوة الإسلامية

نجيب الكيلاني



الجزء الأول

مؤسسة الرسالة
بيروت - ص. ب: ٤٤٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

نور الله

١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م

نور الله

« رواية »

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون »

سورة المائدة آية (٨٢)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

لقد كنت أتمنى على الله أن تتاح لي الفرصة كي أكتب بعض الروايات عن الفترات الحاسمة في التاريخ الاسلامي، وكنت أعتقد – وما زلت – أن هذه المهمة عسيرة وشاقة، بالنسبة لعصر النبوة على الأقل، لان فجر الاسلام مليء بالبطولات والاحداث، فالكاتب يرى نفسه أمام عصر فذ بكل ما فيه من رجال ووقائع ومبادىء. ولعل الأمر يكون سهلا أمام كاتب التاريخ أما الروائي فانه يقع في حرج بالغ، وتهيّب شديد، والرواية لها متطلباتها التي لا بد منها ... اذ تحتاج بادىء ذي بدء إلى حرية الحركة والحوار، وتحتاج إلى أشياء أخرى غير الأحداث الجادة، هذه «الأشياء الأخرى» بالنسبة للرواية، كالتوابل والمشهيات بالنسبة للطعام ... ولعل هذه «التوابل» هي الفرق الحاسم بين الرواية وكتابة التاريخ...

ويتساءل الكاتب هل من حقه ان يخترع حوارا على لسان صحابي من صحابة رسول الله ؟؟ وما مدى حريته في هذا المجال ؟؟ وكيف يقابل العلماء مثل هذا التصرف ؟؟ ربما يكون الأمر سهلا بالنسبة لعصر ما بعد الخلفاء الراشدين، أما ما عدا ذلك فالأمر يتميز بدقة خاصة، وأمانة بالغة ... وقد يقول قائل إن عشرات الكتاب في الغرب خاصة قد أبدعوا في رواياتهم التاريخية، لكن أدباء الغرب يتخذون من التاريخ تكأة ووسيلة للتعبير عن آرائهم الخاصة، ولا يجدون أنفسهم في حاجة إلى قيود من نوع معين، انهم ينظرون إلى التاريخ نظرة تتجلى في قول أحدهم «ما التاريخ الا مشجب أعلق عليه لوحاتي ولا شك أن الفرق كبير بين المنهجين ...

لقد حاول «جورجي زيدان» أن يقدم التاريخ الاسلامي في روايات، وعلى الرغم من النجاح المبدئي الذي حققته رواياته لأسباب عدة، تتعلق بامكانيات الرجل المادية، وامتلاكه لدار صحفية كبرى، وتتعلق «بالفراغ» الظاهر في هذا المجال، حيث لا بديل مناسب يقوم مقام رواياته، وتتعلق بلجوئه إلى الأسلوب الغربي القديم الكلاسيكي

في كتابة الرواية ... أقول على الرغم من النجاح المبدئي، الا أن هذا لا يخفي سوءاته التاريخية والعقائدية في هذه الروايات، وسوأته الفنية أيضاً ...

لذا لم يزل هناك شيء يقال في مجال روايات التاريخ الاسلامي، ولم يزل هناك منهاج بل مناهج أخرى من الضروري ممارستها، وخاصة على أيدي فنانين يؤمنون حقيقة بالعقيدة الاسلامية ودورها الحضاري الخالد ...

ومن ثم فاني أخوض التجربة، معترفاً بأن شيئاً من التهيب والرهبة يواكب خطواتي، لما يتوهج به هذا العصر من عظمة فوق كل تصور، وبطولات أسمى من كل وصف وايمان يعلو فوق كل ايمان، انني أحاول جاهداً أن أتخذ طريقاً ... فعلى الرغم من أن « الحدث » هو العمود الفقري لأية رواية، الا أنني سأحاول أن أقدم انعكاساً نفسياً للأحداث الضخمة ... انعكاسا يلمع على صفحات النفوس الطاهرة والشريرة، المؤمنة والكافرة ... لأن الأحداث قد يجدها القارىء في آلاف المجلدات، أما التوترات النفسية، والقلق الخالد، والايمان الصامد ... فهي أشياء يجد الروائي الجاد فيها بغيته، وينطلق فيها قلمه برغم تجاهل أكثر المؤرخين لها ...

وكان من العسير على أي كاتب أن يلم بكل جوانب العصر وأحداثه، لهذا اخترت جانباً خاصاً له أثره وخطره البالغان، أقصد ذلك الصراع الدامي الذي خاضته الدعوة الاسلامية في مواجهة اعدائها من اليهود والمنافقين ...

ان الخطر اليهودي يضرب بجذوره الخبيثة في أعماق التاريخ، ويتسلل حتى عصرنا هذا والغريب أن أخطر المواقف التي تعرض لها الاسلام في بدايته كانت على أيدي اليهود أمثال كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وعمرو بن جحاش، وكعب بن أسد وغيرهم. فهم الذين حركوا قريشا في غزوة « أحد »، وهم الذين ساقوا العرب بدهائهم وأموالهم ومؤامراتهم، في المعركة الخطرة « غزوة الأحزاب »، وهم الذين حاولوا اغتيال الرسول، وغدروا بالعهود والمواثيق في أحلك الظروف...

وكان المنافقون — وعلى رأسهم — عبد الله بن أبى، هم حلفاء اليهود المخلصون وطابورهم « الخامس » الذي يسدد طعناته الآثمة إلى قلب رسالة الله الخالدة.

ان قصة «الحقد» اليهودي قديمة ومعادة، وليس أدل على ذلك ما يقاسي منه العرب والمسلمون في هذه الحقبة التعيسة من تاريخنا المعاصر، بعد أن سقطت في أيدي اليهود مدينتنا المقدسة الخالدة « القدس »، وبعد أن استشرى الخطر اليهودي وهدد معاقل الاسلام ... هذا، ولم تصرفنا أحداث اليهود ومؤامراتهم ضد الرسول، عن اثر العقيدة الاسلامية في

نفوس المؤمنين بها، وما ولدته في نفوسهم من مقاييس جديدة للسلوك الانساني، ونظام الحياة، ومجالات الفكر ...

ولقد رأيتني مضطراً ازاء الأحداث الكثيرة الضخمة، والمعارك المثيرة التي خاضها المسلمونالأوائل، أن أقدم عصر النبوة في روايتين، الاولى هي التي بين يدي القارىء، والثانية ستتلوها باذن الله مباشرة.

بقيت نقطة أخيرة ... ان كتّاب الروايات الهادفة، والادب الملتزم، قد يرون أنفسهم حائرين بين السبك الفني، والهدف العقائدي، فاذا غرق الفنان في اغراءات الفن وشروره فقد يضر بالهدف الأسمى، واذا ركز على الهدف وتجاهل متطلبات الفن، تحول العمل الأدبي من رواية إلى شيء آخر غير الرواية ... ومن ثم فلم يكن هناك مناص من أن يدبر الكاتب لقاء مخلصا ممتعاً بين الفن والهدف، فيمضيان معا متكاتفين متصافحين في هذا الطريق المقدس، وثقتي كبيرة في أنني ربما أكون قد بلغت حدا من التوفيق يرضي القارىء ... ويرضى الضمير ... وإلى اللقاء في الجزء الثاني من هذه الرواية. وإلى اللقاء في روايات التاريخ الاسلامي التي سنقدمها تباعاً لأبناء العروبة والاسلام ... آملين أن نشارك في بناء جيل مسلم حر، يعرف الطريق إلى الله، ويأخذ بيد الانسانية من ظلام الضلال والشرك الخفي إلى نور الهداية، وأفق الحرية والحب والسلام

نجيب الكيلاني

رمضان ١٣٨٨ هجري
ديسمبر ١٩٦٨ ميلادي

زمن الرواية = — أيام بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم .
مكان الرواية = — مكة والمدينة وقريظة وبنو قينقاع وبنو النضير .

شخصيات الرواية :

شخصيات تاريخية :

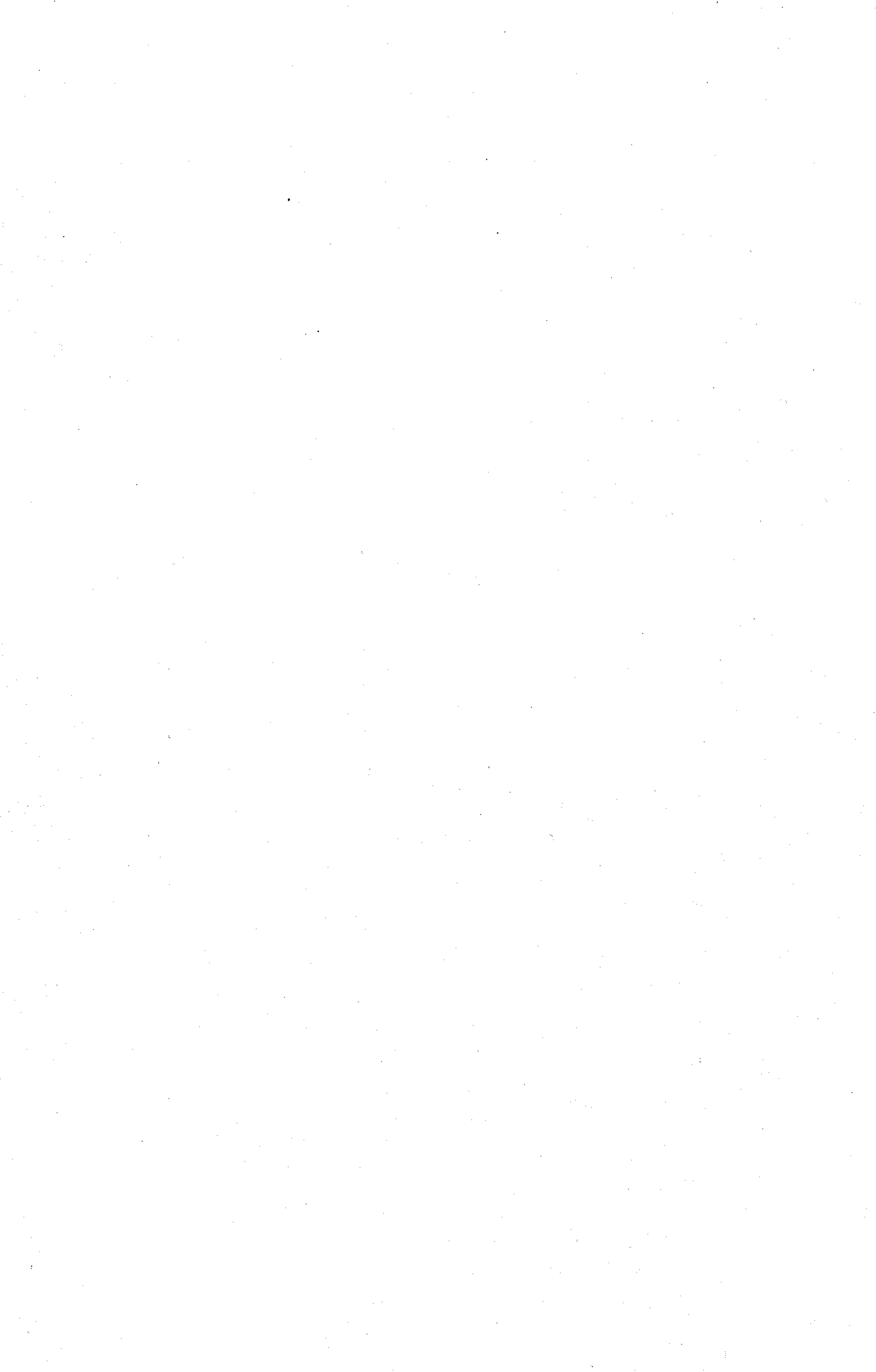
١ — محمد بن عبد الله ﷺ
٢ — أبو بكر
٣ — عمر بن الخطاب
٤ — سعد بن معاذ — رئيس الأوس
٥ — أبو سفيان — قائد جيوش قريش
٦ — عبد الله بن أبي — رأس المنافقين في المدينة
٧ — كعب بن الأشرف — شاعر يهودي متآمر على الدعوة الاسلامية
٨ — حيي بن أخطب
٩ — كعب بن أسد
١٠ — عمر بن جحاش
١١ — كنانة بن الربيع
(٩ – ١١) من زعماء اليهود
١٢ — صفية بنت حيي بن أخطب — زوجة كنانة بن الربيع ملك خيبر
١٣ — هند — زوجة أبي سفيان
١٤ — نعيم بن مسعود — رجل من قبائل غطفان لعب دوراً حاسماً في غزوة الأحزاب .
١٥ — سلمان الفارسي — من صحابة رسول الله
١٦ — عكرمة بن أبي جهل — من قادة المشركين
١٧ — زوجة عبد الله بن أبي
١٨ — عبد الله بن عبد الله بن أبي
١٩ — حفصة بنت عمر زوجة رسول الله
وشخصيات ثانوية أخرى من النساء والرجال

شخصيات موضوعة :

١ — اليهودية
٢ — هند ورابح

المراجع التاريخية

رجعنا إلى عدد كبير من المراجع التاريخية والتزمنا بأدق الروايات وأقربها إلى الصدق فيما ورد من أحداث تاريخية .



الفصل الأول

« أجل ... لا مفر من الرحيل يا « أم عبد الله » ... لم يعد في « مكة » مكان يأوي إليه المستضعفون والمعذبون ... إن السادة أصحاب النفوذ والسلطة والجاه يأبون الا أن يستعبداو أرواحنا وفكرنا، بعد أن استغلوا عرقنا وجهردنا بدراهم معددودة... لكأن الأقوياء وحدهم هم الذين يعرفون الطريق إلى الحقيقة... الحقيقة الشاملة لكل شيء ... يا لها من حقيقة شائنة يا أم عبد الله ... ان السياط التي مزقت أجساد المساكين من أمثال ياسر وسمية وبلال ترغم الانسان على أن يكفر بتلك الحقيقة التي يروج لها أبو سفيان وأبو جهل وغيرهما من رجالات مكة ... الارغام والقهر والاذلال يا أم عبد الله لا تتفق مع الحقيقة التي يرفع نبلاء قريش لواءها ... لسوف نرحل إلى الحبشة يا أم عبد الله ... هذا ما أمرنا به رسول الله الكريم محمد بن عبد الله ... ومحمد يا أم عبد الله ... رجل طيب... شريف... صادق، ليس في يديه سوط، ولا يسوق الناس بالقهر والاذلال، انه لا يملك غير الكلمة المضيئة . والحجة الدامغة، والسلوك الباهر... انه حبيب الفقراء والعبيد والمساكين ... أجل ... أقول الكلمة المضيئة ... انها شيء كبير يا امرأة ... ألم تعجز السيوف عن إطفاء نورها، لكأن المعذبين والمضطهدين منا زيت يمد تلك الكلمة بمزيد من الضياء والقوة ...لا اله الا الله ... لا اله الا الله ... محمد رسول الله... »

ورفعت أم عبد الله وجها شاحبا ، قد بللته الدموع الغزار، وقالت لزوجها : — « الحبشة أرض بعيدة، وليس لنا فيها أهل ولا أصدقاء » .

— « لكن بها ملكا طيب القلب، يفتح أرضه وقلبه للمعذبين والمضطهدين ويقول الرسول عنه — يا زوجتي المسكينة — « إن فيها رجلا لا يظلم الناس عنده » .

وأخذت الزوجة تجفف دموعها وتقول :

— « كيف نأكل ؟ وكيف نعيش في تلك الديار البعيدة ؟ وإلى متى نبقى هناك ؟ ؟ »

قال زوجها في ضيق ظاهر :

— « كما نأكل هنا، اننا لا نمتلك الضياع ، وليس لنا تجارات واسعة، نكسب قوت

يومنا من عرق جبيننا، ونعيش هنا في قهر وذل، وفي الحبشة سنجد الأمان، الأمان هو الحياة يا امرأة ... لأن في الأمان اطمئناناً وحرية في القول والعمل وفي العقيدة ... انني لا أخاف من المستقبل يا أم عبد الله ... ان الله معنا ... ولقد وعدنا بالنصر.. وسنعود إلى ديارنا يوما ما وقد تطهرت من أدران الحقد والذل والشرك ... ولن نجد عند عودتنا أهل مكة يعبدون أصنام الحجر أو أصنام البشر... »

تنهدت أم عبد الله، وتمتمت :

— « لكم يعز علي أن أترك موطننا الحبيب برغم الفقر والذل، ولسوف أظل في حيرة من أمر هؤلاء الطغاة الذين يأبون الا أن يحيلوا حياتنا إلى غم ونكد وغربة ... أعترف أنني ضقت ذرعا بما نعانيه في مكة من هوان ... لكن لم يزل بنفسي شيء ليس بالقليل من حب هذه الأرض . ان شوقا جارفاً يربطني بهذه المعالم والمباني والتلال والبيت العتيق ... »

هتف زوجها محتداً :

— « لم يزل الشيطان يوسوس لك ... الوطن ليس رمالا وجبالاً وبيوتاً ... انه أكبر من ذلك ... انه معنى كبير... قيم أصيلة تسود أمة من البشر ... انه بناء من القلوب والافكار المؤمنة الخالدة . والعلاقات العلوية الطاهرة ... انني لا أنكر ألفة الانسان للأشياء، لكن الذي أنفر منه وألعنه أن تتحول هذه الألفة إلى قيد وانحطاط واهدار للقيم الرفيعة ... ان وطننا هو الوجود الروحي الذي تخفق فوقه راية « لا اله الا الله محمد رسول الله ... »

هزت أم عبد الله رأسها في ثقة وايمان، وقالت :

— « صدقت ... ان ألفة الأشياء الكونية الظاهرية، قد أوشكت أن تطمس أشواق روحي... الانسان شيء آخر بالاضافة إلى الطعام والشراب والجسد، والوطن شيء آخر بالاضافة إلى الارض والجبال والأشجار والمرعى ... »

قال زوجها :

— « ها أنت ذي تعودين إلى الحق ... ما أسعد قلبي ! ! سنمضي في الطريق إلى الحبشة واني لموقن بأن الله سيرعانا، وسنجد في كنف « النجاشي » الراحة والامان، انه من أهل الكتاب يؤمن بالله ... وسنسعى ونجتهد ونعمل، ونعبد الله دون خوف... وسيكون معنا عدد كبير من المسلمين، سيهاجرون فراراً بدينهم وحريتهم ... »

وصمت لحظة، ثم هتف في حزم :

— « نحن لا نهرب فراراً من الموت يا أم عبد الله ... فالموت في سبيل الله استشهاد وطريق إلى الجنة التي وعد بها المتقون ... ولكننا نسيح في الارض، وندخر قوانا وحياتنا

ليوم آخر ... يوم مشهود ... ثم اننا ننفذ امر الرسول اولا واخيراً ... ولا تنسي ان خروجنا على هذه الصورة سيجلب العار والخزي على قريش ابد الدهر... سيقول الناس في كل مكان ان قريشاً قد اتخذت الظلم مركبا، واضطهدت بنيها، وفرضت الذل على الابرياء، وسيعرف القاصي والداني الكثير عن قضيتنا العادلة... ان محمداً ﷺ يعرف جيداً ما يفعل ... ما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى ... قالت ام عبد الله، : —

— « ومن سيكون معنا ؟ ؟ »

— « فيهم عثمان بن عفان، وزوجه رقية بنت الرسول، والزبير وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف ... وغيرهم ... سنخرج متسللين يا زوجتي حتى لا تمنعنا قريش من السفر سنعتصم بالكتمان ... »

زمجرت قائلة :

— « اننا نترك لهم كل شيء ونمضي، ماذا يريدون بعد ذلك ؟ ؟ »

— « يريدونك أن تبقي، وان ترتدي عن دينك، او تظلي رهينة في ايديهم يتسلون بتعذيبك والنيل منك، انهم يودون ان يقيموا سياجاً صلباً حولنا حتى لا تنتشر دعوتنا فيعرف الناس الحقيقة ... والحبشة يا زوجتي ليست غريبة عنا ... انها متجر قريش، وصلاتنا بها وطيدة ... آه يا زوجتي ... لن انسى أطفال مكة وصبيانها وهم يعبثون ببلال ... وينالون من شرف « سمية » .

لقد شحن قلبي آنذاك بحقد هائل ... حقد لو انطلق لأحرق مكة وشعابها ...

ما أتعس أن يتحول الحاكمون إلى حملة للسياط ... فالحاكم ليس له في ذهني سوى صورة الأب الحنون الكبير القلب الذي ينحاز للحق ... قد تظنين أنني حالم أتجافى عن طبيعة الكون والوجود ... لكن ايماني بذلك لا يتزعزع ... سأظل أومن بان الحاكم مرب ومرشد وأب، أما أن يتحول إلى جلاد فهذا ما أرفضه ... »

قالت ام عبد الله :

— « إن قريشا لا تفكر فيما تفكر فيه أنت، ومكة تحكمها العصبيات، وتتوزع السلطات المختلفة بين رؤوسها، ولهذا فهم يريدون ان يبقى كل شيء على حاله، ان الجديد في هذه البلاد يهولهم، ويثير الذعر في قلوبهم ... ومحمد يسفه آلهتهم، ويحارب تقاليدهم وتسلطهم، ويحترم العبيد، ويعلي من شأن الفقراء، ولا يقيس الناس بحسب أو نسب، مقياس التفاضل الوحيد لديه هو التقوى... فأين اذن المجد العريق، واين كبار الشعراء والحكماء العرب ... ان كلمات محمد برغم بساطتها وقوة اقناعها أمر ضخم مهول

انها هدم للقديم ، والاعداد لاقامة بناء جديد للحياة ولطبقات الناس ، ومعاييرهم الخلقية... »
هز الزوج رأسه قائلا :

— « أعترف انه حدث جلل »

— « ومن ثم فلا بد ان يكون التصدي له تصدياً رهيباً مشحوناً بالعنف والقسوة ... »

— « والله غالب على أمره يا أم عبد الله ... »

وتسلل المهاجرون، كل من طريق، ان عيون قريش لا تنام، انها تبحث عن البذور الجديدة تريد أن تسحقها وتحيلها إلى رماد قبل ان تنمو وتترعرع وتزهر وتثمر ، ومضت أم عبد الله وزوجها، وعيونهما تتأرجحان هنا وهناك من شدة الخوف، القلوب تخفق، ألا يتصادف أن تكتشف قريش هذه القافلة الهاربة بدينها، فتجرها إلى الوراء، إلى ساحات الموت والعذاب الرهيب، وينكلون بها أشد التنكيل ؟ ؟ ان أم عبد الله تهرول وأنفاسها تتلاحق، بعد وقت قصير ستغادر هذه الأرض التي تحبها ، لكنها سوف تتنفس الصعداء، وتشعر بارتياح بالغ وقد نجت من العذاب والاذلال ... ستحرر روحها، وستستنشق هواء نقياً ولن ترى الأيدي المتصلبة المتشنجة وهي تمسك بالسياط، ولن تلاحقها السخرية المرة، والكلمات البذيئة .

— « إلى أين يا أم عبد الله ؟ ؟ »

كانت قد تخلفت عن زوجها مسافة ليست بالقصيرة حتى لا تثير الشبهات، وعلى الرغم من التخفي الشديد، الا أن ذلك الصوت انطلق خلفها، فارتعدت فرائصها، وداخلها خوف بشع، فالتفتت خلفها وهي تكاد تسقط من شدة الرعب، وقالت :

— « من ؟ ؟ »

يا لها من كارثة، انها ترى عمر بن الخطاب بدمه ولحمه، ذلك الشاب الفارع الطول، القوي البنية، العميق النبرات، وابن الخطاب معروف ببطشه وغلظته ومعاداته الشديدة لمحمد وأتباع محمد، ألم يقم بنفسه بتعذيب بعض المسلمين ؟ ؟ ألم يهدد بقتل محمد، ويتهمه بالمروق ، وبأنه صابئ عن دين الآباء والاجداد ، وان دعوته ضد نظام مكة وأمنها واستقرارها ؟ ؟ ان أم عبد الله « تعرف ابن الخطاب جيداً ...

— « دعني وشأني بربك يا ابن الخطاب »

— « ان في سيرك ما رابني ، ثم ان ما انتابك من هلع قد بذر في نفسي الشكوك، فضلا عن أني رأيت زوجك يمضي في نفس الطريق، ان شيئاً ما يجري في هذه اللحظات وانا لا أعرفه ... وابن الخطاب كما تعلمين تواق للمعرفة ... »

اشتد بها الارتباك والارتياع، لكنها تماسكت، لن تستطيع ان تخدع هذا الرجل، من يدري لعله قد ألم بطريقة ما بأخبار المهاجرين إلى الحبشة، لا مناص من أن تصدقه القول، وفي ذلك خطورة كامنة، فكيف السبيل إلى النجاة من هذا المأزق، أجل ... انها تعرف كيف تنجو، وتعرف كيف تدخل إلى قلب عمر، وتحمي نفسها من أذاه ...

— « لسوف أخبرك بكل شيء بشرط ... »

— « ما هو ؟ ؟ »

— « أن تسترني، وتحفظ سري ... »

— « هذا عهد علي ... »

قالت وقد تمازجت نبراتها بالدموع :

— « اننا مهاجرون ... »

وسادت فترة صمت قال عمر عقبها :

— « انه للانطلاق يا أم عبد الله ؟ ؟ »

— « نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً. »
ونكس عمر رأسه لم تفارق ذهنه صورة المرأة الضاوية الملثمة، التي تحمل فوق كتفها وظهرها متاعها التافه، ولم يزل صوتها المندى بالدموع يرن في أذنيه، وهل ينسى ما ساهم به من تعذيب وايذاء لهؤلاء المساكين ؟ ؟ يا له من أمر غريب ! !

كان في امكان هذه المرأة ان تقول كلمة واحدة تنجي بها نفسها من جحيم المشاكل والمتاعب، أن تتنكر لمحمد، لكنها رفضت، وها هي ذي تغادر الأهل والدار والوطن، وتتحمل مشاق الغربة ، وأهوال الطريق، وتواجه المستقبل المجهول، وترفض أن تتخلى عن شيء آمنت به ...

— « أما زلت عند عهدك، أم ستفضح أمري ؟ ؟ »

وأدار عمر رأسه، ثم هرول مبتعداً عنها وهو يقول في رقة لم تألفها فيه من قبل :

— « صحبكم الله ... »

انطلقت أم عبد الله مسرعة، وأخذت تتعثر، فاذا ما سقطت تحاملت على نفسها ولمت شعثها، وعاودت المسير، وبلغت زوجها بعد جهد، وبعد ان وضعت قدمها على السفينة الراسية على شاطىء البحر، روت لزوجها ما حدث من ابن الخطاب، ثم علقت قائلة :

— « ... ورأيت رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه — فيما أرى — خروجنا، لقد قرأت على وجهه معاني لم آلفها فيه من قبل ... يبدو لي أن عمر على وشك ان يعلن إسلامه.
ضحك زوجها ساخراً، ثم قال :

— لا يسلم هذا الرجل حتى يسلم حمار الخطاب ... »

الفصل الثاني

« كنت دائماً أحسم الأمور بضربة قوية نهائية، أو برأي ثاقب لا يهتز أو يتأثر بالمعارضة، فماذا جرى لي ؟؟ » هكذا قال عمر بن الخطاب يحدث نفسه، وهو يسير في الطريق وحيداً، يعتصره الضيق، ويمزقه الألم، ان أمر محمد يشغل باله، وينغص فكره، ويملأ تفكيره بالمتناقضات التي لا نهاية لها، حاول جاهداً أن ينقض عليه ويريح قريشا منه، لكنه ما يكاد يقترب منه، حتى تضج الهواجس في رأسه، ويحيط به الاضطراب من كل جانب، ويدرك ان ذلك أمر كبير، خطير غاية الخطورة، لم يستطعه أحد من رجالات قريش وأبطالها، ثم ان نداء داخلياً يهيب به في كل مرة ان قف، ولا ترفع يدك والا ... وما يكاد عمر يرفع عقيرته مفنداً دعوى محمد، او مسفها لآرائه، حتى يشعر أنه لا يؤمن بما يقول، وأن منطقه لا يكاد يستقيم أمام دعوة محمد فيما تقدمه من براهين قوية وبساطة مذهلة ... يا لها من مأساة يعيشها عمر ! ! ألم يكن عمر وآباؤه من قبل هم سفراء قريش في كل مكان، يحلون المعضلات، ويفضون أعتى المشاكل، لهم الرأي الثاقب، والحل الذي يرضي الجميع أليس لعمر من سعة التفكير، وانطلاق اللسان، ورجاحة العقل، ما جعله السفير المعلم إلى القبائل المجاورة، والممالك القريبة ؟؟

وأخذ عمر يناقش نفسه بهدوء عاصف، ترى ماذا آخذ على محمد من انحرافات ؟؟

وأجاب على تساؤله : « ان محمداً يبتدع دينا جديداً لا عهد للعرب به .. محمد يفتح الطريق أمام خلافات وتمزقات لا يعلم الا الله مداها ... محمد يهدد نظام أمن البلاد ... محمد يحاول أن يقتلع التقاليد من جذورها ... ويبني دعائم ملك جديد له ولبني هاشم من بعده ... »

وعاد عمر يتساءل : « هذا كلام عام غامض، يمكن ان يرد عليه محمد بنقيضه، ويمكنه أن يوضح أن دعوته هي الحق، أنه جاء يداوي أسقاما طال عليها الأمد، وأنه جاء لرفع لواء الأخاء والعدل والحرية، ولتنقية العقائد مما علق بها من شرك وانحرافات... ولهذا أراني مضطراً ان أقصد إلى لب المشكلة وأتساءل : ما الخطأ في كلمات محمد ؟ ؟

آه يا عمر ... الله واحد ... يا لها من كلمة ! ! ليس لدي من دليل مقنع يمكن أن

يهدم هذه الدعوة ... الله واحد ... وهل في الامكان أن أقول : إن الله اثنان أو ثلاثة أو أربعة ؟ ؟ وكيف ؟ ؟ وهل تستقيم دعواي ؟ ؟ ومحمد يقول إن العبيد إخوة لنا ... يضرب عرض الحائط بكل المواضعات والنظم القائمة ... فبلال مثل أبي بكر، ومثلي أنا ... ومثل أبي جهل أو أبي لهب وأبي سفيان ... تا لله لو انطبقت الارض على السماء لما جاز هذا القول ... ان هذا التصور فساد أي فساد ... مستحيل أن أقبل هذه « الافتراضات » الغريبة ... »

وضاق صدر عمر، وهتف في حنق : « يا الهي » أي اله أين الطريق ؟ ؟ أين وجه الحقيقة ؟ ؟ انني على استعداد لأن أدفع حياتي ثمنا لمعرفة الحقيقة ... لقد كثر اللغط في مكة، وامتلأت نواحيها بالنقاش الحاد، وماجت شوارعها بالأصوات الصادقة والكاذبة، وثار الغبار في جنباتها، وأنا أمضي متخبطاً بين الشك واليقين، يحرقني الشوق إلى المعرفة الجادة، وأشعر أن سلاسل وأغلالا ثقيلة، تقيد من عزيمتي وتشدني إلى الأرض، فلا أستطيع الانطلاق كما اشتهي، ولا يمكنني التحليق في الآفاق العالية النقية التي طالما حلمت بها ... وبيوت مكة ترقد في جمود مميت يبعث على الغيظ والملل، ونخيلها يتمايل في برود وكسل، وكأنه يسخر من عواصف العقول والقلوب التي تحترق ... آه ... أين أيام الهدوء والسكينة الروحية ؟ ؟ وأين أيام « عكاظ » سوق مكة الشهير، حيث تتوافد القبائل من شتى الانحاء للتجارة والقاء الشعر والمصارعة والسباق ؟ ؟ لم تصعد الحلقة يا ابن الخطاب أمام خصم الا وهزمته، ولم تبد رأيا في الشعر أو الأنساب الا وتشربته الأسماع والقلوب... وها أنت اليوم تقف بعودك الفارغ كالبرج الخاوي الخرب، وتشمخ برأسك التي لا تحمل غير القلق والشكوك والهواجس المتزاحمة ... » وهتف عمر بصوت مسموع : « انني لا أعرف أين أمضي ... »

وأفاق من هواجسه على ضحكة متكسرة تنبعث من خلفه، وصوت غانية يقول :

— « بل تعرف يا ابن الخطاب، ان الطريق إلى بيتي معروف، لقد حفيت قدماك من كثرة السير عليه ... »

وصاح : « من ؟ ؟ أنت ؟ ؟ »

— « أجل ... أنا .... ألا تسبقني إلى هناك، ان لدي من الاحاديث والانباء والالحان والكوؤس ما ستطرب له نفسك ... »

وقف جامداً يفكر، دائماً يتلعثم ويضطرب لدى مفترق الطرق، لم يكن كذلك في الماضي، لكن هكذا أصبح... أي عذاب يقاسيه، وجاءه صوتها :

— « يبدو أنك في حاجة إلى من يأخذ بيدك... »

وجذبته من يده قائلة : « هيا بنا ... لشد ما تشوقت إلى خشونتك وفظاظتك ونبراتك القوية الصارمة ... لقد قضى الزواج على الكثير من توثبك وتحمسك واشراقك ... لكن لم تزل كالعهد بك جذاباً متفرداً بفضائلك ... »

قهقه في سخرية وقال :

— « اية فضائل لرجل متزوج يقصد بيتك يا امرأة ؟ ؟ »

واستقر به المقام في بيتها، ومضت فترة قصيرة ، جاءت له عقبها بابريق من الخمر المعتق وكأسين فارغتين، وسدد إلى الخمر نظرة طويلة، وتمتم :

— « لماذا لا يحرم محمد الخمر حتى الآن ؟ ؟ »

قهقهت المرأة، وأردفت تقول :

— « كيما يعطي الفرصة للحيارى والمحزونين ... انهم في حاجة إلى النسيان والمرح وذلك لا يتأتى الا عن طريق الخمر ... ثم لا تنس أن الخمر تدر على مثلي دخلا لا بأس به ... » وشرد عمر بضع لحظات وقال :

— « الحيارى والمحزونون لا يعالجون بالخمر يا امرأة ... ومحمد لا يؤمن بالمسكنات الوقتية ... لقد جاء يحمل الحلول الحاسمة ... وهناك في العالم الآخر جنة للموعودين ... أتصدقين هذا الكلام ؟ ؟

قالت في شيء من الملل :

— « وما شأني بهذا كله ؟ ؟ »

جذبها اليه جذبة شديدة، رق لها قلبها، وظنت أنه على وشك أن يهم بها، لكن ما أشد دهشتها، وهي تسمعه يقول :

— « لماذا أرسل الله محمداً بالذات ؟ ؟ »

هتفت وهي تلتقط انفاسها مهزومة مصدومة :

— « علم هذا عند محمد أو عند من أرسله ... »

— «لم لم أبعث نبياً وأنا فارس قريش وسفيرها مثلا ؟ ؟ »

— « سؤال غريب ... »

— « آنا لا آحسد محمداً، لكن مئات الاسئلة تطرح في رأسي صباح مساء ... انني أعرف أنه الصادق الأمين، ولعله خير رجالات مكة وأشرفها ... لكني في الحقيقة أبحث عن السر، والمؤثرات التي تتدخل في اختيار انسان ما لكي يكون نبياً ... »

سددت اليه نظرات ثاقبة وقالت :

— «عمر ... لشد ما تغيرت، هذه أسئلة غريبة لا يمكنني الإجابة عليها، انني أجيد العزف والغناء ومنادمة الرجال ... لكنني لا أعرف الكثير عن الله».

وسادت فترة صمت قالت بعدها :

— « ولم هذا الانشغال كله ؟ ؟ ان محمدا لم يتبعه غير شرذمة قليلة أغلبها من ضعاف الناس والعبيد ... فلماذا يشغلكم أمره لهذه الدرجة ؟ ؟ لقد اصبحت مكة مجنونة بالحديث عن محمد وعن أتباع محمد ... لماذا لا يتركونه وشأنه، وليفعلوا هم ما يشاءون ؟ ؟ فليمض كل في طريقه الذي يختار بحرية تامة ... ان ما أسمعه عن محمد لا يخرج عن كونه كلمات جديدة عن الله والملائكة والناس والدنيا والآخرة، والجنة والنار ... أترى ان مثل هذه الكلمات تؤدي إلى خطر ما ؟ ؟

ضحك عمر وقال :

— « هذه الكلمات الصغيرة كبيرة جداً ... انها السحر الذي أثار الانقلابات في الدنيا منذ بدء الخليقة ... انها تشكيل جديد لعقيدة الانسان ... لوجدانه وعقله وسلوكه ... هل تفهمين ؟ ؟ »

وأخذت المرأة تملأ الكأسين وهي تقول :

— « ما أكثر المخرفين في هذا الزمان ... حتى أبو سفيان الرجل العاقل ذو المقام العالي يخرج إلى الشوارع مزمجراً، ويعقد الاجتماعات، ويتدارس المأساة، وحوله نخبة من رجالات مكة الأفذاذ ... ماذا جرى ؟ ؟ هل جن الناس ؟ ؟ »

ثم قدمت اليه كأساً ممتلئة، وهي تقول :

« لتشرب هذه الكأس، فقد يكون فيها شفاؤك »

وتمتم وهو يتناول الكأس :

— « الحيارى ... والمحزونين ... »

وشرب الكأس دفعة واحدة، ثم تناول ثانية وثالثة، وأخذ يقول :

— « أتذكرين يا امرأة ... كانت قبيلتنا — بني عدي — تنافس بني عبد شمس ... وكنا قلة ... لم يصمد أبي للمنافسة ... واستطاعت عبد شمس ان تطرد قبيلة أبي فيجلوا عن « الصفا » ويلجأوا إلى بني « سهم » لكي يسبغوا عليهم حمايتهم ، ويعيشوا إلى جوارهم هذا عار كبير يا امرأة ...

هذا العالم عالم الأقوياء وحدهم . لطالما أمعنت الفكر ، وتساءلت لماذا لم يثر العرب من أجلنا ؟ ؟ لماذا لم يوقفوا عبد شمس عند حدهم ؟ لكن الحق دائماً في جانب الأقوياء ... كنا فقراء قليلي العدد ... »

وتناول كأساً رابعة واستطرد :

— « ماذا يريد محمد ؟ ؟ ان يحمي الفقراء ويكسر من شوكة الاقوياء والاغنياء ؟ ؟

انها نفس القصة ... طائفة تتحكم في الأخرى ... لسوف يتحول الضعفاء إلى أقوياء والأقوياء إلى ضعفاء ... وتتكرر المأساة ... »

قالت المرأة :

— « أهذا ما يريده محمد فعلا ؟ ؟ لو كان الامر كذلك لكنت اول المؤمنين بدعوته.. أصدقني الحديث يا عمر ... لقد أفرطت في الشراب ويبدو أنك تهذ ي ... »

وعاد عمر يقول :

— « لا ... لا .... انني افتري على محمد ... انه لا يريد ذلك ... لماذا أكذب ؟ ؟ انه يقول : « الناس سواسية ... كأسنان المشط » ... أتفهمين ؟ ؟ كأسنان المشط... يبدو أنه يريد أن يحد من بطش الأقوياء ، ويقضي على مظالمهم ، وفي نفس الوقت يرفع من شأن الضعفاء ، ويعلي من قدرهم ، حتى يصل الجميع إلى مستوى يلتقون فيه على سلام وصفاء وأخوة ... »

قالت المرأة :

— « انه لشيء رائع وخطير يا عمر ... »

ضحك عمر حتى كاد يستلقي على ظهره وقال :

— « ها أنت ذي ترين أن الكلمات الصغيرة عن الله والانسان والجنة والنار والدنيا والآخرة ... كلمات خطيرة إلى أبعد درجات الخطورة ... »

— « لكنها على أية حال كلمات طيبة يا عمر ... »

أخذ يدق الأرض بقبضته المتشنجة ويقول :

— « وهذا ما يحيرني، ويعذبني ... »

قالت في سخرية :

— « لن نخسر شيئاً اذا ما انتصر محمد »

— « تريدين أن تقولي إننا سنكسب الكثير ... »

— « بالضبط »

— « لكن محمدا لا يفكر بمعيار الربح والخسارة ... القضية عنده حق وباطل ... كفر واسلام ... نور وظلام ... جنة ونار... ومن أراد الحق وآمن به بلغ غاية المنى ... الحق في ذاته غاية ... الحق هو الخير... والربح شيء آخر... ان له مقاييس أخرى... أتفهمين؟ » أقبلت المرأة نحوه بعد أن خلعت ثوبها الخارجي، وبدت في ثوب شفاف مثير، ثم ألقت برأسها على صدره الكث الشعر وقالت :

— « حدثني عن الحب »

قال شاردا، وهو يضع على رأسها يدا كالثلج :

— « الحيارى ... والمحزونين ... »

— « عمر ... »

واستطرد كالمسحور :

— « وجنة الموعودين ... »

— « هل ذهب عقلك ؟ ؟ »

— « يلقون العنت والعذاب فلا يرجعون ... يقتلون ويضربون ... ويفرون إلى الحبشة وجبروت مكة وسياطها لا تستطيع ان تزحزحهم عما يعتقدون ... ان كل شيء في هذه الارض يتقوض ... ينهار ... أبو سفيان ينهار ... عبد شمس يتهاوون ... ان عيني تخترقان الحجب... اني أرى عجباً ... لقد سحت في شتى أنحاء الارض يا امرأة ... قابلت الملوك والحكماء ... وناقشت النصارى والمجوس، وسمعت الكثير من الرهبان والكهان واحبار اليهود ... كلهم كانوا يعيشون في عالم ضيق مغلق أعمى... برغم صدقهم في بعض ما يقولون ... لكن محمداً شيء آخر ... أرى في عينيه صفاء الاطهار... وعلى وجهه عزيمة الرجال الاحرار... وعلى ملامحه السمح نور الله ... »

قالت المرأة :

— « ماذا جرى لك يا عمر ؟ ؟ »

فلم يعرها التفاتاً ومضى يقول :

— « ان امره يحيرني ... أهو ساحر ؟ ؟ أهو كاهن ؟ ؟ أهو شاعر يحسن صياغة الحديث؟ ؟ تحاملت على نفسها ، واعطته ظهرها ، وقالت نافرة :

— « لم تعد تصلح لشيء يا ابن الخطاب ، حسبتك تحدثني عن الحب فاذا بك تتحول إلى كاهن او فيلسوف ، لست أدري ! ! لقد أضعت الوقت في الهذيان السمج... »

فصاح في اهتياج :

— « لكني سوف أقتل محمداً ... »

فالتفتت اليه في دهشة :

— « ماذا ؟ ؟ »

— « لا شيء ... »

— « ما أبشع التناقض الذي تعيش فيه يا عمر ! ! لقد توهمت انك ستؤمن بدعوته ان قرارك الاخير يشككك في كل ما قلته قبل ذلك عن محمد ... لكن لك عذرك ... لقد دارت الخمر برأسك ... »

وقال وهو يشرد ببصره إلى بعيد :

— تريدينني أن أحدثك عن الحب ؟ ؟ »

قالت في لهفة :

— « أجل ... »

— « آه ... الحب .... ان كلماتي عن الحب الذي تريدين لا تخرج عن كونها جرعات من خمر... مسببات لاثارة الجسد ... الحب الذي احلم به شيء آخر... كانت عبد شمس تحب نفسها عندما فكرت في طرد أبي وقبيلة بني عدي معه ، وأبو سفيان وقريش لا يحبون الا سلطانهم ومراكزهم وهم يذيقون محمداً ورجاله النكال ، « وأنت » أنت

تجبين المتعة والمال ... تقتلين الزمن والملل والخوف والتمرد، بكأس من خمر، أو ضمة من رجل ... الحب شيء آخر ... »

قالت المرأة وقد اكفهر وجهها، وجرحت كبرياؤها :

— « الباب مفتوح ... تستطيع أن تنصرف ... لقد أضعت وقتي وصدعت رأسي ... »

انتصب عمر واقفاً، ثم رفع يده ليسدد إلى وجهها صفعتين قويتين ويقول :

— « لا يصح أن يعلو صوت النساء، أو يتكلمن بهذا الاسلوب الوقح ... انها قحة وسوء أدب وفجور ... »

الفصل الثالث

« لسوف أمضي اليه، ولن أتردد، هذا الجريء الصامد، الذي يهدم البناء حجرا حجرا، ويعمل في هدوء، ويمزق أواصر الناس، فينشق الابن على أبيه، وتخالف المرأة زوجها، ويتمرد العبيد على سادتهم، لقد فرق محمد أمر الناس، ويوشك أن يحطم كيان مكة والعرب... لسوف أقتله ... فان كان نبياً فليحمه الله مني ... ابن الخطاب يقتل نبيا ... هذا نبأ كالرعد ... ومن غيري يفعلها ؟ ؟ ابن الخطاب يدافع عن وحدة قريش، ورابطة العرب ... ومن سواي يقدر على فعل ذلك ؟ ؟ »

وأخذ عمر يتحسس الاخبار، ويسأل عن مقر محمد الآن، هيهات ان تستطيع قوة في الوجود أن تثنيه عن عزمه، وعمر لا ينكر ان نوازع نفسية غريبة تثير في قلبه رعدة خفية، وبعض الهواجس تنبت في روحه التردد ... فليسحق نزوات الخوف والتردد، وليضع حدا لهذه المأساة، فينتهي العذاب والتمزق، ولا يفر الصابئون إلى الحبشة او غيرها، ولتهجع الفتنة والمناقشات الحادة، وعرف عمر أن محمدا بدار الارقم بن أبي الارقم عند « الصفا »، ومعه أربعون من أتباعه ... فأسرع متوشحاً سيفه ... والسيف يحسم كثيراً من الأمور يا ابن الخطاب ... لكن الدم المراق لا يجف على تلك الرمال بالسرعة التي تتمناها . ألا يمكن ان يجر ذلك علي كثيراً من المتاعب ؟ ؟ ليكن ... ان استقرار الامور، وعودة الهدوء إلى مكة لا بد وان يضحي الرجال بالكثير في سبيله ... وتصور عمر نفسه وهو يرفع سيفه اللامع، ويعلو به هامة محمد ... والسيف يهوي بسرعة فائقة ... لكن وجه محمد باش ... مبتسم ... يشرق بنور غريب ... ان نوازع الضعف والتردد تعاوده من جديد ... لكنه يهرول إلى الطريق ... لن يستسلم للهوى والضعف ... لا بد من قتل محمد ... ابن الخطاب يمضي وقوة مجهولة تحاول جذبه إلى الوراء، فيدق الارض بقدميه، وكأنه يقهر هواجسه، ويعلن عن اصراره وعناده ...

— « إلى أين يا عمر ؟ ؟ »

— « من ؟ ؟ نعيم بن عبد الله ؟ ؟ »

— « نعم ... »

— « وما شأنك بي ! ! »

— « أراك مكفهر الوجه، متوشحاً سيفك ... أخشى ان يكون وراء ذلك أمر خطير يا عمر ... » توقف عمر وقال :

— « لسوف أقتل محمداً ... »

لكأنما أراد عمر أن يعلنها على الملأ، وان يطلقها كوعد لا يصح النكوص عنه .

قال نعيم :

— « ويحك يا ابن الخطاب ! ! لقد عهدتك راجح العقل، ثاقب النظرة ... »

— « لم أزل كذلك ... »

هتف نعيم :

— « لا تغرق نفسك في متاهات الخطأ، وأنت في فورة الغضب ... »

— « ان محمداً رجل مثلنا ... يأكل ... ويشرب ... وينام .... ويعاشر النساء ... »

— « وهو لم يزد على ذلك، سوى أنه نبي مرسل ... ولك ان تصدقه أو لا تصدقه، وهو لا يحاسب أحدا، انما الحساب عند الله ... قضية لا يُفصل فيها الآن ... »

صاح عمر محتداً :

— « بل سأفصل فيها الآن بسيفي ... »

— « لكن محمدا لم يرفع في وجهك سيفا ... »

— « ليته يفعل ... لو حدث ذلك لهان الأمر ... »

وأردف نعيم قائلا :

— « ان الرجل يقارعكم حجة بحجة، وينازلكم بالكلمَة، ولجوؤكم إلى السيف، مظهر من مظاهر العجز والخطأ، وهو في نفس الوقت اقرار غير مباشر بقوة حجته ... »

قهقه عمر ساخرا، وهو يقول :

— « أية حجة تلك التي تتحدث عنها ؟ ؟ هذا الصابىء فرق أمر قريش ، وسفه أخلاقها، وعاب دينها، وسب آلهتها ... »

ورأى نعيم أن يجرب معه شيئاً آخر، فقال مهدداً :

— « أترى يا عمر أن « عبد مناف » تاركوك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ ؟ »

أدرك عمر ما ينطوي عليه من خطورة كامنة، قد تؤدي إلى فنائه وفناء قبيلته « بني عدي » بأسرها، ليت الضرر يحيق به وحده، لكن اراقة دم محمد قد يشعل النار في أرجاء مكة، ويمزق أمنها ووحدتها اكثر مما تمزقها دعوة محمد، ها هو التردد والضعف يعودان اليه مرة أخرى ، ولكنه أعلن كلمته، ولن يتقاعس او يتردد، وصاح عمر مصمما :

— « لسوف أضحي بأغلى شيء كي أقضي على الوباء قبل أن يستفحل أمره ... »
قال نعيم في غير قليل من السخرية المرة :

— « أنت تسميه وباء، ومحمد يسميه شفاء، والحكم ليس لك وحدك انها قضية كبرى تهم الجميع ، والناس في أنحاء مكة وخارجها هم القادرون على اصدار الحكم ... وفي مثل هذه الامور يا عمر لا يصح ان نحكم السيوف ... انها عمياء صماء لا تخلف وراءها غير الدماء والاحقاد ... لتترك الاراء تتصارع يا عمر ... ان محمدا يعرض قضيته، ويترك للناس الخيار، فلا قهر ولا الزام ... وانت تلزمه بقضيتك بحد السيف ... والدم لا يطفىء الحزازات، ولكنه يزيد في اشعالها ... »

قال عمر في صبر نافد :

— « هل انتهيت من كلامك ؟ ؟

فلما لم يجب نعيم، هدد عمر في اصرار :

— « لسوف أقتله ... »

اقترب منه نعيم، وسدد اليه نظرات حادة لا تخلو من شماته، وقال :

— « ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ... »

قال عمر وقد ساد وجهه شحوب ظاهر :

— « ماذا تعني ؟ ؟ »

أجاب نعيم وهو يضغط على مخارج الحروف :

— « لقد أسلمت أختك فاطمة و... »

وقاطعه عمر :

— « أختي ؟ ؟ »

— « أجل ، وزوجها ابن عمك سعيد بن زيد ... »

— « هذا كذب، انك تحاول تحطيم عزيمتي، والنيل من كبريائي ... »

واستطرد نعيم دون ان يكترث لاعتراضه :

— « وتابعا محمدا على دينه ... »

نحى عمر نعيماً عن طريقه، وعاد أدراجه إلى بيت أخته متلاحق الأنفاس، ما هذه الضوضاء التي تضطرم في رأسه، ان فكره لم يرتبك طول حياته كما يرتبك في هذه الأيام، العواصف الهوجاء تعصف بروحه وعقله، والليل الطويل يأتي اليه بالهموم والأرق، والتردد ينتهبه دون رحمة او شفقة، والعالم الرحب الكبير اضحى امام بصره مثل كهف ضيق مظلم داهمه غبار كثيف وحرارة تكتم الانفاس ... ابنة الخطاب تتبع محمدا ... امرأة لا وزن لها ولا قيمة تفكر وتقتنع، وتختار الطريق الذي آمنت به، ألم تكن ترتجف أوصالها اذا ما وقفت أمام عمر، وتنتفض في هلع اذا ما صاح بها؟؟ هل أصبحت كلمات محمد أحب إلى نفسها من كرامة أخيها، ومن أمن قريش ؟ ؟ وهل تستحق هذه العقيدة الجديدة منها أن تعرض نفسها للتضحية بحياتها ؟ ؟ ماذا يقول الناس عني الآن وقد أمعنت في تعذيب المسلمين من قبل ؟ ؟ انها لصفعة قاسية توجهها الاقدار إلى كرامتي وكبريائي ... لسوف أعرف كيف أؤدب تلك المارقة ... لا ... لا يا عمر ... يجب ان تتسلل في هدوء ... فقد تقبض عليهما متلبسين بقراءة القرآن، أو بأداء الصلاة التي يعلمها محمد لاتباعه ... أريد أن أرى بنفسي، وأتحقق من كل شيء ... هذا يوم عصيب يا عمر ... لسوف أريق دمك يا ابنة الخطاب ... بل ودم زوجك أيضاً ... يجب أن أمسح العار الذي لحق بقبيلتنا قبل ان أهوي بسيفي على هام محمد ...

وسمع عمر صوتاً ندياً رقراقاً ... انه يعرف هذا الصوت ... آه آيات من القرآن ... انني استطيع ان أميز كلماته من بين ملايين الكلمات ... له طابع خاص غريب فلأسمع ...

« ... وعنت الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلما، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما، وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا، فتعالى الله الملك الحق، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه، وقل رب زدني علما ... »

ها هي كلمات الله ... تطرق باب قلبه في رفق، لكأنما هذه الكلمات لحن سماوي مؤثر حزين يسيل الدموع ... الدموع ؟ ؟ لا ... وسقط السيف من يده، فأسرع بتناوله، خيل اليه ان عضلاته المتشنجة تتراخى، لكنه يقاوم... هذا سحر، سحر لا شك في ذلك، ترى كيف جاءته هذه الكلمات البسيطة التي تسحر القلوب ؟ ؟ انها شيء فوق شعر عكاظ وحكمتها وخطاباتها ...

الويل لك يا عمر ! ! كيف تضعف ؟ ؟ ستكون أضحوكة الناس في مكة ، ومضغة في الافواه ... واستعاد رباطة جأشه واصراره، ودفع الباب في عنف، وصاح بصوت أجش ... أسرع قارىء القرآن « خباب » بالهروب إلى حجرة داخلية، بينما وقفت فاطمة جامدة شاحبة وإلى جوارها زوجها سعيد ...

وهتف عمر :

— « ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ ؟ لقد تناهى إلى سمعي كلمات غريبة ... »

قالت فاطمة في ارتباك :

— « لا شيء يا عمر »

— « بلى والله ... لقد سمعت » ماذا أقول ؟ ؟ يا للكارثة ! ! لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه ... »

ونقل نظراته الحانقة بينهما، ثم أمسك بتلابيب سعيد وجذبه اليه في عنف ، وأخذ يسدد اليه ضرباته، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها، فانصرف اليها يضربها، حتى شج رأسها وأسال دماءها ، وهو يقول :

— « لقد نسيت أن هناك دروسا قاسية في الأدب كان يجب أن ألقنها لك من قبل يا ابنة الخطاب يا صابئة ... »

قالت فاطمة ودموعها تمتزج بدمائها :

— « نعم، قد أسلمنا ... وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك ... » ماذا يسمع عمر؟ ؟ أفاطمة التي تتكلم ؟ ؟ انها لم تعترضه في حياته، ولم تقف منه مثل هذا الموقف من قبل، أيمكن أن يحدث لها هذا الانقلاب المفاجىء ؟ ؟ ولماذا ؟ ؟ وما شأن امرأة تافهة بالرسالات؟ ؟ وماذا يضيرها ان تعتنق الدين الجديد او لا تعتنق ؟ ؟ ان رأس عمر يكتظ بمزيد من علامات الاستفهام التي تثقل على عقله كحجارة صغيرة مدببة، او كسهام تؤلمه، وتسيل أمنه واطمئنانه ... » فاصنع ما بدا لك « يا لها من كلمة كبيرة تفوهت بها فاطمة ... آه ... لقد كانت تقرأ منذ لحظات كلمات تهز الجبال، لقد سمعت الصوت الندي الرقراق يقول منذ لحظات « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » انها الشحنات التي يعبىء بها محمد نفوس الناس، فلا يرهبون الوعيد ولا يستسلمون للوعود ...

ورفع بصره إلى فاطمة، كانت تقف كالجبل الأشم صامدة قوية، لا يبدو على وجهها الدامي أثر للخوف، ولا تنطق ملامحها برهبة من الموت، حتى لكأن أخاها يمسك بعصا

هزيلة، ولا يتشح بسيف صارم حاد ... ودماء فاطمة تنسكب ... يا لقسوتك يا ابن الخطاب... الدماء تسيل ... يا متجمد القلب ...

— « معذرة يا فاطمة ... لقد أقدمت على اساءة بالغة ... لشد ما يؤلمني ان أرى دمك الزكي يسيل ... »

قالت وقد انهمرت دموعها بغزارة :

— « أنت أخي ... وأنا أحبك ... لكن حبي لله أشد ... انه خالقك وخالقي، لقد تغلغلت كلماته إلى روحي وعقلي فآمنت ... »

طأطأ عمر رأسه، ثم همس في رقة :

— « أين الصحيفة التي كنتما تقرآن فيها ؟ ؟ »

قالت فاطمة في حرج :

— « تريد أن تمزقها ... اننا نخشاك عليها ...

— « أقسم بآلهتي أن أردها اليك بعد اتمام قراءتها ... »

أخذ عمر يتلو الصحيفة ... سورة « طه » ... انه يشعر بالحرج « يشعر بالعيون التي ترقب حركاته وسكناته، وتتابع انفعالاته تظهر على وجهه ... لكنه سرعان ما دخل إلى عالم مثير مائج ... قصة موسى وفرعون ... بنو اسرائيل يترنحون تحت ضربات الطغيان ... معجزات ... قصة العذاب والظلم والانحراف ... وآية تقول : انني انا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى... » وعمر يستغرق في الكلمات العذبة ... ويمضي في رحلة من أروع رحلات العمر بين حقائق تهزه هزا عنيفاً ... « السلام على من اتبع الهدى » ... « وقد خاب من افترى » آه ... وهذه كلمات أخرى لها فعل السحر في نفسه، ان السحرة الذين كفروا بفرعون وبسحرهم الخادع أمام آيات الله الكبرى، يصرخون في وجه فرعون، ويقولون في اصرار لا يتزعزع : « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا، فاقض ما انت قاض، انما تقضي هذه الحياة الدنيا، انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى... »

ان رأس عمر يدور، علامات الاستفهام الحادة التي تنغرس في رأسه المتعب تذوب... تتبدد، ويحل محلها يقين ... وحقائق رائقة، صافية كالماء النقي العذب ... لم يعد يشعر بظمأ روحه العنيد الطويل ... هل حقا حاول عمر ان يرفع سيفه في وجه هذه الكلمات ليقتلها ؟ ؟ لشد ما كان مغروراً مخدوعاً ... صغيراً ... آه ... أصابت فاطمة وأصاب زيد ..

وأخطأ عمر ... عمر سفير قريش وفارسها ومتحدثها اللبق ... لماذا حدث ذلك ؟ ؟ هل كان من الضروري ان يحترق بنيران العذاب، وتدمي الاشواك قدميه، وهو يعبر الطريق الطويل إلى الحقيقة الرائعة ؟ ؟ ورفع رأسه، وبدت قطرات من الدمع عالقة بأهدابه، وتمتم في خشوع

— « أشهد ألا إله الا الله، وان محمدا رسول الله ... »

ووثب « خباب » قارىء القرآن، من مخبئه الذي توارى فيه منذ ساعة، وأخذ يتواثب في مرح وسعادة . وهو يقول :

— « والله يا ابن الخطاب، لقد سمعت رسول الله يقول : اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام، او بعمر بن الخطاب ... فالله الله يا عمر... والله اني لأرجو ان يكون الله قد خصك بدعوة نبيه .. »

●

وتنهد عمر في ارتياح ... ان الضيق الذي يضغط على صدره ينجاب رويدا رويدا ... أنغام حلوة شجية تضج بها روحه ... مذاق جديد لحياة رائعة ...

الفصل الرّابع

أصبحت الدنيا غير الدنيا، وتبدل مزاجه النفسي، وشعر عمر أنه قد خلق خلقاً جديدا، وامتدت الثقة بالنفس إلى آفاق أرحب وأغنى، شتان بين الأمس واليوم، انه لم يكتسب مالا، ولم يتسنم مكانة رئاسية عالية بين قومه، ولم يضع على رأسه تاجا، او يمسك بيده صوجاناً، لكن خيل اليه انه قد حاز كنوز الدنيا بأسرها، وان بين جنبيه من اللذة العظمى ما لو عرفها القياصرة والاكاسرة، لقاتلوه عليها بالسيوف ... لقد اصبح صاحب رسالة، يبذل في سبيل نشرها وانمائها كل ما يملك من جهد ووقت ومال قليل، ذلك هو سر الانقلاب الكبير الذي شمل حياته ... انه يجلس الآن إلى جوار بلال العبد الحبشي، وإلى ابى بكر خليل رسول الله وإلى علي بن ابي طالب ذلك الشاب الصغير، إلى الاغنياء والفقراء، والضعفاء والأقوياء من المسلمين، اولئك الذين كان ينازلهم في المعارك غير المتكافئة، وينال من إيمانهم وأفكارهم، انه يجلس اليهم يتوسطهم رسول الله، يملأ قلبه ينبوع دافق من السعادة لا مثيل له ... ويتصدى لمظالم قريش وضغوطها ومكرها في صبر أبيّ، وايمان لا يتزعزع .. وانه ليجد من النشوة الفائقة عندما يتعرض للايذاء ما لم يجد طول حياته، ان محمدا انسان كامل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى حسبما يعتقد عمر، فهو لا يبدو كشيخ للقبيلة مستبد، يملي ارادته، او ينتصر لنوازعه، ولا تحركه حزازات صغيرة مبعثها العصبية او الكبرياء الفارغة ومحمد ليس شاعراً ينشد المجد، ويبغي الكسب على الفصحاء، وهو ليس كاهنا يترنم بالالغاز والاحاجي، ويعيش في جو غامض يثير الدهشة وحب الاستطلاع، او يحتكر الاسرار الالهية ... محمد رجل بسيط، يحمل قضية واضحة، يتفتح لها القلب الحي، وتتشربها العقول المستقيمة وتهفو اليها النفوس السليمة ... ومحمد يبتسم ويأكل وينام، ويتزوج ويداعب الاطفال، ويحترم الناس أيا كانت منازلهم، ويجعل من العمل اليومي العادي لونا رائعاً من العبادة ...

ويقول عمر لابنته « حفصة »

— « تصوري يا ابنتي ... حتى الكلمة الطيبة صدقة « يثاب المرء عليها ... العطف على الابناء شيء نؤجر عليه، والحدب على الزوجة وملاطفتها تعقبه حسنات كثيرة من الله ... الأكل الحلال ... الشرب الحلال ... حتى الشوكة يشاكها الانسان ينال عليها الثواب.. »

قالت حفصة في استغراب : والشراب أيضاً ؟ ؟

— « أجل الشراب ... آه فهمت، تقصدين الخمر ... انها تثير حيرتي... يقول القرآن ان اثمها اكبر من نفعها ... وهذا لا يشفي غليلي، انها تذهب العقل، وتغلب جانب الحيوانية على جانب الانسانية في الآدمي ... ولهذا فأنا اكرهها ، كلمت الرسول عنها فأشار إلى أن انتظر، هذا ما فهمته، واني اعتقد أن الله لا شك سوف ينزل فيها حكما حاسما في يوم من الايام ... اي حفصة يا ابنتي الغالية ... ان اباك قد جرب الكثير من احداث الدنيا ... وسافرت كثيراً وقابلت عديدا من رجال الحكم والفكر والدين والمال ...

لم أجد أعظم ولا أوضح من كلمات محمد ... وسيكون لهذا الدين يا ابنتي شأن اي شأن ... انني اتطلع بعين الغيب إلى المستقبل فيخيل إلي اني ارى الرايات تخفق في ارجاء الدنيا معلنة مولد الحرية ... وكرامة الانسان ... وتحطيم الاصنام بكل صورها والوانها ...

ومحمد يحدثنا عن الاديان القديمة وكأنه عاشها : تاريخها ... تطوراتها ... العبث الذي داخلها ... وكيف ان الاسلام هو امتدادها الطبيعي، وهو الحلقة الاخيرة الكاملة لها ... انه الصورة المثلى التي ارتضاها الله لعباده، والعقيدة الكاملة التي تناسب فكر الانسان وطبيعته وتكوينه ... »

قالت حفصة وقد أشرق وجهها بالسعادة :

— « لكم يحز في نفسي يا أبي انك لم تكن اول من اسلم ... »

— « لعنة الله على كبرياء الجاهلية يا حفصة ... كان عقلي يرى النور والحقيقة ... وكلما ازددت اقتراباً منها ازددت مغالاة في حرب المسلمين والتشنيع عليهم ... الحقيقة انني آمنت منذ زمن طويل بقلبي، ولم يكن يبقى سوى ان اكف جوارحي عن العبث، وان اكف نزواتي عن السير في ركاب الغرور الاحمق ... انها ارادة الله يا ابنتي ... ما كان في الامكان ان اقتطف الثمرة قبل أن يأتي الموعد المحدد ... كل شيء في هذه الحياة له ميعاد يا حفصة ... وعندما التقيت بالنور الاكبر سكنت نفسي، واستراح فؤادي، وسجد عقلي لله شكراً ... لقد بدأت بذلك عهداً جديداً من التضحية وتحمل الاذى والآلام، ومع ذلك فأنا أسعد حالا ... أتذكرين يا حفصة يوم ان تعاهدت قريش على مقاطعة محمد والمؤمنين به ؟ ؟

— « أذكر ذلك جيداً يا أبي... لقد علقوا ورقة مكتوبة بذلك على استار الكعبة »

— « أجل ... تعاهدوا الا يتزوجوا منا ولا نتزوج منهم . والا يتجاوروا معنا ... كان حصارا شديداً قاسياً ... عشنا معزولين في « شعب بني هاشم » نجتر آلام الحرمان والعناء والمقاطعة ... كالمنبوذين ... فترة طويلة من الزمن يا حفصة لطالما فكرت ان احمل سيفي

واخرج إلى قريش أقاتلها واظل اقاتلها حتى استشهد ... لكن اباك رجل نظام ... ولم اكن بالشخص الذي يخرج عن ارادة محمد ونظامه ... كان يوصينا بالصبر والتبتل إلى الله، وتدريب النفس على المشاق والصعاب ...

هزت حفصة رأسها في أسى : — « كانت أياما قاسية يا أبي »، واستأنف عمر حديثه :

— « وكان رجالات قريش يظنون اننا نضمر وننكمش، وان قوة محمد ودعوته ودينه كلها في طريقها إلى الزوال، وان المسألة مسألة وقت ليس الاّ ... ولم يدر بخلدهم ان ايام العزلة والانطواء والاضطهاد كلها نار هادئة تنضج النفوس، وتشحذ العزائم، وتتيح الفرصة للاستعداد ثم الانطلاق ... انت تعرفين ماذا حدث بعد ذلك :

قالت حفصة :

— « أجل ... انشقت قريش على نفسها، وتلاوموا، ومزقوا المعاهدة الآثمة، وفكوا الحصار الغادر وأقبل بعضهم على اعتناق الاسلام ... »

أردف عمر قائلاً :

— « الأهم من ذلك كله رجال من الاوس والخزرج قدموا من المدينة، واعلنوا اسلامهم وعرضوا على الرسول أن يحموه مما يحمون منه نساءهم واموالهم ... ونحن على ابواب حدث كبير ... »

قالت حفصة في لهفة :

— « ماذا يا أبت؟ ؟ »

— « الهجرة ... »

— « تعني الفرار ... »

— « أيتها الجاهلة ... انها أرض جديدة ... اننا نوسع رقعة الميدان الذي نتحرك فوقه. وننقل النور إلى عدد آخر من الناس ... وهي في نفس الوقت قضاء على الجمود الذي ران على مكة ... ليست مكة هي البلد الوحيد في العالم، ولم يأت النبي بالاسلام خاصة لاهل مكة ... انه رسول للناس كافة في مشارق الارض ومغاربها ... ثم تصوري هؤلاء المهاجرين وهم ينطلقون في عرض الصحراء، يجدون السير بالليل والنهار، مترنمين بكلمات الله الخالدة... دون ان تؤثر في معنوياتهم الغربة وترك الاهل والمال والوطن... ان ذلك يعني يا حفصة ... انهم يعيشون لشيء واحد ... دعوة الله ونصرتها ... لقد كان لكل نبي هجرة كما يقول الرسول ... ماذا يفعل الزارع اذا لم تجد الارض بالطيبات، إذا يئس من اخصابها ؟ ؟ انه يبحث عن ارض طيبة، ومرعى خصب والا مات جوعا،

ونفقت ابله واغنامه ... اننا نسير إلى الارض الطيبة، حيث ينبت الزرع ، ويجود الضرع ... وحيث الرجال الاشداء الذين بايعوا الرسول على أن يضحوا في سبيل الله بكل ما يملكون ... أتسمين هذه الهجرة اذن فرارا ؟ ؟ »

قالت حفصة، وقد توردت وجنتاها بالخجل :

— « لقد خانني التوفيق في هذا الرأي يا أبتي ... »

— « وهناك أمر آخر أهم من هذا كله ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « لقد أمر الله رسوله بالهجرة ... »

— « وأنت يا أبتي ... »

— « مع الرسول اينما ذهب، ما كان لعمر ان يتخلف يوما ما عن امر يندبه له رسول الله، لكن ... »

قالت حفصة في ترقب :

— « لكن ماذا ؟ ؟ »

— « لن أهاجر خفية ... لكم يلذ لي أن أنتضي سيفي، وأصرخ في أرجاء قريش، وأعلن على الملأ انني مهاجر ... ومن اراد ان تثكله امه فليأتني خلف ذلك الوادي ... »

قالت حفصة باسمه :

— «تأبى دائما يا أبي الا أن تثير حفيظة الكافرين، وتطعن كبرياءهم، لم تستطع ان تخفي اسلامك يوم اسلمت، بل جاهرت به، وتحديت اساطين مكة، وكنت اول السائرين إلى الكعبة لتؤدي الصلاة علنا امام ابي جهل وابي سفيان وغيرهما ... »

همس عمر في سعادة :

— « ذكريات طيبة ... ان حياتي لا قيمة لها بالنسبة لي، انني لا املكها، لقد وهبتها لله خالصة ... »

— « لكن من الواجب ان تحافظ على حياتك حتى تحين اللحظات الكبرى الحاسمة... »

قهقه عمر حتى كاد يستلقي على ظهره، وقال :

— « تخافين ان يصيب اباك مكروه ... لكنك تعبرين عن نفسك بطريقة ماكرة... »

وجلس هادئاً بضع لحظات، ثم قال في جد :

— « كثير من الناس يخدعون انفسهم بمثل كلماتك، يجبنون عن مواجهة الخطر، استصغاراً لبعض المعارك، انهم يغالون في ثمن تضحياتهم، انهم يأنفون ان يموتوا في معارك صغيرة ... وما أظن ذلك الا كبرياء فارغة، او جبنا مستتراً، او ايماناً ضعيفاً ... ان الجهاد بشتى مراحله ومعاركه معركة واحدة كبرى ... الاشياء الصغيرة تتلاحم وتكون الكل ... والمعركة الصغيرة جزء من المعركة الكبرى، ولهذا فانا لا آنف ان استشهد في معركة كبرت ام صغرت. »

قالت حفصة في عناد :

— « ومع ذلك فانا اعتقد ان بقاء بعض الناس على قيد الحياة اجدى وانفع من التضحية بانفسهم في قت مبكر ... »

— « انني ارفض هذا المنطق يا حفصة ... من اكون أنا ؟ ؟ ألا يمكن ان يكون احد الذين استشهدوا تحت وطأة التعذيب في ساحات مكة، اصفى فكرا، واكثر اثرا من ابن الخطاب ؟ ؟ ان دمهم المراق في سبيل الله فعل ما لا تفعله مئات الخطب والآراء، وكان هذا الاستشهاد الصامت أقوى الف مرة من ضربات السيوف ... »

وصمت لحظة ثم عاد يقول :

— « ومع ذلك فهناك اشياء لا يمكن ان تسمى معارك اصلا، وهذه لا تستحق التضحية انها ضرب من التهور الممقوت ... »

قالت حفصة في خجل :

— « وهل من الضروري ازاء ذلك ان تعلن هجرتك على الملأ ؟ ؟ »

هز عمر رأسه، وسدد إلى ابنته نظرات عاتبة، وقال :

— « أيتها الماكرة ... انني لا اصطنع المعارك اصطناعاً لألهو بمصيري فيها، لكن لي تجربة لا تنسى ... أجل ... في هجرة الحبشة الاولى، يوم ان رأيت ام عبد الله ترحل في خوف وأسى ... لشد ما تأثرت لمنظرها، بل لعلها كانت احد الدوافع الهامة في اعلان اسلامي ... ان هجرتي مع الرسول سوف تترك دويا في أرجاء مكة، لسوف تشد إلى الاسلام نفوسا، وستزيل الضعف من قلوب بعض المستضعفين ... ان اعلاني عن هجرتي يعني التحريض على متابعتي ... أتفهمين ؟؟

قالت حفصة :

— « ماذا لو أصابك مكروه ... »

— « ان احتمال وقوع المكروه أكثر بالنسبة للبقاء في مكة، وأقل عند الهجرة، ان الذين يتركون وطنهم واصدقاءهم وذويهم ويرحلون، يتركون اثراً بالغاً في نفوس الأسوياء من الناس ... اي حفصة ... انني احاول أن أحسب كل شيء بدقة ... ومع ذلك فان توفيق الله اهم من أي شيء آخر ... »

●

وفي اليوم التالي ، انتضى عمر سيفه، وخرج إلى شوارع مكة، وطاف بالكعبة، وأدى الصلاة، ثم أخذ ينادي بأعلى صوته أينما سار ، معلناً نبأ هجرته، قائلاً :

— « من أراد أن تثكله امه، فليأتني خلف هذا الوادي ... »

كان نداوءه يثير في روؤس الناس كثيراً من الافكار ...

فمن قائل : « ان محمدا يعلو شأنه ... »

وآخر يقول : « لماذا تلجىء قريش بنيها للغربة ومغادرة الاهل والوطن »

وثالث يغمغم : « لقد قضى أئمة الكفر في البلد الحرام على شعائر الامن والحرية »

ورابع يتمتم : « ليت لي من الشجاعة ما يجعلني اهجم على ابن الخطاب وافلق جمجمته بسيفي ، انه مغرور بقوته ... »

وخامس : « لقد فعل عمر ما يشكر عليه، فعندما يغادر محمد واتباعه مكة فسيعود اليها الهدوء والسكون، ويظللها السلام من جديد » ... وآخرون لم يتكلموا . بل شعروا بنوازع الحزن والأسى ، وايقنوا ان ما يحدث من اضطهاد المسلمين ، ومطاردتهم امر ليس من العدل ولا الشهامة العربية في شيء ...

وتحركت القوافل الصغيرة عبر الصحارى الشاسعة إلى المدينة، وفتحت يثرب ابوابها لتستقبل قافلة النور ، وعلى رأسها الرجل الذي تحدثت باسمه الركبان وتناقل الرواة انباء رسالته في كل مكان ...

وفي أطراف المدينة، وبالقرب منها، وقف اليهود يرمقون هذا الغزو ؟ . او الزحف الهادىء في توجس وترقب، وقال كبيرهم كعب بن اسد في قلق :

— « ايها اليهود ... هذا يوم له ما بعده ... وما أظن الا انه نبي مرسل قد قدم عليكم ... فاما أن تؤمنوا بدعوته ، او تستعدوا لاهوال لا يعلم الا الله مداها ... »

وكان يقف إلى جواره كعب بن الاشرف الشاعر اليهودي والمرابي الكبير ، وحيي بن أخطب الداهية الاكبر ، وعمرو بن سعدى ذلك اليهودي الهادىء الذي يمتلئ قلبه بالحيرة والاضطراب ... ان الامر جد خطير ، وفي حاجة ماسة إلى تفكير متصل ...

وتمتم كعب بن الاشرف :

« يجب ان نفتح عيوننا جيداً ... »

الفصل الخامس

« صفية ابنة حيي بن أخطب » تعد من أشهر نساء اليهود على الاطلاق، فأبوها حيي بن أخطب رجل مرموق المكانة، نابه الشأن، صاحب رأي وكلمة مطاعة بين بني قومه من اليهود، وعلى صلات وثيقة مع رجالات القبائل العربية في طول الجزيرة وعرضها، وزوجها كنانة بن الربيع سيد قومه، كثير المال، قوي الجانب، تحميه السيوف والدنانير والتجارة الواسعة، والديانة العتيقة، وصفية في نفس الوقت على جانب كبير من الجمال والفطنة والأريحية، فهي تبش عند اللقاء، وتجود للفقراء، وتواسي المحزونين، بل انها تحظى أكثر من زوجها بحب شعب اليهود بنسائه ورجاله، ولم تكن في يوم من الايام بمعزل عن كبريات الامور التي تجري، سواء في مجال السياسة او الدين او الحرب او المال..

وامرأة هذا شأنها لم تغلق فكرها، او تغمض عينيها عما يجري بشأن النبي العربي الجديد كانت تتقصى انباءه، وتلح في طلبها، وتتلقى ما يصل اليها من آيات القرآن تلقي الشغوفة ذات الفضول الزائد ... وترمق بعين يقظة صدى الدعوة الاسلامية في مجتمعات اليهود الصاخبة ... وتابعت تطورات الموقف مرحلة مرحلة ... في البداية كان اليهود يناقشون امر ظهور نبي جديد، وموقفهم من ذلك النبي، الذي بشرت به كتبهم برغم ما فيها من أكاذيب، وتعاليم موضوعة لا تمت إلى التوراة بصلة ... كانوا يأملون ان النبي الجديد قد ينحاز إلى صفهم، وينضوي تحت لوائهم، فهم اسبق في لقاء السماء، وأقدم عهداً بكتبها، واطول تاريخاً في ممارستها ...

وقالت صفية لزوجها كنانة بن الربيع :

— « النبي الجديد يؤمن بموسى ... »

قال ساخرا :

— « ويؤمن بعيسى والانبياء من قبله ... »

— « هذه بداية طيبة يا كنانة ... ولذلك فأنا لا أنقم كثيراً على الحبر الأكبر بن سلام ذلك الذي أعلن إسلامه برغم ثقتنا بإخلاصه للدعوة اليهودية ... »

— « بل أسوأ بداية ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « لن يكون بيننا وبين محمد لقاء ... »

— « ألا يؤمن بالله وكتبه ورسله ... »

— « نحن لا نؤمن بغير أنبياء بني اسرائيل وكتبهم .. »

ثم أخذ يشرح لها الأمر في صراحة عجيبة، ما دمنا لا نستطيع ان نطوي هذا النبي العربي تحت جناحنا، فلسوف نعاديه بالضرورة ... انه يتهم كتبنا بالتزييف والتغيير والتبديل، ويتلو الآيات عن بني اسرائيل، وقتلهم الانبياء بغير حق، ويسرد قصصنا بطريقة مخالفة ... والاخطر من هذا كله، أنه يدعونا إلى الايمان بدعوته ... معنى ذلك ... أن يتحول السادة إلى جنود تحت امرته ... أو إلى عبيد يأتمرون بمشيئته ... ومعنى هذا أن نلغي كتبنا المحرفة — كما يزعم — ولا نؤمن الا بقرآنه ... وان نعترف بنبوة عيسى وانجيله ... ان دينه كما يقول — هو خاتم الرسالات، والمهيمن على الديانات القديمة، والشامل لامور الدين والدنيا ... معنى ذلك أن نحرم ما حرم الاسلام، وان نحل ما أحله ... معنى ذلك زوال ملكنا وسلطاننا، وانهيار مجدنا، فلا ربا ولا امتياز لعنصرنا ... ومعنى ذلك ان نؤدي شعائرنا وعباداتنا كما يؤديها ... وان نرفع شعاره الخطر « لا اله الا الله، محمد رسول الله » ويصبح كنانة بن الربيع، وحيى بن اخطب، وكعب بن اسد سيد قريظة، وكعب بن الاشرف شاعرنا العظيم، وعمرو بن جحاش ... ان يصبح هؤلاء جميعاً في منزلة العبد الحبشي بلال او المتشرد الغريب سلمان الفارسي، او دونهم ... والله ان ذلك لن يكون، ما دمت على قيد الحياة ... أما إسلام « بن سلام » فهو طعنة أصابت كبرياء طعنة نجلاء ... »

أطرقت صفية هنيهة، لم يعجبها طريقة زوجها في عرض الامر الخطير، ولم يرتح قلبها لتعليلات زوجها وتفسيره، ان الامر لا يصح ان يناقش على ضوء ما سيحققه اليهود من كسب، او يقدمونه من خسائر وتضحيات، ان الدعوة التي يقدمها محمد يجب ان تناقش بجزئياتها مناقشة جريئة حرة، دون ارتباطات او احكام مسبقة، محمد يقول لا اله الا الله، وهذا حق، ومحمد يسرد قصص بني اسرائيل وحيا من عند الله، دون ان يسبق له معرفة ذلك او الالمام به، وهذا جانب معجز في الامر، ان تفاصيل ذلك كله تفاصيل مذهلة لا يستطيعها بشر ... ومحمد يدعو إلى الاخاء والمساواة، وإلى فضائل يقبلها العقل والضمير الحي... انها تجد استجابة غريبة لدى المنصفين من الناس.

وتمتمت صفية بنت حيي بن أخطب :

— « انني خائفة يا كنانة ... »

— « لماذا ؟ ؟ »

— « اخاف أن يكون محمد على حق ... »

ضحك ضحكة قصيرة وقال .

— « قولي صراحة انك تخافين ان يكون اليهود على باطل »

— « نفس المعنى . . »

— « لعل هذا ما كان يقوله اسلافنا عندما ظهر عيسى بن مريم ، لكن هذا لم يمنعهم من السير في طريقهم ، والتمسك بعقيدتهم حتى الآن ... »

قالت صفية في قلق :

— « هذا لا يعني أن اسلافنا كانوا على حق بالضرورة ... »

— « ماذا تعنين اذن ؟ ؟ »

— « ان وجود الوثنيين حتى عصرنا هذا ، وعدم ايمانهم بأي نبي لا يعني انهم على حق »

— « انك يا صفية تتمتعين بمنطق خلاب ، وحوار مذهل ... »

— « انني ابحث عن الحقيقة ... »

صرخ فيها محتداً :

— « الحقيقة هنا ... في كتبنا ... الحقيقة التي نملكها باقية منذ آلاف السنين ، يجب ان تكفي عن هذا الهراء ... هذه الفلسفات العقيمة لا مجال لها في موقف الجد الحاسم يا صفية .. انك تتكلمين بطريقة تخالف المفاهيم التي يتحدث بها ابوك ... من أنت حتى تبدين الرأي في أمر من أمور الدين ؟ ؟ النساء للفراش وقدور الطعام ونظافة المنازل ... »

أطرقت صفية صامتة ، وانطوت على عالمها الخاص لشد ما تكره تصرفات زوجها ، وتنقم منه افكاره ! ! هذا المتعالي المتغطرس ، ينظر اليها دائماً من عل ، ويرمقها في ازدراء ، يعاملها كجارية ، ويرتمي فوقها كالبهيمة ، ولا يكترث لرأيها حتى لكأن النساء لا يعرفن كيف يفكرن ، ولا يستطعن ان يفعلن صواباً ، او ينطقن حقاً ... شيء من النفور الزائد يخالط مشاعرها نحوه ، لكنها لا تستطيع ان تكشف عن ذلك ، او تواجهه به ، انه قدرها لا مفر منه ، ماذا يقول الناس لو تركت بيته وأوت إلى بيت ابيها؟؟ سيقولون بنت حيي بن اخطب . لم تراع حق الزوج ، ولا كرامة الام ، وانسلخت عن زوجها ضاربة عرض الحائط بالقيم الدينية ، والتقاليد المتعارف عليها ، وصفية تحب أباها لدرجة العبادة ، ولا

تريد ان تسيء إلى شعوره، او تطعنه في كبريائه ... انها زوجة ملك، وابنة ملك، وتناسلت من نبي ... من هارون اخى موسى . لتكظم أساها، وتجتر احزانها صامتة، وترضى بالقضاء المحتوم ...

واشرق وجهها فجأة بفرحة غامرة، وتضرجت وجنتاها بحمرة محببة، وشردت ببصرها إلى بعيد

— « فيم تفكرين يا امرأة ؟ ؟ »

— « رؤيا غريبة رأيتها في منامي الليلة الفائتة ... »

— « ما هي ؟ ؟ »

قالت وهي شاردة في آفاق علوية محببة، ولعلها تناست وجود زوجها صاحب الكلمة المسموعة من قومه :

— « رأيت فيما يرى النائم ... ان الظلام قد غطى الأرض بسواده الكثيف، وليس فيه بصيص من نور، أو بارقة من أمل ... وفجأة سطع في السماء قمر منير، رأيته يأتي من يثرب، يعبر السماء في مشهد رائع باهر ... العجيب انني رأيت القمر يميل نحوي... يقترب مني ... ثم ... ثم دخل في حجري ... »

اربد وجه زوجها، وهو يستمع لتلك الكلمات، وتغيرت سحنته، ثم كور قبضته ورفعها إلى أعلى، ثم أهوى بها على وجه صفية قرب عينيها ... فانتفضت في ذعر، وهبت واقفة وقد شحب وجهها، ووضعت يدها على مكان اللكمة، وقد هطلت الدموع من عينيها، وامتلأ قلبها بحقد هائل نحو زوجها، وقبل ان تنطق بكلمة سمعته يقول في غيظ :

— « كأنك تحبين ان تكوني تحت هذا الملك الذي يأتي من المدينة ... »

تمالكت نفسها، وتمتمت :

— « أي ملك تقصد، وليس بالمدينة ملك ؟ ؟ وهل لي حيلة في أن أرى رؤيا — أية رؤيا — ثم اقصها عليك ؟ ؟ أتراني اجرمت ؟ . »

قال وهو يصرف وجهه عنها :

— « دعي هذا الحديث السمج »

— « أتغار حتى من أضغاث الأحلام ؟ ؟ »

— « أغار ؟ ؟ أنا ؟ ؟ كيف ؟ ؟ ليس في هذا العالم انسان يرجحني ... انني سيد الجميع دون منازع ! ! ومن أنت حتى أغار عليك ؟ ؟ »

حدجته بنظرات ناقمة وقالت :

— « تأبى الا أن تملك عواطفي وهواجسي ... وهذياني أثناء النوم ... انه أمر فوق الطاقة ... » صاح في غضب :

— « ماذا ؟ ؟ أتتمردين يا صفية بنت حيي؟ ؟ »

— « لا ... معذرة ... ان الانسان لا حيلة له فيما يرى من أحلام ... »

— « اذن فلا تسمعيني هذه السخافات ... »

— « لك ذلك ... »

استبد به الضيق، وازداد الحنق، فعاد يقول :

— « انني اعرف كل شيء ... أعرف ما يدور بخاطرك ... »

— « انت ؟ ؟ »

— « أجل ... أنا ... ان فراستي فوق ما تتصورين »

●

عاد ابوها في اليوم التالي، كان على موعد مع كنانة وغيره من زعماء خيبر وبني النضير وبني قريظة وبني قينقاع للتدارس في أمر محمد، وألمت صفية بما يجري من تدابير ومؤامرات، وآلمها ان يقع ابوها في هذه الاخطاء التي ليس لها ما يبررها، ولم تقتنع بما يتداوله قومها اليهود من آراء واحكام، وعندما انفردت بأبيها، همست قائلة :

— « أبتي ... لست ادري لماذا تثورون هذه الثورة، وتشغلون انفسكم بتلك التدابير الخطرة ... لم لا تدعون محمدا وشأنه، وتنصرفون إلى النافع من الأمور ... »

ضحك أبوها في حنان، وربت على كتفها في ود وقال :

— « وهل هناك أهم من الدين حتى نشغل انفسنا به ؟ ؟ »

— « لم أركم تهتمون بالدين في يوم من الايام كما تهتمون به الآن »

— « لانه ظهر في هذه الايام عامل جديد ... كنا مشغولين بتجاراتنا وسلطاتنا .... كنا هانئين، بعد أن توطدت مراكزنا، واتسع مجدنا ونفوذنا ... لكن .... »

قالت صفية :

— « لكن ماذا يا أبتي ؟ ؟ »

— « محمد » انه يعري سوءاتنا ، ويسفه من احلامنا ، ويتهم كتبنا واحبارنا ... والمضحك انه يدعونا إلى دينه ... أتسمعين ؟؟ النبي العربي الامي ، هذا الذي ما زالت قبيلته تعبد الاوثان ... يدعونا إلى دينه ... اليس ذلك أمراً مضحكاً ؟ ؟ »

قالت صفية :

— « الله يصطفي رسله كيف شاء ... »

شحب وجهه :

— « الله ؟ ؟ أجل ... أجل ... لكننا معشر اليهود لسنا في حاجة إلى رسل او كتب... عندنا رسلنا وكتبنا ... والآن دعي هذا الامر ، وحدثيني عن احوالك وعن كنانة معك ... لا تثقلي رأسك بهذه الامور الشاقة ... »

أطرقت في أسى وقالت :

— « لكني خائفة يا أبي ! ! »

— « مم ... »

— « ان كان محمد صادقاً فلن يضرنا صدقه ، وان كان كاذباً فعليه كذبه ... »

— « بل سيضرنا ان كان صادقا او كاذباً ... »

— « نفس كلمات كنانة زوجي ... »

— « بالطبع ... نحن على وفاق تام في الرأي ... ان زوجك ذو رأي حصيف ... »

وصمتت صفية ، انهم يسدون الطريق في وجهها ، ويرفضون حتى مجرد الاستماع لرأيها حتى النهاية ، انها امرأة لا أكثر ، لا تعرف سوى شئوون الطهي والفراش وادارة البيت ...

وسمعت أباها يقول :

— « لكن ما هذه الكدمة التي في وجهك ؟ ؟ »

عادت الاشراقة إلى وجهها ، وتضرجت وجنتاها بحمرة الخجل ، وتمتمت بصوت خفيض لا يكاد يسمع :

— « القمر القادم من يثرب ... »

— « ماذا تقولين ؟ ؟ »

— « لا شيء يا أبتي ... لقد انكفأت على وجهي حينما تعثرت قدمي ... انها لا تؤلمني ... »

قال أبوها في حنان :

— « انها تزيدك فتنة واشراقا ... »

الفصل السادس

لشد ما تغير وجه المدينة ...

مئات من السنين مرت دون ان يحدث بها حدث ذو بال ...

وهل في « يثرب » غير التجارة، واليهود، والصراعات المستمرة بين قبيلتي الاوس والخزرج ؟ ؟ الفتن يوجحها اليهود، وأغلب الاموال في ايديهم، حتى أماكن سكناهم أماكن محصنة مزودة بالماء، تجود بالزرع ذي المحصول الوفير ...

ان المدينة لا جديد فيها منذ سنين طويلة ...

لكن روحاً جديدة قد دبت في اوصالها منذ جاء نبي الله »

قال « حيي بن أخطب الزعيم اليهودي الكبير » :

— « ايها اليهود، ما أرى الا أن محمداً شأنه يرتفع، ولقد أصبحت له الغلبة علينا وعلى الناس جميعاً، والزمن سيكون في صالح هذا النبي، لقد أتى إلى المدينة مهاجراً طريداً من مكة، ولقد استطاع بدهائه أن يضم إلى صفه الاوس والخزرج اكبر قبيلتين في المدينة وأن يعقد معاهدة بينه وبين المشركين واليهود ضمن بها الامن، ونظم حياة المدينة من الوجهة الادارية والمالية والعلاقات العامة بين سكان المدينة أنفسهم، وبينهم وبين العرب خارج المدينة ... لقد أصبح الحاكم الفعلي ايها اليهود ... وارى ان هذا الرجل سيجلب علينا عديداً من المشاكل، فدعوته ستنتشر، واخاف ان يضطر العرب جميعاً على ان يدينوا بدينه ... »

رد عليه كعب بن الاشرف أحد شعراء اليهود وذوي الكلمة منهم وقال :

— « ان قريشاً لن تتركه، لسوف تضربه ضربة قاصمة »

قال « حيي بن أخطب » :

— « ليت المنى تتحقق يا كعب ؟ ؟ »

— « يجب ان تقوم بدور حاسم في المعركة »

— « وكيف وقد تعاهدنا معه على السلام، وسلمنا برآسته على المدينة ... »

— « هذا لا يمنع من ان نتحرك في الخفاء يا حيي، ان ما ندبره من مؤامرات وخدع يحقق لنا ما يعجز السيف عن تحقيقه، نحن أهل فلسفة ودراية بالسياسة ... ولو انكشف امر من أمورنا، لاضطر محمد إلى مداراتنا، فنحن حلفاء الاوس والخزرج في الجاهلية وبيننا من العلاقات القديمة ما لا يستطيع محمد أن يفصمه ... ونحن منتشرون في كل مكان... يهود خيبر ... يهود بني النضير ... يهود بني القينقاع ... يهود بني قريظة... اننا لا نعرف مقدار ما تحت ايدينا من امكانيات ... »

ثم استطرد كعب بن الاشرف قائلا :

— وهناك رجلان إلى جوار محمد يجب ان نوجه اليهما اهتماماً خاصاً وأعني بهما أبا بكر وعمر بن الخطاب... يجب ان ندرس المدخل إلى هذين الرجلين، ونعرف كيف نفسد الطريق عليهما ... »

— « أجل يا كعب، وهناك زعيما الأوس والخزرج... سعد بن معاذ وسعد بن عبادة » ورد يهودي من عامة الشعب وقال :

— « ان رجال محمد كلهم على نسق يكاد يكون واحدا، حتى النساء يؤمن به ايماناً قوياً لا يتزعزع ... فلماذا تتحدثان عن أبى بكر وعمر، وزعيمي الأوس والخزرج، ثم تهربان ؟ ؟ » لم يعلق كعب على حديثه، بل عاد يقول :

— « وسلاحنا ايها الرجال المال والنساء والكلمة المسمومة ... »

هز حيي بن أخطب رأسه قائلا :

— « المال ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « والنساء ؟ ؟ »

قال كعب — « أجل ... »

— « والكلمة المسمومة ؟ ؟ »

— « أجل ... »

تنهد حيي وقال :

— « والسيوف المشرعة — فقد تكون ملجأنا الأخير ... »

وصاح رجل آخر من عامة اليهود :

— « يا معشر اليهود ... لماذا لم تتدارسوا كلمات محمد، ألا يصح ان تكون دعوته حقا، وانها امتدادٌ لدعوة موسى ؟ ؟ لقد علمنا انه يؤمن بموسى وعيسى ... »

وثب كعب بن الأشرف كمن لدغته حية، وأرسل نظرات يتقد منها الشرر وقال :
— « هذا أخطر ما في الامر يا معشر اليهود، انه يؤمن بموسى ، ولا يؤمن بالتوراة، يزعم اننا عبثنا بها، وزيفناها، ويؤمن بعيسى ، ولا يؤمن بالانجيل لنفس السبب... كل شيء في الكتب القديمة قد تناوله العبث والتزوير ، ولقد جاء يحمل القرآن الرسالة الأخيرة والتي تلائم كل زمان ومكان ... اننا يا معشر اليهود لم نأت هنا لنعيد النظر في ديننا ، ونناقش دين محمد ... ان دينه مرفوض بالنسبة لنا مهما كان الأمر... وانما جئنا لنناقش وضعنا والحفاظ على ديننا وسيطرتنا واموالنا وسلطاتنا القديمة في هذه الديار... »

ثم صاح كعب بن الاشرف بأعلى صوته :

— « هل فيكم من يعتقد أن محمداً على حق ؟ ؟ »

وصدرت عن الجميع غمغمة غير واضحة، وصاح كعب مرة أخرى :

— « أجيبوني ... »

قال رجل من عامة اليهود :

— « ولم لا ؟ ؟ »

احتقن وجه كعب، ثم قال:

— « الحق هو ما في كتبنا ... »

وبعد فترة صمت استطرد قائلا :

— « والله لئن فاتتكم الفرصة ، وتركتم محمدا وشأنه، للحقتكم مسبة الأجيال وعار الابد، ولو استطاع هذا الرجل ان يجمع العرب على دينه لما بقي لكم في بلاد العرب مكان تهنأون فيه ... »

●

وانبث اليهود في كل مكان يشككون في دين محمد، وينشرون الشائعات والأقاويل ويزيفون الحقائق من خلف الستار، ورسلهم تتوافد إلى قريش تكشف لها عن نوايا محمد وخططه ومدى تقدم دعوته، وخطورة كل ذلك على سلطان قريش وقوافلهم الذاهبة إلى الشام والتي تمر في غدوها ورواحها بالمدينة التي يسيطر عليها محمد ...

ويهمس عمر في غيظ :

— « اليهود كالشوكة في جنوبنا ... »

فيرد أحد الصحابة :

— « ان بيننا وبينهم ميثاقاً يا عمر »

— « وانا أحترم الميثاق، لكنهم يعبثون به، يورّثون الاحقاد، ويحاربوننا بالكلمة المسمومة حرباً لا هوادة فيها، ويؤدون لقريش دور الاذناب والجواسيس، ليتهم يرفعون السيوف في وجوهنا صراحة ... لو فعلوا ذلك لهان الأمر ... »

— « صبراً يا عمر ... يجب ان يكون نقضهم للعهد واضحاً مكشوفاً حتى يمكن الامساك بتلابيبهم، وحتى نكسب عامة الناس إلى صفنا ... »

ويثور عمر قائلاً :

— « لقد وضحت خياناتهم لكل ذي عينين، لو كان الأمر بيدي لبطشت بهم ... انني أكره الغدر والخيانة في كل صورهما ... »

— « لهم يوم ... »

— « لشد ما أخشى اليهود والمنافقين ! ! لسوف نخرج إلى قريش، ماذا لو طعننا اليهود من الخلف ؟ ؟ »

— « ان الرسول يا عمر سوف يترك بالمدينة عدداً من المسلمين لتنجب المفاجآت... »

— « ولم كل هذا التشتت... ان بني قينقاع يشكلون بداخل المدينة خطراً شديداً ... »

●

كان عمر يعيش بكل وجدانه وقلبه مع الدعوة الاسلامية، يقضي أغلب وقته في النهار وردحاً من الليل إلى جوار الرسول، يتدارس معه شؤون المسلمين، وتحركات قريش، ويشرب بين يديه كلمات الوحي الطاهرة، ويتساءل عمر في عديد من المواقف، لم لم ينزل الله آية يأمرنا فيها بالرد على خيانة اليهود والمنافقين؟ ؟

لماذا لم ينزل الله امرا شافياً يتعلق بالخمر ؟ ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ؟ تساؤلات كثيرة والرسول يبتسم ويجيب، فإذا ما جد حدث من الاحداث هتف بهم الرسول : اشيروا عليّ فينهض عمر مبدياً رأيه في ثقة وايمان لا يخشى في الله لومه لائم، ويصبح عمر ذا مكانة عالية بالنسبة للرسول ، بعد أن أصبح انموذجاً رائعاً لرجل المبدأ الذي يحيى به، ويتحرك في

ظله، ويمضي تحت دوافعه المثلى، ويضع كل وقته وعمله وقوله، وامكانياته تحت تصرف العقيدة الكبرى التي آمن بها، وفي إبان انشغاله وتفاعله بدعوته يسمع نداء رقيقا ينبعث من خلفه في الظلام.

— « ارفق بنفسك يا ابن الخطاب ».

— « من ؟ ؟ »

— « ألا تعرفني ؟ ؟ »

— « اليهودية ؟ ؟ »

— « ويحك ! ! دائماً تذكري بهذا الاسم المعيب ... وما ذنبي اذا كان أبواي يهوديين ! ! ألسنا بشرا ؟ ؟ حتى اليهود انفسهم يسمونني اليهودية ... لقد نسي الجميع اسمي القديم ».

— « ماذا تريدين ؟ ؟ »

اقتربت منه، وهمت بالامساك بيده، لكنه تراجع قائلا :

— « انني متوضيء »

— « ويدي طاهرة ..؟ »

قال عمر :

— « ماذا تريدين ؟ ؟ »

— « سمعت ان امرأة رفضت الزواج منك لخشونتك وغلظتك »

— « وما شأنك أنت ؟ ؟ »

— « أنت تعلم كم أحب خشونتك وغلظتك ... »

وذهلت المرأة، حينما هوت على كتفها عصا عمر وهو يهدر :

— « لقد مضى زمن الجاهلية يا حمقاء ... »

وأجهشت المرأة بالبكاء وهي تقول :

— « هل من الشجاعة ان تضرب امرأة ضعيفة مثلي جاءت تستنجد بك ؟ ؟ »

— « تستنجدين بي ؟ ؟ »

أجل ... »

— « لكنك تهذين بكلمات سمجة، أشم منها رائحة الفجور ... »

— « انه مجرد مدخل للحديث يا عمر ... »

هز عمر رأسه قائلاً :

— « اذن فاتبعيني إلى منزلي »

— « وزوجاتك ؟ ؟ »

— « وما شأن زوجاتي بهذا الأمر ؟ أليس لديك قضية لأنظر فيها ؟ ؟ »

— « لكن من الأفضل ان يكون ذلك في بيتي ... »

— « حسن لسوف أمر عليك في الغد ... » كان متعجلا مشغول الذهن، لهذا تركها ومضى في طريقه، وسرعان ما نسي ما حدث، لقد عاد إلى ذهنه ذلك الامر الشاغل الذي كان يحادث فيه الرسول منذ ساعة، ان قافلة ابي سفيان عائدة من الشام، وعليها البضائع الوفيرة، انها قافلة قريش التي ألجأتهم للهجرة، وحرمتهم من الوطن والاهل والاحباب واستولت على ممتلكاتهم وصادرتها، ولولا ان أفسح الانصار من أهل المدينة لهم في بيوتهم وماهم لماتوا جوعا ... لقد حان الوقت لكي يسترد الرسول والمسلمون بعض حقوقهم المغتصبة ...

بلغ عمر منزله وهو شارد يفكر، وتناول تمرات قليلة، وسطلا من لبن، وانتحى جانباً، واتخذ مجلسه صامتاً، وقرأت حفصة في وجهه ما يصطرع في عقله من تيارات، قالت حفصة :

— « ان امرأً ذا بال يشغلك يا أبي »

— « لأني أفكر في كل أمر بحدة واستغراق ... »

— « حتى وان صغر ؟ ؟ »

— « وان صغر يا حفصة ... ان كل أمر يخص المسلمين سواء أكان صغيرا أم كبيرا فهو يشغلني ... أو بالاحرى ليس هناك شيء صغير بالنسبة لدين الله ... »

ابتسمت حفصة وقالت :

— « ان الله سبحانه قد قسم أخطاء العباد إلى صغائر وكبائر ... »

— « تلك أخطاء العباد ... لكن حقوق الدعوة والمسلمين تبدو كلها في نظري اشياء كبيرة ... »

— « أنت لست حاكماً عاماً حتى تحس بهذه المسئولية الضخمة يا أبي ... »

قال عمر :

— « انني إلى جوار الرسول أشعر كاني عضو من أعضائه ... وأشعر ان الاعباء التي تثقل على كاهله تثقل على كاهلي انا الآخر — الآيات التي تهبط عليه يخيل الي ّ انها تهبط عليّ ... والنبي صلى الله عليه وسلم يشعرنا اننا معه وحده واحدة ... نشعر بما يشعر به من اعباء ومسؤوليات اذا مسه حزن ران علينا اسى عميق، وان انتابه غضبة، جرت الدماء ساخنة في عروقنا وان استولى عليه تفكير بالنسبة لموضوع معين حامت حوله عقولنا ... لك الله يا رسول الله ... ان الحب الذي يربطنا به عاطفة الهية ... من صنع الله يا حفصة .. لم نجتمع حوله من أجل مال او مجد دنيوي... آمنا به، ومضينا خلفه في أحرج ساعات الاضطهاد والعذاب والعسرة ... لقد عرفنا الطريق إلى الله، فسرنا فيه ونحن على استعداد للتضحية بالمال والنفس والحياة كلها ... »

وسادت فترة صمت قال عمر بعدها :

— « كنت في الزمن القديم يشغلني امر الحياة والموت ... كنت أعشق الحياة، وترتعد فرائصي من ذكر الموت، لشد ما كان يحزنني ان تؤول الحياة إلى حفرة ضيقة مقيتة حيث التراب والعفن والظلام والفناء ... اما الآن ... آه ... ويحك يا عمر... لشد ما اتشوق إلى لقاء الله شهيداً ... لم اعد اخاف الحفرة المظلمة الضيقة ... الموت انتقال من عالم إلى آخر... ان ما اخافه الا تكون الجنة من نصيبي... كيف القى الله، وقد لحقت بي الذنوب والآثام ... لم تعد هناك رهبة من الموت لأنه الموت، بل خوفاً من لقاء الله اذا ما قصرت الاعمال، وأربت الآثام يا حفصة ... »

قالت حفصة في دهشة :

— « عن أية آثام وذنوب تتحدث ؟ ؟ »

— « أخاف أن تشوب أعمالي شائبة رياء او نفاق ... »

— « وقاك الله يا أبي شرهما ...

وصمت عمر برهة، ثم عاد يقول :

— « في غضون الأيام القليلة المقبلة سوف اخرج مجاهداً في سبيل الله وقد حان الوقت للجهاد يا حفصة ... فان عاد ابوك شهيداً فزغردي واملأي الآفاق شكراً وحمداً لله ... ان الشهادة اروع شيء في الوجود ... وان عدت حياً فلن يكون هناك اعتراض على مشيئة الله ... ما أروع الموت يا حفصة بين يدي الرسول ! ! أجل ... ما أروعه ! ! »

وتندت عيناها بالدموع ...

الفصل السابع

أجهشت بالبكاء، وارتمت على قدمي عمر تقبلهما، ثم أمسكت بيمينه تمرغها في دموعها ثم تشبثت بساعديه المفتولين، وهي تقول « أغثني... أغثني يا عمر ... » حتى كاد جسدها يلتصق بجسده، وكانت قد لبست ثوباً فضفاضاً يكشف عن نحرها الغض، ودفعها عمر عنه في عنف وهو يقول :

— « اليك عني أيتها اليهودية الفاجرة، ما كان يصح ان تلقيني بهذه الثياب، وما تفعلينه الآن ليس الا وسيلة فاشلة لعرض الشكوى... »

قالت والدموع تترقرق في عينيها :

— « لم أفعل ما يوجب غضبك يا عمر... »

— « ان الدموع لا ترد حقاً يا امرأة ... والكشف عن نحرك لا يجعل القاضي ينطق بالحكم في صالحك ... اذا لم ترتدي ثياباً ضافية، وتجلسي هادئة لتروي كل شيء بهدوء فسوف انصرف عاجلا عن بيتك ... »

قالت اليهودية، وهي تلم شتات نفسها :

— « لسوف أفعل ما تأمرني به، وسأعود بعد لحظات... »

وغابت المرأة داخل البيت، وقصدت حجرة مظلمة تتوارى في ركن قصي من البيت، كان بداخلها مجموعة من الرجال، وصاح أحدهم بصوت أجش :

— « ماذا فعلت ؟ ؟ »

— « إنه يأبى إلا ان أقابله محتشمة هادئة ... »

قال كعب بن الاشرف وكان حاضراً :

— « يجب ان تقتنعوا بخطتي ايها الرجال، لننقض على عمر بسيوفنا ونمزقه إربا إربا، هذه فرصة لن تعوض ... »

قال حيي بن أخطب :

— « لسوف تثور ثائرة المسلمين بالمدينة، ولن يتركنا محمد أحياء بعدها ... »

— « لسوف يكون لدينا سبب قوي لقتله ... »

— « أي سبب يا كعب ؟ ؟ »

— « سنعلن على الملأ أنه كان يضاجع امرأة من اليهود، وعند ذلك سيرى الناس اننا كنا في حالة دفاع عن العرض والشرف، وهذه مسألة لها حساسية شديدة بين العرب... لسوف نعري المرأة عن ثيابها، وسنملأ الدنيا صياحاً، ولا بأس من ان يرى الناس عمر مضرجاً في دمائه، والمرأة غارقة في عارها ... وسيسخر الناس من ادعاء المسلمين الطهارة والعفة » .

وابتلع كعب ريقه قائلا :

— « ولم لا نجعل اختنا اليهودية تعلن انها هي التي قتلت عمر لأنه داهمها في عقر بيتها، وأراد ارغامها على الإثم ... »

قال حيي بن أخطب :

— « وهل يصدق الناس هذه المؤامرة المحبوكة ؟ »

— « ولم لا ؟ ؟ »

— « ان ذكاء محمد ونظرته الثاقبة كفيلتان بأن يغوصا إلى أعماق تدبيرنا وتآمرنا... »

قال كعب غاضباً :

— « ما دمتم تفكرون بهذه الطريقة، على هذا النمط من الجبن، فلن نستطيع ان نحقق أي نصر ضد محمد او كبار رجاله ... »

— « اذا حطمتم الرأس انتهى كل شيء، لسوف نقضي على الخطر في مهده وقبل أن يستفحل، هأنتم هؤلاء ترون ان الحيل قد اعيتنا، ولا ندري كيف نحسم الأمر على وجه مرض، ان الجبن والتردد هما الرذيلتان اللتان تقفان في وجه رجالنا ... اننا ايها الرجال في حاجة ماسة إلى مغامرة سريعة قوية تحقق لنا ما نريد، أما هذا التقاعس فسوف يجر علينا الوبال ... ان عدد المؤمنين بمحمد يزداد يوما بعد يوم، والوحي يترى عليه مؤكدا نبوته، وموضحاً أهداف رسالته، وكلما مر الوقت ازداد الحاجز الذي يفصل بيننا وبينه سمكاً وارتفاعاً، وسيأتي يوم نعجز فيه عن اختراق ذلك الحاجز...

قالت اليهودية في صبر نافذ :

— « أنتم تحيرونني... أنتم لا تدرون ماذا تفعلون ... »

قال كعب في ضيق :

— « اذهبي اليه مرة أخرى... يجب ان يسقط ، هذا بداية الطريق ... »

— « سقوطه أمر عسير المنال ... »

— « انك لم تقضي معه سوى لحظات... »

— « انني خبيرة بالرجال ، وأعرف طبائعهم لأول وهلة ... »

— « ان المثابرة والإلحاح يا امرأة قد تؤديان إلى نتيجة مرضية . . »

أطرقت اليهودية مفكرة ، وهدرت حانقة :

— « انه متماسك الأعصاب ، ينظر إليّ من عينين صارمتين لا يشوب نظراته ارتباك او ارتجاف ، هامته سامقة لا يطأطئها . . ينبعث من وجهه ولحيته هيبة تملؤني بالخجل والتضاؤل . . انه امتحان رهيب . . صدقوني . . »

صاح كعب محتداً :

— « اذهبي اليه ... وارتدي الثياب الضافية ، واعتصمي بالحشمة والوقار ، فقد يكون ذلك أكثر إثارة ، وأعمق أثرا ... فالحجاب قد يكون أكثر فعالية واثارة من السفور لدى بعض الناس ... جربي معه يا امرأة كل شيء ... أين خبراتك وحصيلتك الضخمة من الحوادث في معاملة الرجال ؟ ؟ انك تقومين بأضخم عمل في حياتك كلها ، وتقدمين للملة اليهودية أكبر تضحية تقدمها امرأة ... إن وسائلنا في الحرب يجب ان تكون متنوعة ، ان قلة عددنا ، وضعفنا يلزماننا بالصبر والروية فعلا ، ويأخذان بأيدينا إلى أساليب شتى في تلك المعارك الحاسمة ... والنصر لنا ... »

أعطته المرأة ظهرها ، ومضت إلى عمر ، وأخذت تعتذر له عن تبرجها ، وتؤكد له انه شيء غير مقصود ، وأنه سلوك قديم درجت عليه ، ولشد ما سرها ان يزجرها عمر ، ويرشدها إلى السلوك الطيب ، فهي تقبل كلماته في سعادة ، وتعتبر نصحه أمراً ، وهي تطرب لهذه الغلظة المحببة إلى نفسها ، مؤكدة ان الرجال لا يكونون رجالا الا بالحزم والاباء وعدم الميوعة ، وانها منذ رأت عمر وهي تحتفظ له في قلبها بأرق المشاعر وأعظم آيات الحب والتقدير ، وهي لا تقصد من وراء ذلك سوءاً أو شرّاً ، إذ يكفيها ان تسعد بهذا الشعور ، وان تجلس وحدها تجتره وتنعم به ... وأخيراً قال عمر :

— « تكلمت كثيراً عن أشياء جانبية لا تمت إلى شكواك بصلة »

— « هل تبرمت بمجلسي وحديثي ؟ »

قال عمر في صراحة جارحة كشفت عما يعتمل في ذهنه وقلبه :

ـ « يقول نبينا صلوات الله وسلامه عليه ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، وأنا لا أتمنى ان تطول جلستي مع الشيطان ... أتفهمين؟ ؟ »

ـ « ماذا تعني ؟ ؟ »

ـ « اعرضي شكواك في إيجاز وسرعة ... »

قالت المرأة ، وقد بان الغضب في عينيها، فزادها فتنة واثارة :

ـ « استولى كعب بن الاشرف على كل مالي » ...

ـ « هذه قضية تخص يهودية ويهوديا، فاذهبي إلى كبيركم ... »

ـ « كبيرنا ينحاز إلى الأقوياء، ويهمل الضعفاء، وأنا امرأة ... »

ـ « انني أحترم النظام، والمعاهدة التي أبرمت بيننا وبينكم لا تعطيني حق التدخل في أمر خاص يتعلق بيهودي ويهودية ... »

قالت المرأة :

ـ « لكنه ... »

قاطعها عمر قائلاً :

ـ « انني أشم رائحة مؤامرة غادرة ... »

ـ « عمر ... »

ـ « اصمتي ... لو اجتمعت نساء اليهود ونساء بني الأصفر ... بل نساء الدنيا جميعاً لما استطعن أن يعدن بعمر إلى جاهليته ... »

صاحت وهي تقترب منه :

ـ « عمر ... انك تهول الأمر وتخضع لتصورات جامحة لا حقيقة لها ... »

ـ « حسنا ... قد أكون مخطئاً في تصوري ... »

ـ « انني احترمك وأحبك ... »

ـ « انني انظر إلى المرأة على انها زوجة ... او أم أو أخت أو ابنة ... »

قالت المرأة في سرعة :

— « أو صديقة ... »

— « هذا تعبير سخيف، يحمل في طياته العبث، وتسمية الاشياء بغير اسمائها ... وهيهات ان ينساق عمر إلى مزالق المجون والعبث ... »

— « أليس في دينكم مكان للصداقة والحب؟ ؟ »

— « ديننا كله حب وأخوة ... »

— « واين مكاني اذن ؟ ؟ »

— « في حانة من الحانات، أو ركن قذر من المواخير الداعرة ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « لقد جئت لأنظر في قضية، ولم أجئ طالب متعة ... لو عشت لكن لعلمتكن كيف يكون الأدب ... »

وانتزع نفسه من بيتها، وانصرف إلى الطريق العام، ونسمة رخية تلامس جبينه المبلل بالعرق، فتهدئ من انفعاله، وترطب من احتقان وجهه، وتعيد السكينة والهدوء إلى نفسه، ما أكثر ما تتزيا الشياطين في زي امرأة. لكن لماذا يستطرد في تفكيره ؟

انه امتحان صغير وانتهى بنجاح ... وغدا ... آه ... غداً يخرج المسلمون إلى عرض الصحراء للقاء قريش، وقريش لها من القوة والمال والرجال والخيل ما يبث الرعب في قلوب أعدائها ... هذا هو الامتحان العسير الرهيب... يجب ان يسترد المستضعفون حقوقهم، ويجب ان يفتحوا الطريق أمام البشر ليروا النور الحقيقي... نور الله ... الحق واضح لا لبس فيه ولا غموض، والباطل يبدو بوجهه الكالح لكل ذي عينين، والاختيار في الحقيقة سهل ... لكن دون ذلك صحارى من الخوف والجمود ... الناس يخافون الأقوياء، ويرهبون الجديد، ويتشبثون دائماً بالعتيق البالي ... بما درجوا عليه من حماقة وغرور وزيف... لولا الخوف لما بقي بنو اسرائيل ينظرون إلى فرعون يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ... ألم يكن في امكان واحد منهم ان يشرع سيفه وينقض على فرعون ليريح قومه من بلائه ؟ ؟ لكنها ارادة الله ... آمنت بالله ...

الفصل الثامن

الفيافي الشاسعة المترامية الأطراف، والتلال والوهاد التي تضم بين جوانحها أسرارا رهيبة، وصمتاً أزلياً عميق المعاني، وثلاثمائة وخمسة عشر رجلا، يشقون حلكة الظلام، ويحثون الخطى إلى مكان يدعى « بدر ».

ان في هذا التحرك خطورة كبرى ... محمد على رأس الزحف الصامد ... خلاصة المؤمنين بالله، يحملون أرواحهم على أكفهم، وقد أقبلت قريش بقيادة « أبي جهل » في عدد من الرجال والفرسان يقترب من الالف، مجهزين بالعدة والخيول والزاد ... استعدادات كاملة ...

ويمضي عمر في الطريق إلى جوار الرسول، يمد بصره إلى الآفاق البعيدة، ويرفعه إلى السماء، ويتلقف كلمات الرسول في شوق، والرسول يبسط الرأي ويطلب المشورة، ان قريشاً قد استولت على مقدراتهم، وأخذت أموالهم، واعترضت طريق دعوتهم، والمسلمون لا يبغون سوى ان ينالوا العوض عن أموالهم وأملاكهم ويكون لهم حرية الكلمة ... والدعوة إلى الله لكن قريشاً قد خرجت لتضرب المسلمين في الصميم، وتقضي على دعوتهم، اذ لا يحق للمهاجرين ان يطلبوا أموالهم أو يفتحوا الطريق أمام دعوتهم ...

ترى ماذا يحدث لو دارت الدائرة على المسلمين ؟ ؟ لسوف يتخطفهم الأعداء من كل جانب، ولسوف يقيم اليهود الأعراس ويدقون الطبول، ولسوف ينحر المشركون الجزر ويشربون الخمر، ويغنون ويمرحون، ويمضي الطغيان في طريقه، فالأقوياء يستذلون الضعفاء، والعبيد يظلون في قيود العسف والهوان، ويبقى الانحراف هو القانون الطبيعي السائد ... وتدور هذه الافكار في رأس عمر، فيناجي نفسه قائلاً :

— « كلا ... ان الله معنا ... ولقد وعدنا بالنصر ... اننا نعرف ماذا نريد، وماذا نفعل ومن أجل أي هدف سام نشرع السيوف ... انه مهما قل عددنا، فلن نرضخ للطغيان، ولن نحني الرؤوس أمام طوفان الشر ... ما أشرف ان نموت من أجل احقاق الحق، ونصرة الخير والحب والسلام بين بني البشر ! ! ومتى كانت القلة او الكثرة هي المعيار الحقيقي

للقوة ؟ ؟ ومتى كان تدفق الشر وتضخمه ايذانا باستسلام القوى الخيرة او فنائها ؟ ؟ كان الشر دائماً أقوى في كل العصور ... ولعل السبب الرئيسي في احتدام المعارك هو انتفاض القوى الخيرة لحماية كرامة الانسان وشرفه أمام تشبث الطغيان وجبروته، ورفضه لمنطق العدل والحرية ... ان ايماني بالله لا يتزعزع ولقد كنت مخلصا حينما أشرت على الرسول بالمضي في الطريق، وتقبل التضحية مهما كلفتنا من ثمن ... »

وحطوا الرحال ...

وصاح عمر ... « الينا ايها المسلمون ... ايها المهاجرون والانصار ... اشيروا على رسول الله ... انه يطرح القضية الهامة للرأي والمشورة ... فماذا أنتم قائلون ؟ ؟ »

تجمع الرجال حول الرسول، وجلسوا يستمعون إلى كلماته الهادئة، وشرحه الوافي لم يخف عنهم شيئاً، بسط لهم الموقف بكل ما يكتنفه من مخاطر وتضحيات، وبين لهم أن قريشا قد أجمعت أمرها، وحشدت قواتها لسحقهم، وهنا قام رجل من أصحاب الرسول وقال :

— « يا رسول الله ... امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون ... ولكن اذهب انت وربك فقاتلا... انا معكما مقاتلون ... فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى « برك الغماد » لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه ... »

دق قلب عمر من الفرح، وأشرق قلبه بالبهجة والايمان، مثل هؤلاء الرجال لا يهزمون عن قلة، ان واحدا منهم يستطيع ان يهزم عشرة رجال ... بل أكثر ... أجل ... لقد أخلصوا نفوسهم لله، فطلقوا الخوف، ومن ثم فقد تلاشى الحاجز الرهيب الذي يعوق الانطلاقة الجبارة نحو النصر والمجد ...

وقام رجل من الانصار، وقد كان الرسول شغوفاً بسماع رأيهم أيضاً، فهم الفئة التي بايعت الرسول من قبل، وهم الذين آووه ونصروه، وآمنوا بدعوته أعمق الايمان، ومن ثم كان لرأيهم وزن أي وزن، قال كبير الانصار سعد بن معاذ :

— « يا رسول الله ... لقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت، فنحن معك فوالذي بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، انا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله ... »

يا لها من كلمة رائعة « سر بنا على بركة الله »، كان لها فعل السحر في قلوب المؤمنين، لقد شعر عمر آنذاك، ان هناك قوى كبرى تزود هذه القلة من الرجال بجهود خارقة، وعزيمة لا تهن، وزاد لا ينفد، فأية قوة في الأرض تستطيع بعد ذلك ان تنال من هذا الايمان، او تدخل الروع إلى قلوب رجاله ؟ ؟

●

ومن جهة أخرى، فقد علم اليهود، بالحشد الذي أعدته قريش، ووافتهم الانباء بأن معركة حاسمة على وشك ان تنشب بين المسلمين والمشركين، ولم يخف عليهم مدى القوة الضاربة المتفوقة التي جمعتها قريش ...

وفي اجتماع سري لهم بالمدينة، في منطقة تجمع يهود بني القينقاع قال كعب بن الاشرف في شماتة :

— « هذا يوم فاصل يا معشر اليهود، فانا على يقين من أن قريشا سوف تبدد شمل المسلمين، وتقتل محمدا، وتقضي على الاسطورة الخارقة التي سار بها الركبان في كل مكان ... تصوروا ان المسلمين ليس لديهم سوى فرسين اثنين، وان قريشاً لديها مائتا فرس ... لقد كنا نفكر في قتل محمد وعمر وأبي بكر، وغيرهم من كبار رجالهم ... وها هي الاقدار تدفع بالمسلمين إلى حتفهم، لسوف يأتي الخلاص على يد غيرنا، وسنقتطف نحن الثمرة ... »

قال حيي بن أخطب :

— « على رسلك يا كعب ... انك تلف وتدور حول احتمال واحد لا ثاني له، ألا وهو هزيمة المسلمين »

— « وهل هناك احتمال آخر ؟ ؟ »

— « النصر ؟ ؟ »

— « كيف ؟ ؟ هل أصابك الخوف يا حيي بن أخطب ؟ ؟ »

— « القلة العددية يا كعب سوف تدعو المسلمين إلى مزيد من الحرص .... »

— « لن يرد الحرص عنهم الهزيمة، فالحرص الحقيقي هو ألا يخرجوا إلى معركة ميئوس منها . »

فمضى حيي بن أخطب في كلامه قائلاً :

— « ومحمد ورجاله يزنون الامور بميزان دقيق، ويحسنون التفكير إلى أبعد مدى »
قال كعب ثائراً :

— « انني أرفض منطقك، ان المسلمين قد أصابهم الغرور، وجرهم هوس الجنة والاستشهاد إلى الهاوية، والحرب سيوف وفرسان وحشد كبير، وقلب شجاع... »

— « وعقيدة راسخة، وفكر مرن ثاقب ... »

— « لكأنك تريد أن تبرهن على ان المسلمين سينتصرون ... »

— « لا أقصد ذلك بالضبط، ولكن تصورك القائم على حتمية انتصار قريش وهزيمة محمد تصور يحتاج إلى نظر ... »

وانتصب كعب بن الاشرف واقفاً وقال :

— « يا حيي بن أخطب ... ان ما أقصده من كلامي هو أن هزيمة المسلمين شبه مؤكدة وأن علينا معشر اليهود، ان ننقض على المدينة في غفلة من أهلها، وفي غياب محمد وصحبه من المهاجرين والأنصار ثم نستولي عليها، وبذلك يتم القضاء على المسلمين في « بدر » فاذا ما فروا من المعركة عادوا ليجدوا المدينة قد سقطت في ايدينا، ولسوف تسرع قريش لمشاركتنا في اجتناء ثمار النصر، وسيحمدون لنا أننا قد ضربنا القاعدة الأمينة التي يأوي اليها محمد ... »

احتقن وجه حيي بن أخطب وقال :

— « أنا أحرص على أمن اليهود ومستقبلهم منك، كما أنني أشد شوقا إلى تدمير قوة المسلمين والقضاء عليهم، لكن لماذا لا نأخذ في الاعتبار كل ما يمكن ان يحدث؟ ؟ ان لدينا أطفالا ونساء وشيوخا وأموالا ونفوذا في هذه الديار، ويجب ان ندبر أمورنا في حذر وروية، ولا يصح ان نتعجل النصر على محمد ورجاله فان أية سقطة قد تكلفنا مستقبلنا كله، ثم ان محمدا لم يترك المدينة خالية من الرجال، لقد ترك الكثيرين من حملة السلاح كي يحموا المدينة من أية غدرة مفاجئة ... »

فصاح كعب بن الأشرف في ضيق :

— « انني أرفض السير في ركبكم المتخاذل .. »

وتركهم وخرج حانقاً مشمئزاً، وران الصمت على الجميع، وجفف حيي بن أخطب عرقه وقال :

— « يا معشر اليهود، ان النصر مع الصبر ... وقيادة محمد الحكيمة تجعله — برغم قلة رجاله — أكثر تنظيماً، وأدق حركة من قريش ... لقد علمت ان بني زهرة رفضوا

أن يحاربوا محمداً الا اذا بدأهم بعدوان ... ثم انسحبوا ... ان المعركة دائرة الآن، ولا ندري على من تدور الدائرة ... »

وقام شاب يهودي وقال :

— « ألا ترى أنه لو انتصر محمد، فسنكون في وضع حرج... ان عامل الزمن يكاد يكون في صالح المسلمين ... »

قال حيي بن أخطب : اننا مضطرون على ان ننتظر ، وحتى ولو انتصر محمد، فان قريشا لن تنسى ثأرها ، وستعيد حشد قواتها ، ففي امكانها ان تعد جيشاً كاملاً من بضعة آلاف ، بل ان انتصار محمد في بدر قد يحمل في طياته خطورة أشد على مستقبل الاسلام والمسلمين.. فالصبر ... الصبر ... »

كانت رأس كعب بن الاشرف على وشك ان تنفجر مما ألم به من حقد وغيظ ، فمضى في طريقه يشق الظلام إلى بيت اليهودية التي حاولت من قبل الايقاع بعمر بن الخطاب ، وعندما التقى بها قالت :

— « ما الذي أتى بك الآن ؟ ؟

قال وهو يربت على شعرها الناعم :

— « حبب الي من الدنيا الخمر والمال والنساء ... »

— « أحكيم وشاعر يا لسان بني اسرائيل ؟ ؟ »

— « ما أضعف الكلمات في مضمار تحقيق الآمال ... »

— « ماذا جرى ؟ ؟ ان حكمتك الليلة ممتزجة بالحزن العميق ... »

— « ان ذكر اسم محمد يثير ثائرتي ، لكم تمنيت أن تشتعل المدينة ناراً فتأتي على الأخضر واليابس، وتأكل محمدا وأتباعه ... »

قالت المرأة :

— « النار لا تشتعل وحدها يا كعب ؟ ؟ »

— « حيي بن أخطب يرفض ان يشعلها الآن »

— « ولماذا لا تشعلها أنت ؟ ؟ »

— « سؤال محرج يا امرأة ... ومع ذلك فالفتنة التي يراد اشعالها ضد محمد لا يمكن ان يؤججها كعب وحده، يجب ان يشعلها عديد من الرجال ... حتى تمتد من جميع الأطراف

وتحاصر الوباء الاسلامي ... وحيي بن أخطب يقف عقبة كأداء في وجه رغبتي ... انه أشدنا حقداً على المسلمين ... لكنه رعديد ... »

قالت المرأة :

— « انه يبدو أكثرنا حمداً، فكيف يفعل ذلك ؟ ؟ »

— « يعتصم بالروية والحكمة والتدبير ، وقد يكون في حرصه هذا مهلكة لنا جميعاً ... ومع ذلك فسأمضي في طريقي ... أريد بعض الزاد لأقوى على تحمل المسير العنيد ... »

— « أي زاد يا كعب ؟ ؟ »

— « كأساً من خمر ، وكأساً من شفتيك ... وغيبوبة كاملة في عالم الشوق والضياع واللذة ... »

— « كلماتك أيها الشاعر الماجن تخدر أعصابي ... »

— « فلنترك اليهود في اجتماعهم السري ... ولنفرغ الكأس حتى الثمالة ... لسوف أفكر وحدي منذ اليوم ... »

— « وأنا ... »

— « أنت الزاد يا طعامي الشهي ... »

●

قضى كعب ليلة عربيدة بين ذراعي اثم حارق، ثم ارتمى في آخر الليل مستسلماً لسبات عميق، ولم يعد يشعر بشيء مما حوله، ولم يفق بعد ساعات الا على يد تهزه في عنف، ففتح عينيه في تثاقل :

— « ما هذا الازعاج يا امرأة ؟ ؟ »

— « لقد ضعنا ... »

كان صداع الخمر يؤلم رأسه، فرشقها بنظرة حمراء مرتجفة وقال :

— « ماذا هناك ؟ ؟ »

— « تنام والأنباء تتوالى ؟ ؟ »

— « لم هذا الاضطراب ؟ ؟ ماذا وراءك ؟ ؟ »

— « لقد انتصر محمد ! ! »

وهب واقفا، وقد شحب وجهه :

— « ماذا ؟ ؟ »

— « وفر من بقي من قريش يطلب النجاة، قتل سبعين من كبار رجالات قريش، وعلى رأسهم أبو جهل، وساق سبعين من الأسرى ... لقد اكتست المدينة بلباس الفرح، والهتافات والتكبيرات تشق عنان السماء ... ألا تسمع ؟ ؟ »

تمتم كعب :

— « يا له من يوم أسود مشئوم ... »

ودارت الذكريات في ذهنه، اجتماع الأمس، وكلمات حيي بن أخطب، وتبجح اليهود بالمدينة وكشفهم عن نواياهم، واشاعتهم ان قريشا سوف تقضي على المسلمين، والشماتة التي تجلت في كلماتهم، وتصريحهم بميلهم نحو قريش، وخيانتهم للعهد، وكشفهم عن عورات المدينة للأعداء ...

وأخذ كعب يرتدي ملابسه في عجلة ملفتة للنظر

قالت المرأة :

— « ماذا جرى لك ؟ ؟ »

— « لسوف أغادر المدينة الآن »

— « ولم ؟ ؟ أتخاف محمدا ؟ ؟ انك لم ترتكب إثما ظاهراً ... »

قال كعب :

— « انني لا أطيق سماع تلك الهتافات والتكبيرات ... ان مظاهر الفرح والابتهاج بانتصار المسلمين تكاد تورثني الجنون ... وكيف أقوى على رؤية محمد وهو يعود إلى المدينة منتصراً، يحيط به رجاله الأقوياء ... المنتصرون ؟ كيف أرى هذا المشهد المثير ؟ ؟ اللعنة على الأقدار ... تعسا لكم أبناء اليهود، لسوف تذوقون الوبال والنكال ... لسوف أفر إلى مكة ... سأعد القصائد أرثي بها صرعى بدر، سأثير مشاعر الثأر في قلب قريش ... سأؤجج النار وحدي يا امرأة ... سأشعلها حتى تأتي على الأخضر واليابس، وعند ذلك نجلس أنا وأنت على أطلالها نغني ونشرب ونقضي الليل عناقاً وأشواقا ... »

وصمت برهة، ثم عاد يقول :

— «ولن أعود من مكة الا في صحبة جيش يعد بالآلاف، وسأمشي بين القبائل استثيرهم وأدعوهم لحرب محمد ... وسأجلب عليه العار والشنار، وأشبب بنسائه، واختلق الأكاذيب والقصص، وألوث ثوبه الأبيض ... لن أهادنه ما دام في أحشائي قلب ينبض ... »

وابتلع ريقه ثم عاد يقول :

— «اذا دخل المدينة موكب المنتصرين فاحثو في وجوههم التراب، ثم استديروا وابصقوا على وجه حيي بن أخطب، ذلك المأفون الذي أبى أن ينقض على المدينة في غفلة من أهلها وفي غياب الرسول ... »

الفصل التاسع

امتطى كعب صهوة جواده، وطار صوب مكة وهو يقول بعد أن سمع بمقتل سادات قريش وكبرائها : « هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظاهرها . »

ولم ير موكب المنتصرين يدخل المدينة، ولم يسمع هدير التكبير يشق عنان السماء، ولم تكتحل عيناه بالاعداد الغفيرة من المشركين الذين توافدوا على الرسول، يعلنون إسلامهم ويبايعونه على المنشط والمكره، وعاد اليهود إلى جحورهم يلوكون الحقد، ويجترون الأسى والجزع، وعاد عمر إلى بيته، وشفتاه لا تكفان عن التمتمة تسبيحاً لله وشكراً له، وتلفت حواليه قائلاً :

— « اين حفصة ؟ ؟ »

قالت زوجه :

— « ماذا جرى لك ؟ ؟ انها عند زوجها ... عند رسول الله »

لقد تزوجت حفصة من الرسول، لشد ما ازداد عمر تعلقاً بابنته، ورفقاً بها، ولشد ما يتشوق اليها وإلى حديثها العذب، لكن لا بأس من ذلك كله، فان زواجها من الرسول قد صادف في نفسه هوى، وأثلج قلبه، وجعله يشعر بالفخر والسعادة الكبرى :

وجلس عمر يتذكر ما كان من شأن المسلمين وجهادهم الشاق ضد قوى قريش وعنجهيتها، يتذكر المعركة الخالدة التي لا تنسى، ويتذكر الصبيين المسلمين اللذين قتلا أبا جهل ابان احتدام المعركة، ويتذكر كيف كان الرسول ينظم الصفوف، ويرسم الخطة، ويشرح لكل واحد دوره ...

وغمغم عمر :

— « آه ... كان يوماً مشهوداً ... رايتان سوداوان تخفقان في سماء بدر، وكانت الراية البيضاء ... الرئيسية ... تتماوج مع الهواء في اباء وشمم ... والحرب محتدمة الاوار، يا زوجتي ... والرسول ... يا له من مشهد ... يرفع يده إلى السماء، حتى تسقط عباءته،

ويهتف من أعماقه ... اللهم ان تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض ... انه نبي يا امرأة ... لكنه يؤدي دوره الانساني على أكمل وجه ... دون انتظار للخوارق ... ان الله يقدم عونه للمؤمنين، الذين يصدقون في جهادهم واخلاصهم لله ... ثلاثمائة وبضعة نفر ... فَرَسان فقط لا ثالث لهما ... لكن المؤمنين يقدمون ويتحركون حتى لكأنهم آلاف مؤلفة ... ورأى الكفار ذلك فخيل اليهم ان مدداً قد قدم إلى الرسول ... لكن لله جنوداً لا نراها ... وهذه الجنود الالهية لا تؤازر إلا المؤمنين الصادقين ... كانت أوقاتاً حرجة يا زوجتي... ان الرسول يقود القوة الرئيسية التي تدافع عن دعوة الحق ... كنت أحمل سيفي وأضرب ذات اليمين وذات اليسار، وكنت أرى أئمة الكفر يفرون إلى الوراء ... أهؤلاء هم الذين كانوا يذيقون المسلمين الذل والهوان ؟ ؟ لقد جاءوا إلى « بدر » وكأنهم في نزهة قصيرة، سرعان ما يسحقون فيها المسلمين، ويتخلصون من النبي المرسل، ويعودون يشربون الخمر، وينحرون الجزر، ويعزفون ويغنون ... لكن ارادة الله فوق كل إرادة يا امرأة، لقد انتصرنا ... ووضع ابن مسعود قدمه على صدر رأس من رؤوس الكفر وقد كان الكافر في النزع الأخير ... وتساءل المحتضر عن النصر لمن يكون يا لها من لحظة ... ان الله ينتقم من الطغاة ... النصر لله الواحد القهار ... النصر للمؤمنين .

قالت زوجه في سعادة :

— « المدينة كلها سعيدة بهذا النصر المؤزر الذي حباكم الله به ... »

— « ان هذه المعركة أروع بداية لمجد الاسلام ... »

وكور عمر قبضته، وأخذ يلوح بها في غير قليل من الضيق :

— « لست أدري لماذا يصر الرسول على ذلك ؟ ؟ »

— « ماذا تعني يا عمر ؟ ؟ »

— « أولئك الأسرى ... انهم سبعون من أئمة الكفر، وأساطين قريش، الرسول يريد ان يطلق سراحهم، ويقبل منهم الفداء ... »

قالت زوجه في دهشة :

— « أو تعترضون على الرسول يا عمر ؟ ؟ »

— « إنهم أئمة الكفر ، كم قدموا من إساءات بالغة للاسلام والمسلمين ... انهم ليسوا مجرد أسرى، بل مجرمون، ارتكبوا من الجرائم والموبقات في الأمس القريب، ما تقشعر له الأبدان ... ان هؤلاء ليس لهم عقوبة سوى القتل ... هؤلاء الاسرى استطاعوا ان يستدروا عطف ابي بكر، وان يذرفوا الدموع، ويرفعوا التوسلات راجين العفو والفداء ...

وعندما استشارنا الرسول أجمع عدد كبير منا على قبول الفداء واطلاق سراحهم ... أما أنا فقــد صحت بأعلى صوتي قائلاً : « يا رسول الله ! ! هم أعداء الله، كذبوك، وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم، هم رؤوس الكفر، وأئمة الضلالة، يوطىء الله بهم الاسلام، ويذل بهم أهل الشرك، لكن الرسول قال : استوصوا بالأسارى خيراً ... » حتى أولئك الأسرى الفقراء الذين لا يملكون الفداء ... أطلق سراحهم دون مال ... ان قلبي يحدثني يا امرأة أن القضاء على هؤلاء المجرمين كان واجبا وعدلا ... لكن كيف اعترض على رسول الله، واجماع اصحابه ؟ ؟ »

قالت زوجه :

— « لعلك على حق، لكن النبي أرق حاشية وألين قلباً منك يا عمر ... انه نبي مرسل من عند الله ... وأنت تتصرف كرجل حرب وسياسة ... والرسول يتصرف كنبي لا تفارقه الرحمة حتى في لهيب الحرب، واحتدام السياسة ... »

وقضى عمر معظم الليل عابداً لله ساجداً، أكان من السهل ان يجدع أنف قريش، ويرغمها على الفرار ؟ ؟ أيستطيع المستضعفون المستذلون ان يمرغوا كبرياء قريش في الرغام ويذيقوهم هوانا بهوان ؟ ؟

●

كان عمر يغذ السير في الطريق العام، وهرولت من خلفه امرأة تستتر في الظلام، وسمعها تقول :

— « على رسلك يا عمر »

— « من ؟ ؟ »

— « ألا تعرفني ؟ ؟ »

— « اليهودية ؟ ؟ »

— « انها هي ؟ ؟ »

— « ورائي ورائي دائماً ؟ ؟ »

— « ولن أتركك يا عمر ... »

— « لعلها قضية جديدة ؟ ؟ »

اقتربت منه وقالت :

— « لقد هرب كعب بن الأشرف ! ! »

— « إلى أين ؟ ؟ »

— « إلى قريش ... »

— « ألهذا جئت ؟ ؟ »

— « كان لا بد أن أخبرك، أنت تعرف ما أشعر به نحوك ونحو المسلمين قاطبة من عطف وحب . »

قال عمر :

— « لو صدقت لآمنت بالله ربا وبمحمد نبياً »

— « انني أومن بالله يا عمر ... »

« الايمان المشوه المحرف... »

قالت وهي تجره إلى جانب الطريق :

— « انه أمر خطير ، لقد قرر كعب بن الأشرف أن يتحلل من عهد اليهود مع محمد، وأن يجاهركم بالعداء، وان يستثير قريشاً والقبائل ضدكم، ولسوف يبعثر شعره الداعر، وأحقاده القذرة في كل مكان يأوي اليه ... ويستعدي عليكم العرب قاطبة ... ان الحقد قد أعماه عن كل ما يجب الاتصاف به من تعقل وروية ... »

دهش عمر لكلماتها، لماذا جاءت تشي بكعب بن الاشرف وهو يهودي مثلها ؟ ؟ هل دب بينه وبينها خلاف شخصي آخر، ام ان هناك مؤامرة يهودية ؟ ؟

— « كيف تغدرين برجل يهودي مثلك ؟ ؟ »

— « ليس بي نازع من عصبية، بل احترم العهود والمواثيق التي أبرمت بيننا وبينكم، ولقد رأيت كعباً المأفون يدوس هذه المواثيق، ويثير حولنا الشكوك والريب، ويجر على اليهود الوبال والعار، لذا سارعت ببسط أمره أمامك حتى تكون على بينة ... انني أبحث عن الأمن والدعة والسلام، ولذا لا يصح ان أتستر على خائن مثل كعب ... اننا معشر اليهود نعيش هنا في المدينة إلى جوار المسلمين كاخوة متحابين، ولا يصح ان يكون بيننا خلاف أو سوء نية ... ولعل ذلك يفسر لك وشايتي بكعب ان صح ان تسمى وشاية ... وليكن معلوماً لديك ... اننا معشر اليهود ننكر على كعب تصرفه، ولذا قررنا عدم ايوائه، والتنصل من تبعيته لنا ... »

ابتسم عمر، ثم هز رأسه في حيرة وقال :

— « تتكلمين وكأنك سفيرة لليهود ... او كأنك (رأس كبيرة) من رؤوسهم المفكرة ... »

ارتجف جسدها، وتلعثمت كلماتها، وقالت في خوف :

— « عمر ... »

— « عمر يفهم ما تريدين أيتها اليهودية الماكرة »

— « أهذا جزاء من يسدي إلى المسلمين معروفاً ؟ ؟ »

— « لم يأثم كعب وحده يا امرأة ... »

دقت على صدرها في رعب وقالت :

— « ماذا تقصد ؟ ؟ »

— « أقصد أن وراء الظلمات مخالب تعبث، وسيوفاً تسل، وان أكثر المنافقين والجاحدين سذاجة هو كعب بن الاشرف ... »

— « انك تتكلم يا عمر، وكأن في الامر جريمة خفية، او مؤامرة تدبر بليل، أليس كذلك ؟ ؟ »

وضحك عمر ضحكة خافتة :

— « لماذا تضحك يا عمر ؟ ؟

— « تذكرتك في تلك الليلة ... لا شك تعرفين ... كيف كانت ملابسك، ودموعك، وخطواتك كنت تبدين كعاشقة من الطراز الأول... واليوم ... انني انظر إلى ملابسك الضافية ... وكلماتك التي تنطقينها بدقة وحكمة ... ما أوسع الفرق بين الحالين... بين عاشقة الامس وسفيرة اليوم » .

قالت اليهودية دون أن يزايلها التوتر والقلق :

— « أتراني أخطأت إذ تحدثت إليك في هذا الأمر ؟ ؟ »

— « لم أقل ذلك ... بل اني أشكر لك هذا المعروف ... »

وصمت برهة، ثم قال :

— « أعرف أنك تبرئين ساحتك، وتظهرين حسن نواياك »

— « إنك الآن تفهم ما أريد ... »

فليفعل كعب ما يشاء إن كلماته المسمومة لن تطفىء نور الله ... »

— « هذا حق يا عمر ... »

— « وفرعون بكل ما أوتي من قوة وبطش وملك وجنود وسحرة، لم يستطع ان يقف في وجه الطوفان ... أتذكرين ؟ ؟ »

— « أذكر ذلك جيداً ... »

— « وغرق فرعون ... »

— « أجل ... غرق ... »

— « وكلمة الله هي العليا ... »

— « هي العليا يا عمر ... »

وأخذ عمر يتمتم :

— « يا موسى إنني أنا الله ... لا اله الا أنا فاعبدني ... وأقم الصلاة لذكري... »
ثم استدار عمر إلى اليهودية :

— « عودي آمنة ... مشكورة ... إلى بيتك ... »

•

لم يخف على عمر أن اليهودية أرادت أن تعتصم بالدهاء، وتحمي بني قومها إذا ما ظهرت خيانات كعب بن الأشرف وأمثاله، وإذا ما اتضح أن بعض اليهود يخالفون العهود والمواثيق المبرمة بين الرسول واليهود، وأدرك عمر أن معنى تصرفات المرأة وكلماتها تنطق بغدر اليهود وتدبيراتهم وتآمرهم، بل استقر في قلبه يقين أن المرأة مبعوثة من قبل كبراء اليهود، ومكلفة بهذا العمل ...

لكأنما كان عمر يقرأ ما يدور خلف الستار ...

لقد عادت اليهودية إلى مكان خفي، اجتمع فيه عدد من كبراء اليهود، أغلبهم من بني القينقاع وخيبر وسدد الجالسون إليها نظراتهم المتلهفة وهي تلقي بجسدها المنهوك فوق خشبة صغيرة، وعندما رفعت حجابها، رأوا احتقان عينيها، وقليل من الدموع تبلل أهدابها، وقالت المرأة في انفعال :

— « أيها اليهود الأحباب... لم أعد أصلح لشيء ... »

قال حيي بن أخطب :

— « يبدو أنك فشلت في أداء المهمة الموكولة إليك » .

— « اننا نعادي قوماً يتمتعون بطاقة هائلة من الذكاء والالهام ... واذا كنا نحن أذكياء فلن نجاريهم فيما يفيض الله به عليهم من الالهام ... الالهام طاقة روحية ... »

قال « حيي » في شيء من الضيق :

— « دعي الفلسفة جانباً ... »

نظرت إليه المرأة في مرارة :

— « نفذت كل شيء بدقة ... »

— « النتيجة ! ! » هكذا صاح حيي بن أخطب في صبر نافذ،

فردت المرأة قائلة :

— « قال عمر بالامس رأيتك عاشقة واليوم تبدين كسفيرة ... »

وران على الجميع صمت عميق، وقال حيي وقد تقاطر عرقه :

— « لقد استطاع عمر أن ينفذ بثاقب بصره إلى أعماقنا ونحن هنا ... في مكاننا السري المغطى بالصمت والظلام ... »

وعادت المرأة تقول :

— « لم يكترث كثيراً بفرار كعب »

قال حيي : « لقد استفاد منا من حيث أردنا ان نعمي عليه أمورنا ... »

وقالت المرأة « ومع ذلك فقد أكدت له تبرؤنا من كعب، وحنقنا عليه، ورغبتنا الأكيدة في السلام، والحفاظ على العهود المقطوعة بيننا وبين المسلمين فرحب بذلك وشكره ... »

وساد الصمت مرة أخرى، ثم عاد « حيي بن أخطب » يقول :

— « أيها الرجال يجب أن نزداد حذراً وحيطة، إن سقطة صغيرة بنا قد تكلفنا مستقبلنا وحياتنا، ومحمد يحصي علينا سكناتنا وحركاتنا، ويجمع أخطاءنا، وخرقنا لمواثيقنا، وسيرفع في وجهنا ذات يوم صحيفة مليئة بالعديد من أخطائنا وخياناتنا ثم يحكم فينا سيفه، ولن يلومه العرب، بل سيقولون : هذا جزاء الخيانة ... اليهود يستحقون ... لهذا يجب أن نكف عن التصريح بما في ضمائرنا، وأن نمتنع عن مهاجمة محمد والتنديد برسالته، واستمسكوا بعلاقاتكم القديمة الوطيدة التي عقدتموها من قديم مع الأوس والخزرج وأهل المدينة ... إنهم اليوم أنصار محمد وجنوده، ولن يدوسوا مقدسات الود القديم ...

الحذر ... الحذر ... يا معشر اليهود ...

وأنا معكم إننا لن نستطيع القضاء على محمد وحدنا، إن أملنا الوحيد هو في الحشود التي ستعدها قريش ليوم الثأر... لن تنام قريش على عار الهزيمة، ولن تترك دم كبرائها هدراً، ولن ترى طريق التجارة بين مكة والشام واقعاً تحت سيطرة محمد وتسكت... إنها بذلك تحكم على نفسها بالفناء والفقر والعار ... المعركة آتية يا معشر اليهود ... وهي أقرب مما تتصوّرون ... فالحذر ... الحذر ... »

وانبعث نشيج عال، فتركزت الأبصار حول مصدره، كانت المرأة اليهودية، تبكي، وتنتحب وتقول :

— « لقد مللت هذه الأدوار المقيتة ... لقد تعبت أعصابي... كل يوم أتشكل بشكل جديد، أتعرفون الملل، لقد تعبت، أريد أن آوي إلى بيتي ... وأنام هادئة سعيدة دعوني... فقد سئمت كل شيء ... »

ربت « حيي » على كتفها في حنان :

— « لا تحزني ... فغدا يرى أبناء اليهود الدور العظيم المقدس الذي تقومين به، ثم ينحنون أمامك في إعجاب، حتى تلمس جباههم التراب...، إن الأحداث قوية عارمة، تثير الحفائظ، وتهز الأعصاب فلتطيبي نفساً، وليهنأ بالك، فلكل شقاء نهاية .

الفصل العاشر

سوق الذهب في المدينة، حيث يعيش بنو القينقاع وهم يهود متطرفون، وفي هذا السوق يجلس عديد من التجار اليهود وأمامهم الموازين الحساسة، وبريق الذهب يكاد يخطف الأبصار، وأكياس النقود تبدو وتختفي، وأصوات المساومات ترتفع وتنخفض، هنا يهودي يحاول أن يختلس قدرا من الميزان وهو يحصره، وآخر يضيف قدراً وهمياً إلى ميزانه، وفي حالتي البيع والشراء لا يكتفي الصائغ بالربح الحلال، بل لا بد أن يسرق، وأمام صائغ معروف جلست امرأة مسلمة تبيع حليها، كانت تبدو جادة يقظة، مما حير الصائغ، وجعله لا يستطيع أن ينال بغيته من السرقة أثناء الوزن والحساب، وبالقرب منها جلس شابان يهوديان يتجاذبان أطراف الأحاديث ...

قال أحدهما :

— « لقد رفع المسلمون رؤوسهم منذ غزوة بدر، لقد غرهم النصر الذي حققوه على قريش فمضوا في الطرق والأسواق يتعالون ويتباهون ... »

قال الثاني :

— « اجل ... انظر إلى تلك المرأة المسلمة، إنها تتصرف بكبرياء وثقة وهذا ما يحنقني .. »

قال الأول :

— « وعلى الرغم من حنقي الشديد عليها إلا أنها فاتنة ... »

— « ليست صيدا سهلا ... »

— « لكن ألا ترى فيّ ما يسبي النساء ؟ ؟ لكم يلذ لي أن تسقط هذه المتأبية في شباكي ..

— « احذر ... إن تعصبهم للدين الجديد، قد ربّى فيهم مناعة قوية ... »

— « المرأة هي المرأة أيها المغفل ... »

— « ألا ترى أن هذه المرأة خلق جديد ... »

— « مجرد مظاهر جوفاء ... »

— « فلتجرب حظك ... »

وانطلق الرجل الأول نحوها، وأدار وجهه إليها وقال :

— « لماذا تبيعين هذه الحلي ؟ ؟ ما أروع تألقها على نحرك، وتناسقها حول معصمك ».

سددت إليه نظرات زاجرة، ولم تنطق بكلمة ...

فعاد يقول :

— « يبدو أنك في ضائقة ، فمن الصعب على امرأة أن تبيع حليها إلا بسبب قهري ... » فرمقته بنظرة احتقار، وكأنها تقول له، لا تدس أنفك فيما لا يعنيك، وعلى الرغم من تفهمه لنظراتها الزاجرة، إلا أنه تمادى في غيه، إن دافعاً خبيثاً يدفعه إلى ملاحقتها، ومحاولة الايقاع بها، لكم يلذ لهذا اليهودي أن يلوث شرف امرأة مسلمة بالأوحال، أو أن يحطم من كبريائها، ويهون من تشبثها بأخلاقها، ووصايا الأحبار القديمة تحسن له العدوان على أصحاب الأديان الأخرى، وتبارك عدوانه عليهم، لقد خيل إليه انه يؤدي واجباً دينياً، إنه يتعبد بإيذاء البشر، وجرهم الى هاوية الخطيئة والفساد . . .

ابتسم في وجهها، وحنى رأسه أمامها وقال :

— « على الرغم من غطرستك فإنني أعشق هذا الجمال الفائق بل أعبده ... »

هدرت في غيظ :

— « أيها اليهودي النجس ... »

— « يا لحلاوة كلماتك اللاذعة ! ! »

— « ان بنات جنسك اليهوديات يملأن المدينة دعارة وعربدة ... فاذهب الى واحدة منهن » .

قال الشاب في برود :

— « إن جمالك الفذ يغفر لك هذه الهنات... »

تمتمت في غيظ :

— « يا عديم الكرامة ... »

— « إنني على استعداد أن أدفع لك ثمن هذه الحلي ثم أهبها لك، حرام ان يحرم هذا الجمال من حليه ... »

هبت واقفة، ونظراتها نظرات نمرة متحفزة. وقد استطاع واحد من اليهود أن يعريها من الخلف بحيلة خبيثة ... وصاحت ... »

— « اذهب وإلا بصقت في وجهك ... »

وفوجئت المرأة بأن الصائغ اليهودي، يثور في وجهها، ويواجهها بأقذع السباب، ثم ينتزع منها الحلي، ويبدأ في صفعها، وهو يقول : « لقد تركناك تتكلمين بكلمات سمجة، وتسبين اليهود، ولا ترعوين ... أتظنين أن محمداً سوف يرهبنا ؟ ؟ »

وأقبل صبية الصائغ، وذلك الشاب اليهودي، وحاولوا الفتك بالمرأة، فاستغاثت برجل مسلم تصادف مروره في هذا الوقت، ورأى ما عليه المسلمة المسكينة من هوان، وما تعانيه من اعتداء يكاد يقضي عليها، فحاول استخلاصها من بين أيديهم، فمالوا نحوه يشبعونه ركلا وسبا، وبينما كان المسلم يدافع عن نفسه، ويتلقى ضرباتهم ويتقيها إذ ضرب اليهوديّ الصائغَ ضربة أردته قتيلا، فأقبل اليهود من بني القينقاع من كل صوب، وانقضوا على المسلم، ولم يتركوه الا جثّة هامدة ...

وساد الصمت ...

وقال شيخ من شيوخ يهود بني القينقاع :

— « أيها الحمقى... لقد تصرفتم تصرفاً شائناً ... أو تظنون أن محمدا تارككم وقد بدأتم بالعدوان على المرأة ... وأرقتم دم مسلم يدفع عن نفسه ؟ ؟ أين حكمتكم ورويتكم يا معشر اليهود ؟ ؟

لقد اتسع الخرق على الراقع... وما أرانا الا على أبواب فتنة لا يعلم الا الله مداها ... عودوا إلى حصونكم يا بني القينقاع، واحتموا بها، فلن يمر وقت طويل قبل ان يدهمكم المسلمون من كل مكان ... »

سرى النبأ في كل مكان بالمدينة مسرى النار في الهشيم، وهرع المسلمون من كل صوب يتساءلون عن حقيقة الأمر، واستدعى الرسول عدداً من شهود الحادث يسألهم عن حقيقة ما جرى ...

وفي مكان آخر وقف عمر بن الخطاب بين جمع من الصحابة، وقد امتلأت نفسه ألما وثورة ثم قال لمن حوله من المسلمين :

— « لقد نقض اليهود العهد، وبدأوا العدوان، وحق العقاب ... »

فشق الصفوف اليه رأس المنافقين في المدينة، وهو عبد الله بن أبيّ، وقال :

— « لماذا تهول في الأمر يا عمر ؟ ؟ »

ضاق صدر عمر، فهو يعلم عن نفاق عبد الله بن أبي الكثير، ويعرف أن الرجل يظهر اسلامه، مع أنه يحمل في قلبه أثقالا وأثقالا من الحقد الرهيب على الاسلام والمسلمين، ويعلم أن الرسول قد سامح هذا المنافق أكثر من مرة، وجاوب على نفاقه بالمغفرة، وعلى غدره بالصفح، وعلى مكائده بالتسامح، كيف لا وابنه مسلم حق الاسلام ؟ ؟ ثم ان الرسول يفسح له الطريق كي يثوب إلى رشده، ويرجع عن غيه، لكن عمر لا يطيق صبرا، ويتمنى لو وافق الرسول فاستل عمر سيفه وقطع بها رقبة عبد الله بن أبي، لكن الرسول يرفض ذلك، ماذا يقول الناس وماذا يقول العرب ؟ ؟ سيقولون إن محمدا يقتل أصحابه ويغدر بهم، وسيجد دعاة السوء والفتنة الفرصة مواتية كي يبثوا سمومهم، ويثيروا ضغائنهم ...

لذلك صاح عمر قائلا :

— « ماذا تقول يا ابن أبي ؟ ؟ »

— « أقول ان الأمر أبسط مما تتصور ... دم بدم ... قُتِلَ يهوديّ وقُتِل مُسْلمٌ ... دم بدم انتهى الأمر ... »

ابتسم عمر في مرارة وقال :

— « أو تنكر يا رجل أنهم بدأوا بالعدوان ؟ ؟ »

صمت عبد الله بن أبي، ومضى عمر يقول :

— « أو تنكر أن المسلم الشهيد كان في حالة دفاع عن نفسه وعن المرأة المسلمة التي لم تسيء اليهم ؟ ؟

ولم ينطق عبد الله فاستطرد عمر :

— « ومن منكم تخفى عليه نوايا اليهود، وألاعيبهم ؟ ؟ لقد خانوا العهود، وأطلعوا الأعداء على عوراتنا، ونقلوا أخبارنا وأسرارنا إلى قريش وحلفائها، وهددوا أمن المدينة واستقرارها وهي قاعدتنا الأمينة ... هل سمعتم عن حاكم في الدنيا يترك الخونة والمتآمرين والأعداء يمرحون في قلب قاعدته الأمينة ؟ ؟

إن الأمر لا يحتاج إلى مزيد من الصبر... الصبر في مثل هذا المجال استهتار... » ثم التفت إلى عبد الله بن أبي وقال :

— « عد إلى بيتك ... »

— « وكيف وهم حلفائي في الجاهلية ؟ ؟ إن محالفة يهود بني القينقاع للخزرج أمر يعرفه العرب جميعاً، وإن القضاء عليهم أمر يمس كرامتنا، ويثير ثائرة الخزرج قاطبة ... إنك يا عمر تضخم الأمور الصغيرة، ولا تنظر في العواقب نظر حكيم ... »

هزّ عمر رأسه وقال :

— « عد إلى بيتك ... انني أدرى بالعواقب منك ... »

أرسل الرسول إلى بني قينقاع من يذكرهم بعهودهم، ويدعوهم الى الاستمساك بأسس تحالفهم مع المسلمين، فيكفوا أذاهم عن المسلمين، ويتركوا ما يشغبون به من دعاوى باطلة، وشائعات مغرضة، وإلا أنزل بهم ما أنزله بقريش، فما كان من بني قينقاع إلا ان ركبوا رؤسهم، ورضخوا لغرورهم، وقال قائلهم :

— « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ... »

عمر يستمع إلى هذه الكلمات المثيرة، ويدق الأرض بقدمه، ويتحسس سيفه في صبر نافذ، ويهمس في أذن أبي بكر الصديق :

— « ماذا ينتظر الرسول بعد هذا التحدي ؟ ؟ هؤلاء الأنذال تقطر كلماتهم حقدا، وتسيل نظراتهم سما زعافا ... »

— « صبراً يا عمر، ان الرسول سيعالج الموقف بما يقتضيه من الحكمة والحزم ... »

— « يا أبا بكر ... إننا نعيش في المدينة مهددين ... لقد طفح الكيل، لم يعد لنا مكان نلوذ به غير هذه المدينة، فاذا ما هدد اليهود وجودنا، وباعوا أسرارنا لقريش وغيرها من الأعداء، فقدنا المرتكز الآمن الذي نأوي اليه، وننطلق منه ... »

●

أسرع اليهود إلى حصونهم، لابسين عدة الحرب، وأطلت رؤوسهم وسيوفهم تحت وهج الشمس تعلن التحدي، وتعلن أنها ستلقن المسلمين درساً لن ينسوه فهم أساتذة الحرب وصناع السلاح، وعندما تسمع قريش بتصديهم لمحمد، فستتقاطر جنودهم للانقاض على محمد وأتباعه . وفي داخل الحصن أقبل رجل يهودي عجوز، وقال بصوت راجف :

— « يا معشر اليهود ... ثوبوا إلى رشدكم، واعترفوا بخطئكم، أو تظنون أنكم قادرون على هزيمة محمد ورجاله ؟ ؟ لم يحن الحين بعد لكي تنهضوا لهذه المواجهة مع المسلمين... فانتظروا الوقت المناسب، ولا تتعجلوا والا أصابكم ما أصاب قريشا في بدر ... يجب أن تقدموا المعاذير لمحمد، وأن تجددوا عهدكم معه وإلا حلت بنا الكوارث ... »

وصاح في وجهه الشاب المتحمس، ورفض دعوته، واعتبره شيخاً مخرفاً هرماً، قد جانب الصواب لقد اطلقوا كلمتهم أمام محمد، وأعلنوا أنهم أهل حرب وفن، وانطلى عليهم هذا الظن، واستقر هذا الوهم في عقولهم، وتمتم الشيخ العجوز :

— « أنا لا أقل عنكم كراهية وحقدا على المسلمين »

وصاحوا في وجهه ثانية :

— « اذهب، ووفّر نصائحك ... »

وهز رأسه في أسى :

— « لو كان يطاع لقصير أمر ... »

●

واتجهت جموع المسلمين بأمر الرسول وتحت قيادته، نحو حصون بني قينقاع، وحاصروهم في قلاعهم خمسة عشر يوما، وتطلع اليهود من نوافذ حصونهم، فرأوا الحشد الهائل، والسلاح الذي يتوهج تحت الشمس، ونظروا إلى بعيد فلم يجدوا أثراً لقريش، ولم يروا حليفاً يقبل نحوهم، كي يفك الحصار عنهم، ويزودهم بما يحتاجون اليه من ماء وزاد

وقال رجل منهم :

— « سنموت جوعاً ... »

وقال ثان : « سنفنى ظمأ ... »

وقال ثالث : « اننا نخوض معركة يائسة، وهذا عين الخيال ... »

وقهقه الشيخ العجوز :

— « أين هي المعركة أيتها الجرذان الضالة ؟؟ إن محمداً لم يضرب بسيفه ضربة واحدة... ومع ذلك هأنتم تسقطون اعياء ... ويفتر حماسكم، وتبحثون عن مخرج... »

— « وماذا ترى ايها الشيخ العجوز ؟ ؟ »

— « الاستسلام ... »

صاحوا في صوت صاخب :

— « الاستسلام ؟ ؟ »

قال الشيخ :

— « أجل ... نقضتم العهد، وبدأتم العدوان، ورفضتم التفاهم، وأبيتم الاعتذار، وصممتم على المواجهة ... والعدو يحيط بكم من كل مكان، فاذا حاربتم فنيتم عن آخركم، واذا سكتم متم جوعاً وظمأ ... وأراكم تحرصون على الحياة ... ولا سبيل إلى الحياة الا بالاستسلام ... »

قال قائل :

— « أترضى الذل والهوان ؟ ؟ »

— « لكي تعيشوا ! ! ارسلوا نفرا منكم إلى عبد الله بن أبي صديقكم وحليفكم في الجاهلية لعله يشفع لكم عند محمد ... وابعثوا إلى محمد وقولوا له اننا نسلم لك دون قيد أو شرط ونرضى بما تصنعه في رقابنا ونسائنا وذرياتنا وأموالنا ... »

وساد الصمت جموع المحتشدين في الحصن، لقد ضاقت الدنيا في وجوههم، وتبخر غرورهم، وتبددت آمالهم، وانكشف الامر وأصبح واضحاً لكل ذي عينين، إما الحرب حتى الموت، واما قبول الذل والهزيمة كي ينالوا الحياة ...

وانطلق صوت ساخر يقول :

— « لماذا لا ترسلوا رسالة عاجلة إلى « حيي بن أخطب » لعله يحضر ومعه يهود خيبر أو بنو قريظة، فيمنعوننا من سيوف محمد وقضائه علينا ؟ ؟ »

وقهقهت امرأة ... ونظروا اليها فاذا بها « اليهودية اللعوب » التي حاولت الايقاع بعمر بن الخطاب في يوم من الايام، وهي معروفة لديهم تمام المعرفة، وقالت اليهودية :

— « اننا نتخبط كالمجانين ... ماذا يفعل حيي بن أخطب ؟ ؟ وماذا يفعل بنو قريظة ؟؟ أهم في حاجة إلى رسالة عاجلة ؟ ؟ لقد سمع العرب بما حدث ويحدث لنا، ايها اليهود ... انزلوا على حكم محمد والا فنينا عن آخرنا ...

قال الشيخ الهرم معلقاً :

— « لقد نطقت امرأة يهودية بالحكمة »

وانطلقت اليهودية تقول :

— « اننا مثل سيء في عهودنا ووعودنا، نسلك الطرق القذرة، ونطأ كل المقدسات، ونثير الفتن والاضطرابات، ثم نفقد كل شيء كل شيء في النهاية ... شرفنا ... وحياتنا ... أجل، لقد فقدنا شرفنا، واوامنا احتمال الاحتفاظ بحياتنا ... فلا مناص من الاستسلام ... وانا شخصيا مطمئنة ... ان محمدا لن يقتل الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال ... »

وسرت تمتمة واضحة :

— « انها تتكلم بروح الأنانية المقيتة ... ماذا لو سبى محمد الذراري والأطفال ... وصادر الأموال ؟ ؟ أيكون لنا حياة حقيقية نستمتع بها ؟؟ »

وهدر الشيخ الهرم مرة أخرى قائلا :

— « الاستسلام ... »

وصاحت اليهودية :

— « لا شيء غير الاستسلام، ولعلنا نأخذ من ذلك درسا لا ننساه ... »

وأرسل اليهود رسالتهم الأخيرة إلى محمد ﷺ ، يعتذرون فيها عما بدر منهم، ويعلنون التسليم، ويحكمون النبي شخصياً في رقابهم ونسائهم وذرياتهم وأموالهم ...

وجاء عبد الله بن أبي إلى الرسول قائلاً :

— « يا محمد أحسن في مواليّ ... »

فلم يتكلّم النبي، فعاد بن أبي يقول :

— « يا محمد أحسن في مواليّ »

وثارت ثائرة عمر، وجذب عبد الله بن أبي من ردائه وقال :

— « دع الرسول ... انها قضية حرب، وقضية مصير لا تحكم فيها عواطف، او علاقات ود قديمة على حساب الدعوة الاسلامية ... ان أمن الدعوة التي آمنا بها وسلامتها وسلامة موطنها وناسها فوق كل اعتبار ... »

فخلص نفسه من عمر، ثم عاد إلى رسول الله، وأدخل يده في جيب درعه، فتغير لون النبي وقال له :

— « أرسلني »

وغضب الرسول من ابن أبيّ حتى رأوا لوجهه ظلا

وألح ابن أبي في رجائه قائلا :

— « والله لا أرسلك يا رسول الله حتى تحسن في مواليّ، اربعمائة حاسر وثلثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة ؟ ؟

اني والله امرؤ أخشى الدوائر ... »

وصاح عمر :

— « خانوا العهود، وبدأوا العدوان، وأرادوا حصدنا ... »

صمت الرسول برهة، ثم نظر إلى عبد الله بن أبي كبير المنافقين وقال له :

— « هم لك، على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورونا بها ... »

أصبح الصباح، وخرجت المدينة عن بكرة أبيها، لترى يهود بني قينقاع، يحملون متاعهم ونساءهم وأطفالهم، تاركين المدينة، مخلفين وراءهم ما يملكون من سلاح وأدوات الذهب الذي كانوا يصوغونه ...

وتمتمت اليهودية، وهي تتوارى بين النسوة . وتخفي نفسها حتى لا يراها عمر وقالت :

— « ها نحن نهيم على وجوهنا في الصحراء ... وكعب بن الاشرف ما زال يدبج القصائد في رثاء قتلى بدر، ويثير ثائرة قريش ضد المسلمين ... وما زال حيي بن أخطب ينعم في بني قريظة بالحياة والنساء والمال ... اللعنة على الجميع... لكأني بكم جميعاً تائهين في عرض الصحراء كأجدادنا في التيه ايام موسى ... ان حماقاتنا هي المسئولة دائماً عن كل كرب يصيبنا ... وهيهات أن نتعظ... » ولم يعلق على حديثها أحد، فقد كان الألم يملأ النفوس، ويريق الدموع، ويبعث الأسى في القلوب... وكان للندم لذعات معذبة ... يا له من عذاب ! !

●

ومال عمر على أذن أبي بكر هامساً :

— « لقد تخلصنا من عدد ضخم من الجواسيس ... انظر إلى الغبار المثار، من بعيد، لقد ابتلعتهم الصحراء القاسية... انهم يسيرون أذلاء خاضعين... لكن لو أتيحت لهم الفرصة لتحولوا إلى مردة وشياطين ...

الآن نستطيع أن نعتبر المدينة حصناً منيعاً يستعصي على كل الاعداء ... » تمتم ابو بكر :

— « والمنافقون ... »

— « انهم ألعن من اليهود... لكنهم قلة ... ولن نتركهم سادرين في غيهم ... »

وفي ناحية أخرى كان يهود بني قريظة وبني النضير يشعرون بأسى بالغ لما أصاب إخوانهم « بني قينقاع »، لكنهم كانوا يخفون غيظهم وسخطهم، ويظهرون تمسكهم بما

بينهم وبين رسول الله من عهود، بل حاولوا كذبا أن يعلنوا على الملأ استنكارهم لما أقدم عليه بنو قينقاع من خطأ جسيم ...

وقال حيي بن أخطب :

— « الويل للمسلمين... إن ثأر بني قينقاع لن يموت... اليوم انتهى كل أمل في مصالحة المسلمين ... »

قالت ابنته صفية زوج كنانة بن الربيع :

— « إن بني قينقاع أخطأوا ... ومحمد لم يقتل أحداً منهم ... والحكمة تقتضي ألا يقع أحد منا في خطأ مشابه ... »

ضحك أبوها « حيي » في مرارة وقال :

— « لقد عاهدت الله على القضاء، على محمد، واضمار العدواة له ... ولو أنزل مائدة من السماء أو أحيى الموتى ... »

سددت اليه نظرات قلقة، ولم تنطق بكلمة ...

الفصل الحادي عشر

قال عبد الله بن أبيّ لزوجه :

— « لقد دمعت عيناي حينما رأيتهم يرحلون ، كنت أنظر إلى حلفائي الأقدمين من بني قينقاع وهم يتركون أموالهم ودورهم والحسرة تأكل قلبي ... ماذا جرى للدنيا ؟ ؟ أأقف عاجزاً ضعيفاً لا استطيع أن أحمي حلفائي ؟ ؟ أنا ... أنا سيد الأوس والخزرج يا امرأة ؟ ؟ كيف يحدث هذا ؟ ؟ ... آه ... لقد كان قومي يعدون لي التاج ، ويكسونه بالجواهر قبل مجيء محمد ... »

قالت زوجه في دهشة :

— « أتبكي اليهود أم تبكي مجدك القديم ؟ ؟ »

— « أتسخرين مني ؟ ؟ ألا يكفي ما يفعله ابننا عبد الله ؟ ؟ لقد أصبح الملعون من أشد الناس حماساً لمحمد ولدينه ... يقول الناس عني رأس المنافقين ، ويقولون عن ابني بطل من أبطال المسلمين ... »

كان عبد الله يتخبط ويهذي ، ويسكب أحزانه في كلمات تقطر أسى ، لقد مضى زمن كان فيه السيد المطاع ، وكبير القوم ، ليس فوق كلمته كلمة ، ولا بعد رأيه رأي ، منزلة عليا نالها بين قومه ، فاتسع نفوذه كما اتسع ثراؤه ، ولما أسلم رجالات قومه ، وبايع الأوس والخزرج محمدا البيعة الشهيرة ، لم يكن أمامه سوى ان يعلن اسلامه ، وفي النفس ما فيها من المنغصات ، ولعله ظن ان في ظل الدعوة المحمدية مكاناً لمجده القديم وسلطانه الظاهر ، لكن للدعوة الجديدة مبادئها واخلاقياتها ، وللاسلام امجاده الخاصة ، انه ينظم فئات المسلمين على اساس من التقوى والايمان والالتزام بدعوة الله ... ومن ثم كان لا بد أن يرتفع أقوام ، وان ينخفض آخرون ، وان تظهر مع الفجر الجديد قيادات جديدة لها رصيد ضخم من الصبر على الايذاء ، والجلد في النضال ، والتمسك بالخلق الكريم ... ومن ثم أصبح عبد الله بن أبي رجلا في الصف الأخير ... بل رجلا تحوم حوله شبهات الشك والغدر والخيانة ... لطالما سهر الليالي الطوال يفكر ويحترق ... يحدث ولده فلا يصيخ السمع ، ويجده أشد ولاء للاسلام من ولائه لأبيه ، ويحدث أصدقاءه القدامى تلميحاً فلا

يجد سوى الاعراض والسخرية ... لكأنما استطاع محمد ان يحيل العقول والنفوس إلى خلق جديد قوامه الروح العقيديه الجديدة التي تحتقر كل السخافات العتيقة ...

ودق عبد الله بن أبي الارض بقدمه وصرخ :

— « جاء محمد إلى المدينة ومعه عدد قليل يقل عن الثمانين... كانوا فقراء مطرودين .. بيننا ... لم يكن يملك القوة ولا المال ولا التاريخ الحربي القديم، سحرنا محمد بحديثه ونظامه ... أصبح المهاجرون أصحاب المدينة، وصار الانصار مهاجرين ... اختلط كل شيء ... هذا أخو هذا ... معاهدات تبرم، وبيعات تعطى ... وأنا في ذهول أيتها المرأة .. أرى ما يحدث فلا أكاد أصدق عيني ... أقول لنفسي انها مجرد بدعة جديدة سرعان ما ينساها الناس او لعبة ظريفة سوف ينفض سامرها ... لكن الفقراء المهاجرين، والانصار المطيعين ... خرجوا ذات يوم إلى ماء بدر، وضربوا كبرياء قريش في الصميم، وحققوا نصراً مذهلاً على رجالات السياسة والحرب والمجد التليد ... وفي غمرة حيرتي وعذابي... رأيت يهود بني القينقاع ينزلون من حصونهم هاربين بجلودهم ... لقد اغتصب محمد مقعدي، وليته أفسح مكاناً لي جواره، بل يجلس أبا بكر عن يمينه وعمر بن الخطاب عن يساره، لشد ما أكره عمر هذا ! ! هذا الفظّ يسدد اليّ نظرات حادة وكأنها أنامل تتسلل إلى عقلي وقلبي وتعبث بمحتوياتهما ... انه يكرهني، ويدعي ان اسلامي قائم على النفاق ... آه يا امرأتي ... لشد ما أعاني من عذاب القهر والعجز ! ! »

وهتفت زوجته في انفعال :

— « ان محمدا لم يحارب أحدا، بل يستعين بذوي المواهب من المؤمنين برسالته ايماناً عميقاً، ويركن اليهم، لو أخذت الطريق الصحيح منذ البداية لربما كنت الآن واحداً من أقرب المقربين اليه، لكنك يا أبا عبد الله لست بالمؤمن ولا بالكافر، ليس لك موقف محدد ، فلو بقيت على دينك القديم لكنت زعيماً لخصوم محمد، ولو اندفعت إلى الاسلام دون تردد او وهن لصرت كبيراً من كبراء المسلمين، فالخطأ ليس من جانب محمد ... لنكن صرحاء ونعترف بالحقيقة المرة، ان محمدا لم يزل يعاملك في رفق، ويغضي النظر عن تصرفاتك الخطرة ... وما فعله في بني قينقاع هو أرحم مما يفعله العرب باعدائهم المنهزمين بل مما يفعلونه بالمسلمين عندما يسقط أحدهم في أيديهم، أي زوجي ان رجال محمد المخلصين قد زهدوا في الدنيا ومناصبها وبريقها، فاذا بالدنيا تقبل نحوهم وترتمي تحت أقدامهم تنشد وصالهم ... أليس كذلك ؟ ؟

تجهم وجه عبدالله بن أبي، وقال في حدة :

— « لشيء ما أكره هذه الكلمات ! ! »

— « انني أقول الحقيقة »

— « أعلم ذلك يا امرأة ... »

— « فلم تكرهها إذاً ؟ ؟ »

— « الموتورون والمنهزمون لا ينظرون سوى حقيقة واحدة تملأ عليهم أقطار نفوسهم، ويداعبهم خيالها في الليل والنهار »

— « ما هي هذه الحقيقة ؟ ؟ »

— « الحقيقة أنهم فقدوا أشياء عزيزة لديهم، لكنهم يحلمون باستردادها ... »

— « أهم على حق في ذلك ؟ ؟ »

— « هذا لا يهم ... ومع ذلك فأنت تعرفين أنني صاحب الحق في التاج ... »

— « أنت لم تحدد موقفك من الاسلام تماماً ... »

— « أنا لا أتحدث عن الاسلام، ولكن أتحدث عن مجدي الذي ضاع ... »

— « ليست هذه هي القضية ... القضية هي الايمان والكفر... »

— « والقضية في نظري هل سلبتني هذه الدعوة سلطاتي أم لا ؟ ؟ »

— « ولهذا ستبقى يا زوجي قلقاً مهموماً ... »

— « ليكن ... ان ذلك القلق سوف يشعل في قلبي ناراً لا يخبو وهجها ... »

— « أخاف أن تحرق هذه النار أناملك وآمالك ... »

— « اني أعرف كيف أمخر عباب الأحداث ... »

— « لكن الله يكشف لمحمد عن نواياكم ... »

فصرخ في حدة :

— « دعي هذا الأمر فقد سئمت الحديث عنه ... »

— « وكيف أصمت وأنت زوجي ؟ ؟ أراك تفضل أعراض الدنيا الفانية، على كنوز الآخرة الخالدة . ومصيرنا يا زوجي إلى الموت، وعند الله لن يشفع لنا مركزنا او سلطاتنا الدنيوية والعامل الحاسم هو الاخلاص ... فلرب عبد أسود السحنة، مجهول النسب أقرب إلى الله من ملك على رأسه تاج ... »

زمجر معترضاً :

— « هذه كلمات لا يقولها إلا الضعفاء والأذلاء ... انها مجرد معاذير فارغة يدافعون بها عن جبنهم وخورهم وعبوديتهم ... انني أؤمن بالله، ولكني أرفض أية تنازلات عن سلطاتي القديمة، وإمرتي على الأوس والخزرج... »

قالت في ضيق :

— « زوجي ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « أنت تحسد محمدا على ما حباه الله من نجاح ... »

— « هذا دأب ذوي الشأن والطموح من بني البشر ... »

— « لكنك وأنت تسير في هذا الطريق الوعر، تستبيح أشياء في غاية الخطورة ... »

— « ماذا تعنين ؟ ؟ »

— « تحرض على محمد، وتستعدي عليه الناس، وتؤلب عليه الأعداء، لكنك تبش في وجهه وتظهر له غير ما تبطن ... »

قال وهو يبتسم في مرارة شديدة :

— « تعنين أني منافق ... »

ولما لم تجب، قال :

— « أنا أسميه سياسة ودراية بوسائل البلوغ لآمالي ... »

— « قل ما شئت، فليس في امكانك أن تقنعني بأن ما تفعله لا يتناقض مع اسلامك ... »

ودق الباب، وخرج عبد الله بن أبي ليرى من الطارق، وقال في تحفظ :

— « من الطارق ؟ ؟ »

— « انه أنا ... »

— « كعب بن الاشرف ؟ ؟ مرحباً ... مرحباً .... لكن ما الذي أتى بك إلى المدينة ؟ ؟

— « انك تلعب بالنار يا كعب ... »

— « لقد عز عليّ يا أبا عبد الله أن أتركك وحدك في الميدان ... »

ودخل كعب، واجتمعا معا في غرفة مغلقة، كان كعب زائغ النظرات مرتبكا، وكان عبد الله بن أبي في شغف بالغ لمعرفة أخبار مكة، وما تنويه قريش ازاء استفحال خطر المسلمين، وازاء الهزيمة المرة التي تجرعوها على يد محمد وجنوده، وأبدى كعب بن الاشرف أسفه في البداية عما جرى ليهود بني القينقاع، وعما يحققه محمد من انتصارات متوالية وخضوع كثير من القبائل لأمره، ودخول أغلبهم في معاهدات سلام معه، وأخذ عبد الله ينحي باللائمة على غفلة قريش وتهاونها، على الرغم مما لديها من امكانيات مادية وبشرية تستطيع ان تقضي بها على انتصارات محمد وتدابيره، واخيراً قال كعب :

— « لقد أدركت قريش أخيراً ان الهزيمة التي اصابتها على يد محمد لم تكن هزيمة عسكرية فحسب بل ان نمو قوته قد افقدهم السيطرة على طريق التجارة بين الحجاز والشام ... ومن ثم فان تجار قريش واثرياءها يشعرون بالاختناق، لم يعد عار الهزيمة هو الذي يلاحقهم بل ان شبح الفقر هو الآخر قد سبب لهم فزعاً كبيراً ... ثم ان دماء القتلى يوم بدر لم يزل يصرخ به شعري في أودية مكة ومسامرها، وأخذ الرواة يتناقلونه في كل مكان حتى ثارت الدماء في عروق الرجال، والنساء ايضاً ... الثأر والشرف والتجارة هي عماد المعركة القادمة ... »

قال عبد الله في لهفة :

— « أية معركة ؟ ؟ »

— « ان قريشا تعد نفسها ليوم مشهود فاصل ؟ ؟ »

— « لحرب محمد ؟ ؟ »

— « أجل ... لسوف يدهمونه من كل صوب، وسيحشدون له حشداً ضخماً، ولسوف يهبون كالعاصفة المدمرة يحركهم الحقد والثأر للقضاء على محمد ومن معه من المسلمين المخدوعين... إن هند « زوجة أبي سفيان — وقد قتل أباها وأخاها — تعير قريشاً، وتسخر من جبنهم ... »

وصمت كعب بن الاشرف برهة ثم قال :

— « وسيثأرون لأحزان بني قينقاع ورحيلهم الحزين إلى المجهول ... »

وطأطأ عبد الله رأسه قائلا :

— « كان بنو قينقاع حلفائي في الجاهلية، وكانوا يقفون على ارض صلبة بالقرب من تجمعات المسلمين في المدينة، وكان يتوقع لهم انهم سوف يضربون ضربتهم الحاسمة في الصميم اذا ما جاء الوقت المناسب، ويبدو ان محمداً كان يدرك ذلك، ولهذا بقي مفتوح

العينين يترقب الفرصة حتى حانت، فانقض عليهم ولم يفلتهم ... ان محمداً ليس بالعدو السهل الذي يستهان به، أجل ... ذهب بنو قينقاع، ففقدنا قاعدة هامة من قواعدنا القوية ... لقد توجست خيفة منذ علمت ان عمر بن الخطاب يكثر من الحديث عنهم، ويحاول الكشف عن نواياهم ... وكثيراً ما وقفت في وجهه وهو يكيل لهم لدى الرسول، ويتصيد لهم الاخطاء، لكن حلفائي من بني قينقاع تهوروا وتسرعوا، حتى سقطوا فريسة في يد محمد، فارتاحت نفس عمر وابتهج قلبه، لقد بذلت جهوداً خارقة كي أنجو بهم من براثن عمر والمتشددين من المسلمين لكني لم استطع سوى ان احفظ حياتهم ... ويا لها من حياة ! ! »

قال كعب وقد احتقن وجهه غضباً :

— « لسوف يعودون في القريب العاجل إلى ديارهم ... »

— « أتعتقد ذلك ؟ ؟ »

— « أولديك أدنى شك ؟ ؟ ان حشود قريش يا أبا عبد الله، تستطيع ان تكتسح المدينة بكل من فيها ...

يا لها من لحظات حلوة ! ! عند ذلك أقف على أشلاء محمد وعمر وأبي بكر وأترنم بأروع شعر قالته العرب في تاريخها الطويل ... سأصعد أعلى منبر وأنشد القصة من أولها... وأتحدث عن اليتيم الذي أتى بدين جديد... وأتحدث عن أحلامه الكبار في الملك والسيطرة، وعن كأس النصر الأول الذي أدار رؤوس المسلمين وكان بداية لأفول نجمهم ... وأكتب المعلقات الخالدة عن عودة بني قينقاع ... وأخيراً أتكلم عن سيد الخزرج والأوس عبد الله بن أبي ... صاحب التاج ... »

وأشرق وجه عبد الله وقال :

— « وهل سيكون لي تاج كتاج كسرى وقيصر ؟ ؟ »

— « ولم لا ؟ ؟ »

وصمت عبد الله برهة ثم قال :

— « هل أكثرت من الشراب الليلة يا كعب ؟ ؟ »

— « أجل ... لكنني أعي كل كلمة أتفوه بها ... »

— « ومع ذلك فقد أخطأت في القدوم إلى هنا يا كعب ... ان المدينة — او القاعدة الامينة كما يعتقد ابن الخطاب — قد لا تتسع لرجل مثلك في هذه الاوقات العصيبة « ثم أما

كان من الافضل ان تبقى في مكة وضواحيها تحرض الاعراب، وتشحذ الهمم، وتشير عليهم بالرأي الصائب ... »

قال كعب :

— « ان ما تتمناه هو عين الصواب، لكني قمت بذلك فعلا... ولم يبق الا ان آتي إلى قاعدتهم الأمينة ... فان هذه المدينة في حاجة إلى من يثير فيها الفتن والاضطرابات ويروج الشائعات السوء، ويكشف عن عورات المسلمين ... لسوف أطلق شعري كالسهام اذا ما اقتربت المعركة ... وسأستمر في تشبيبي بنساء المسلمين، حتى أجرح تلك الطهارة المزعومة وامزق ذلك الحياء الكاذب، وأعطي لهن صورة داعرة ماجنة عارية من كل قداسة وخلق...

قال عبد الله :

— « قد يكلفك ذلك الكثير ... »

— « أولسنا في معركة ؟ ؟ انني على أتم استعداد للتضحية بوقتي وبحياتي والنصر لنا يا عبد الله ... وثق أن محمدا لن يصل إليّ ... »

الفصل الثاني عشر

« سراياه تخفق في كل مكان، وعديد من القبائل يدينون له بالولاء، وكلمة الله تعلو وتعلو واعداؤه يتشنجون ويثورون ويصرخون، وهو ثابت كالطود، يتحرك في تؤدة ووقار، حوله فئة قليلة من الرجال، واعداؤه عدد الحصى، لكنهم لا ينتصرون، فما السر في ذلك ؟ ؟ »

وصمت عبد الله بن أبي فترة، ثم قال :

— « أتعتقد أن الله معه يا كعب بن الأشرف ؟ ؟ »

— « ولماذا نتحدث عن الله في أمر من أمور الدنيا ؟ ؟ »

قهقه عبد الله وقال :

— « ان دعوة محمد تخص الدنيا والآخرة ... »

— « دع الآخرة يا عبد الله لما بعد الموت... »

— « أنت رجل دين ... تؤمن باليهودية، فما رأي اليهودية في هذا الامر ؟ ؟ »

— « انني أؤمن بموسى وكتابه، وأرى الحق مع ذلك الايمان ... »

— « وهل اليهودية يا كعب تنظم شئون الدنيا والآخرة ؟ ؟

— « إنها تتحدث عن الله والشيطان والانبياء والملائكة، والجنة والنار ... اعني تتحدث عن كثير من أمور الدنيا والآخرة ... »

— « ها أنت تقترب من محمد ... »

— « بل لعله يأخذ شيئاً عنا، وهذا سبب عدم ايماني به ... »

— « نظام الحياة ... هل هو شيء يتلقى من الدين ؟ ؟ هذا هو السؤال يا كعب ؟ ؟

تململ كعب في مكانه وقال :

— « لقد تعودنا ان نحصر الشعائر في الهياكل، أما شئون الدنيا من تجارة وسلوك وحرب وسلم، فهذه أمور تقررها عقول البشر ... »

قال عبد الله :

— « اني أشك فيما تقول ... اذ ان احباركم قد كتبوا الكثير في التلمود عن نظرتكم إلى الاخلاق، ومعاملة غير اليهود، ونسق علاقاتكم المالية والحربية معهم، وأرى أنه من الخير لكم ان تعلنوا ذلك على الملأ، والا كانت اليهودية قاصرة بالنسبة للاسلام، فالرجل المنصف يختار الدين الشامل المنظم لكل شئون الحياة ... اما اذا كان الدين محصوراً في مجموعة من المشاعر المنعزلة عن معترك الحياة فاني اعتقد ان أثر هذا الدين وانتشاره سيكونان ضعيفين ... »

قال كعب في شيء من الارتباك :

— « نحن لا نعادي غير اليهود من البشر »

— « لم أقل ذلك ... »

— « لكني أشم رائحة ذلك من كلماتك ... لنكن صرحاء ... يا عبد الله، لقد ميزنا الله على سائر البشر، وجعلنا أصفى عنصراً، وأكرم محتدا، وأسلم عقيدة ... ولا ذنب لنا في ذلك ... هذا ما قرره الله ... وعلينا السمع والطاعة ... »

قال عبد الله وهو يحدجه بنظرات حائرة :

— « ألا تشك في كلمات التلمود ؟ ؟ »

— « ليس لي أن أشك فيها ... »

— « لكن محمدا يقول انها من وضع أحباركم، وليست من صنع الله ... »

قهقه كعب وقال :

— « اذن فلنا أن نقول إن قرآنه من اختراعه، وليس من عند الله ... »

— « لكن كلماته معجزة، وتتفق مع العقل يا كعب ... ومحمد يؤمن برسالة موسى وعيسى والانبياء والرسل من قبل، ويعتبر رسالة الانبياء واحدة او سلسلة ذات حلقات تمتد من قديم الأزل إلى يومنا هذا ... ان رسالته أبعد عن التعصب وأقرب إلى منطق العقل ارتسمت علامات الجد على وجه كعب بن الاشرف وقال :

— « هل جئت اليك لتدعوني إلى الايمان بدين محمد ؟ ؟ »

— « لم أقصد ذلك ... لكن الأمر يؤرقني ... »

— « فهمت... تخاف أن يكون محمد على حق، ومن ثم فان صراعك ضده قد يكون كالسير في الطريق المسدود ... »

قال عبد الله في شرود :

— « انني أتساءل هل الله معه ؟ ؟ »

— « هذه القضية يا عبد الله لا يفصل فيها القول ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « لا يفصل فيها غير السيف ... وبالطبع سيكون الله مع المنتصر ... »

— « لكن كثيراً من الظالمين ينتصرون، ولا يمكن ان يكون الله معهم ... اذ ليس من الضروري ان يكون الله مع الأقوياء ... »

قال كعب في ضيق :

— « أرانا نضيع وقتنا في فلسفات لا طائل تحتها، وخير لنا ان نفكر فيما سنفعله اذا ما أقبلت قريش بقضها وقضيضها ... ألا فاعلم اننا جميعاً خلق الله، ولو أراد الله لنا الهداية لقادنا اليها، فلنعرف طريق الحق من خلال الصراع الدائب ... وأراد كعب ان يثير الحمية في دماء عبد الله فقال :

— « ومحمد يزعم ألا فرق بين السادة والعبيد امام الله، ويقول كلكم لآدم وآدم من تراب ومحمد يفعل أكثر من ذلك ... يقرب منه بلال الحبشي ، ويَزْوَرّ عن عبد الله بن أبي، والاول عبد يباع ويشترى ، وأنت كنت سيد الأوس والخزرج ... ترى هل جاء محمد ليحدث انقلاباً فوضوياً، فيجعل من العبيد سادة ومن السادة عبيداً، ومحمد استطاع بسحر بيانه ان يجعل الابن يحارب أباه، والاب يحارب ابنه، هل تراه يمزق روابط الأسرة، ومشاعر الأبوة باسم الدين ؟ ؟ ومحمد يقول ان اكرمكم عند الله أتقاكم، فأين الشرف والحسب والنسب... هذه ابتداعات أتى بها محمد ... ومحمد يرى ان اليهودية والمسيحية قد تناولتهما يد التحريف، وانه جاء ليحمل إلى البشر كلمة الله الاخيرة دون زيف أو تحريف ... كلمات غامضة يقولها صاحب كل مبدأ جديد ليجر الناس وراءه إلى الهاوية.. »

ورفع عبد الله إلى كعب عينين محتقنين وقال :

— « ومتى تهجم قريش ؟ ؟ »

— « في وقت قريب ... »

— « وماذا ينتوون ؟ ؟ »

— « تمزيق محمد وصحبه شر ممزق ... »

— « ثم ماذا ؟ ؟ »

— « وعودة الأوضاع إلى سابق عهدها »

وتمتم عبد الله في شرود :

— « إلى سابق عهدها ؟ ؟ »

— « أجل ... وتعود أنت سيداً للخزرج والأوس، وتصبح الكلمة كلمتك، ويعود اليك حلفاؤك من بني قينقاع ، ويتشتت المهاجرون في البراري، او تختلط دماؤهم بالرمال، ويصير بلال عبدا ذليلاً كما كان، ويذهب ابن الخطاب إلى حمار أبيه ويحرس الغنم، ويرعى الابل، ويحتطب في الخلاء ... ويعود اليك ابنك عبد الله يا عبد الله ... وتمضي قوافل التجارة من جديد بين مكة الشام آمنة ... وتستقيم الأمور ... »

وهز عبد الله رأسه قائلا :

— « أجل، وتستقيم الامور... »

— « ويجب ان تؤمن يا عبد الله انه عندما تصطدم قوى البشر، فان الله يقف على الحياد ... »

قال عبد الله في توتر :

— « دع هذا الامر، فانني أشك فيه ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « مأساة بدر ... »

— « انها شيء لا دلالة له، انها مجرد توفيق في الخطة والتنفيذ ... »

— « لكن عباقرة الحرب كانوا يحاربون محمدا ... »

— « أصابهم الغرور، واستخفوا بمحمد ، والحرب لا ينظر اليها نظرة المستخف المستهتر . »

— « هذا حق ... »

وران عليهما صمت عميق، قال عبد الله بن أبي بعدها :

— « ان منطق محمد وقوة اقناعه هما الخطر الداهم ... وليست قوته العسكرية ... »

— « السيف أقوى من منطقه وبرهانه يا عبد الله ... »

— « أريد ان اؤكد أهمية التشويش والنيل من أفكار محمد ومبادئه ... انها تهز التكتل البشري والعقائدي الذي يمضي خلفه يا كعب... »

— « اوافقك على ذلك ... »

وانطلقت ألسنة السوء في المدينة وفي ضواحيها والقبائل المتحالفة مع المسلمين ، وأخذت تنشر في كل مكان، ان محمدا يغدر بحلفائه، وينتقم منهم، فقد طرد يهود بني قينقاع ، وهو داعية حرب، يريق الدماء، ويترصد قوافل التجارة كما حدث في بدر، ومحمد من طلاب السلطة، وعشاق الحكم، فقد استطاع بذكائه ان يجذب اليه الدهماء والعبيد، ويقضي على سلطات الكبار أصحاب الحسب والنسب، ومحمد يسفه أحلام البشر وعقائدهم، ويهاجم الأديان والكتب السماوية السابقة، ومحمد قلب أمن العرب إلى حرب واضطراب، ومزق الروابط الأسرية، وأتى بمبتدعات لا عهد للعرب بها ...

كما انطلقت قصائد كعب بن الاشرف تشبب بنساء المسلمين، وتنال من حصانتهن ونظافتهن، وتلقي الشبهات على تصرفات محمد وصحبه كذباً وافتراء، وتنال من الدعوة الاسلامية وتلصق بها ما لا صلة لها به، وتحرض القبائل، وتكشف عن عورات المسلمين... وثارت ثائرة عمر بن الخطاب وقال :

— « انها حرب خسيسة، فهم يدسون السم، ويختلقون الأقاويل الكاذبة، ويلصقون بدعوة الله الشبهات. وينقضون العهد والميثاق ... لو كنت مكان الرسول لضربت أعناقهم ... كان عمر ينطق بهذه الكلمات وحوله جمع من المسلمين، فرد عليه عبد الله بن أبي :

— « تقصد أعناق من يا ابن الخطاب ؟ ؟ »

— « اولئك المنافقون واليهود هم المسئولون ... »

قال عبد الله بن أبي ثائراً :

— « انك تضر أكثر مما تنفع يا عمر ... »

قال عمر وهو يرتجف :

— « هذه اهانة لا أقبلها ... »

— « انني مسلم مثلك ... »

ضغط على أسنانه، وهدر :

— « يا ابن أبي... ليس الاسلام كلمات تقال، ولكنه قول وعمل ... »

— قال عبد الله « انني اعترض على سياسة ضرب الاعناق يا عمر... فافعل ما بدا لك ... »

قال عمر في شيء من الدهشة :

— « لكأني بك تظنني مغرم بسفك الدماء... هذا هو التجني بعينه... انني أقصد أولئك الخونة الذين باعوا أنفسهم للشيطان، وتعاونوا مع الأعداء، وشوهوا شرف المسلمين ولوثوا الحرمات، وعرضوا أمن البلاد للخطر ... ماذا كنت تفعل يا عبد الله بن أبي فيما لو تشبب بنسائك وبناتك ؟ ؟ وماذا كنت تفعل لو غدر بك حليفك وطعنك في ظهرك ؟ ؟ وماذا كنت تفعل لو استولت قريش على اموالك وحاربتك في رزقك، وارغمتك على مغادرة موطنك، وساقت جنودها لحربك ؟ ؟ »

وأدرك عبد الله ما تورط فيه من حديث، فعاد يقول :

— « ان غيرتي على الاسلام، وحرصي على سمعة رسول الله وأصحابه من حوله، كل ذلك يجعلني أحاول جاهداً أن أنفي الشبهات، وأن أعترض على التصرفات التي قد تسيء إلى دعوتنا السامية ... »

تمتم عمر وهو يرمق عبد الله بنظرات قاسية :

— « لا عقاب للخيانة غير الموت، ولا مصير للجواسيس والمرتدين سوى الفناء، وعلى الباغي تدور الدوائر ... »

هز عبد الله رأسه قائلاً :

— « هذا حق ... »

فاقترب عمر بن الخطاب منه وقال :

— « أين كعب بن الأشرف ؟ ؟ »

ساد الشحوب وجه عبد الله، وارتجفت مفاصله، ورد في لعثمة :

— « وما شأني به ؟ ؟ »

قال عمر وهو يصر على أسنانه :

— « لقد أهدرنا دمه »

٧

— « لماذا ؟ ؟ »

— « ما حكم الذي يخون العهد، ويتعاون مع الأعداء، ويحرضهم على قتال المسلمين، ويشبب بنساء الرسول ونساء المسلمين، ويقوم بأعمال التجسس ؟ ؟ »

قال عبد الله مطأطىء الرأس :

— « عقوبته القتل ... »

— « لهذا أهدرنا دمه ... »

وهم عبد الله بالكلام، لكن عمر صاح بأعلى صوته وهو يدور على عقبيه :

— « من منكم يأتي الرسول برأس كعب بن الاشرف ؟ ؟ »

ثم التفت إلى عبد الله قائلا :

— « ان اختفاءه لن ينجيه ... »

ثم عاد يوجه حديثه إلى الموجودين :

— « يجب ألا تأخذنا في الله لومة لائم، مهما أرجف المرجفون، وكذب المنافقون وتآمر اليهود، وملأوا الآفاق بالافتراءات والأكاذيب ... »

ونامت العيون، وأطل على المدينة ليل ساكن وديع، وبقي عبد الله بن أبي يقظاً يفكر، يستعيد الماضي البعيد بما فيه من أمجاد وذكريات، ويستعرض الحاضر المرير بما يضطرم فيه من قلق وعذاب وحيرة، ويفكر فيما قاله عمر، ان كلمة « منافقين » تطرق أذنيه كالصيحة القاتلة المزعجة، وتنغرس في قلبه كالخنجر المسموم، ومصير كعب بن الأشرف يؤرقه ويحزنه ... لسوف يحاول الاتصال بكعب بن الاشرف سرا، وسيدبر له وسيلة للهرب إلى مكة، كي ينضم إلى جيش قريش، ويأتي غازيا ... هذا أفضل حل، وما أن سمع المؤذن يؤذن لصلاة الفجر حتى راح في سبات مضطرب مليء بالرؤى المزعجة، والخيالات المخيفة ...

أفاق من نومه وقد غمر ضوء الشمس جنبات الدار، ورأى زوجه تدخل في هرولة، وتقول :

— « لعنة الله عليه ... »

— « ماذا تقولين ؟ ؟ »

— « هذا المأفون المقيت الذي كنت تجتمع به في بيتك ... »

— « ماذا تقصدين ؟ ؟ »

— « كعب بن الاشرف ... »

— « ما الذي يجعلك تتحدثين عنه هذا الحديث يا امرأة ... »

— « المدينة كلها تتحدث عن مصرعه ... »

وثب عبد الله من فراشه مذعوراً وصاح :

— « مصرعه ؟ ؟ »

— « أجل ... لقد قتل ... إلى الجحيم ... هل نسيت أنه مهدور الدم ؟ ؟ »

ودارت الأرض، وأظلمت الدنيا في عينيه، ودق قلبه دقات متلاحقة سريعة، وشعر بضيق في صدره يكاد يخنقه، وتمتم وفي عينيه دموع :

— « ان أصدقائي يسقطون واحداً اثر آخر، وكلما سقط واحد انهدم ركن من أركان مالي العريضة، كنت دائماً أحترمه ... فأنا احترم الرجل الذي يكافح عن سلطانه ومجده ومكاسبه ... »

قالت زوجه في شيء من الاسف :

— « أتحترم رجلا يشبب بالنساء، ويفضح سترهم كذبا وبهتانا، ويتنكر للعهود، ويبيع نفسه للأعداء ... »

صرخ في وجهها كمجنون :

— « إن كرامتي فوق كل اعتبار ... فوق الدين والدنيا ... فوق محمد ... فوق كل مقدسات الحياة ... أتفهمين أيتها الملعونة ؟ »

قالت وهي ترتجف :

— « أنا أتكلم عن كعب ولا أتكلم عنك ...

— « هذا خبث لا يخفى عليّ ... أنت تعرفين رأيي في الأمور، فيجب أن تحترمي مشاعر الود والصداقة التي أكنها لكعب، لست على دينه، لكننا كنا نسير في طريق واحد. قولي ما شئت، فلن أتنازل عن آرائي، ولن أسلم بالهزيمة، ولن أقر محمداً على سلب امتيازاتي ... أتفهمين ؟ ؟ »

قالت وهي تهرول خارجة :

— « أفهم ذلك من قديم، ولا أحاول التدخل في شئونك إلا اذا اضطررتني للحديث معك ... لقد سلمت أمري لله على أمل أن تنال الاستقرار والأمن في يوم من الأيام، ولكنك تجرنا معك إلى هاوية لا يعلم الا الله مداها ... »

قال ثائراً :

— « دعي الحديث عن الله فأنا أعرف عنه أكثر مما تعرفين ... »

قالت وهي لدى عتبة الباب :

— « أنت تعرف، لكنك تشقى بمعرفتك، لو كنت تعرف الله حق المعرفة لخلص ايمانك من كل الشوائب والمنغصات، ولبِتّ آمنا مستريح البال ... »

صاح مرة أخرى :

— « قفي مكانك ... »

— « ماذا تريد ؟ ؟ »

اقترب منها، ثم أمسك بيدها اليسرى قائلا :

— « هل نسيت أنك امرأتي ؟ ؟ »

— « لم أنس ... »

— « فلم هذا التبجح ؟ ؟ »

— « انني أعبر عما أعتقد ... »

قهقه في مرارة :

— « لقد أتلف محمد العبيد والنساء والرعاع ... لقد فسد كل شيء .. ابني يعاديني، زوجتي تعارضني وتحنق عليّ ... ما هذا الذي يجري ؟ ؟ لقد أصيب الناس بلوثة ... »

وأخذ يجفف عرقه، وهو يقول :

— « صبراً ... صبراً ... لكل شيء نهاية ... عند ذلك ستقولين ... كان زوجي على حق ... » وبقي عبد الله بن أبي وحده ... وعادت إلى ذهنه صورة كعب بن الأشرف... لقد كان جاداً في عدائه، فاضحا في شعره، مندفعاً في حقده ... كان أنموذجاً حياً للرجل الذي لا يحني رأسه، ولا يستسلم حتى أمام الانبياء ... لكن هاجساً غريباً أوحى اليه بالسؤال المحير الذي سأله لكعب بالأمس القريب، ودار حوله جدل طويل :

— « أتعتقد أن الله معه يا كعب ؟ ؟ »

لكن الاجابة على مثل هذا السؤال الخطير، لم تعد ذات بال بالنسبة لرجل كعبد الله يطفح قلبه بالحقد الاسود ... »

الفصل الثالث عشر

تلقى رسول الله رسالة خطيرة، فأمر حاملها باخفاء أمرها، وأدرك الرسول أن الأمر جد خطير، وكيف لا يكون خطيراً، وقد أقبلت قريش في ثلاثة آلاف محارب مجهزين بالاسلحة والمؤن والجياد، بل والنساء ايضاً حتى يثرن الحمية والحماس في قلوب المحاربين.. انه يوم الثأر لمن قتلوا من قريش في معركة بدر، ويوم الانتقام من الدعوة الاسلامية وبُناتها بـــل يوم المصير الذي تتوقف عليه تجارة قريش من مكة إلى الشام، بعد أن سيطر محمد ﷺ والقبائل الموالون له على هذا الطريق الحيوي الهام، تلك هي المعركة المنتظرة التي روج لها الصريع كعب بن الاشرف، والتي عمل لها شيخ المنافقين عبد الله بن أبي، انها معركة يحشد فيها الأعداء احقادهم، ويعلقون عليها آمالهم، وينشدون من ورائها الخير الكثير ... ولما تأكدت للنبي ﷺ حقيقة المعركة التي تنتويها قريش، جمع أصحابه، وأمرهم بالاستعداد التام لها، وان يكونوا على أهبة المسير لاستقبال الأعداء ...

صفق قلب عبد الله بن أبي فرحا بين جوانحه وقال « يرحمك الله يا كعب بن الاشرف، فقد أثمرت جهودك، ونجحت خطتك، وها هي قريش تقبل بقضها وقضيضها لتثأر من محمد وصحبه، وتعيد الأمور إلى نصابها ... آه لو كنت حياً الآن ! ! اذن لكنت فارسها المعلم، ولسانها المعبر... لكن طب نفسا يا كعب ... فان وراءك رجالاً يستطيعون ان يضربوا محمدا وصحبه في الصميم ... »

ودخلت زوجه وهو يحدث نفسه، وعلى الرغم من أنها لم تستطع ان تميز عباراته، الا أنها قالت في شك :

— « ماذا تقول ؟ ؟ »

قال دونما اهتمام :

— « الحرب تدق أبواب المدينة ... أتت قريش ليوم الثأر... »

— « أو سعيد أنت بذلك ؟ ؟ »

قال في دهشة :

— « كيف ؟ ؟ ان المدينة موطني، وفيها أهلي وقومي ... »

سددت اليه نظرات ذاهلة وقالت :

— « لكنك تمنيت سحق محمد وأتباعه ... »

ضحك في سخرية وقال :

— « ما قصدت ذلك اطلاقاً ... »

— « أمرك غريب يا عبد الله، ان كلماتك الثائرة بالأمس لم تزل تطن في أذني »

قال : — « قد يخرج الانسان عن دائرة الواجب والمعقول ابان انفعاله وغضبه، وقد كنت آخذاً على المسلمين عنفهم وطردهم لبني القينقاع، ورفعهم السفلة من الناس إلى مصاف الكبار أولي الرأي والكلمة المسموعة ... أما وقد جد الجد، وتعرض أمن المدينة

فعلا للخطر، فلا يمكن أن أفتح أبوابها لقريش، ان قريشا لو انتصرت فسوف تفرض علينا نوعاً من الحكم لا ينبض بالرحمة، وستتصرف تصرف الغازي المنتصر، وستسبي النساء والذراري، وتأتي بالأعاجيب ... لقد صحوت الآن على هذه الحقيقة المرة ... ولا تنسى انني ابن هذه الأرض الطيبة، وأنني سيد من ساداتها، ولا أوافق مطلقاً على أن يلطخ عار الهزيمة اسم مدينتنا الخالدة ... »

قالت زوجه وهي مستبشرة :

— « هذا أسعد يوم في حياتي يا عبد الله ... لقد هداك الله أخيراً إلى الطريق السليم، ما أسعدني بك زوجا، وما أسعد ابنك بك الآن ! ! »

رمقها بنظرات فاحصة ماكرة، ثم قال :

— « وليس هذا شأني وحدي، بل ان اليهود الذين يسكنون ضواحي المدينة قد أبدوا حماساً جارفاً للمشاركة في عبء الدفاع عن المدينة، ورد الأعداء عنها ... »

قالت في دهشة :

— « اليهود ؟ ؟ »

— « أجل اليهود ... هل نسيت أن بينهم وبين رسول الله عهداً ؟ »

— « أعرف ذلك، لكن سيرتهم وسلوكهم يشككان في وفائهم بهذا العهد ... »

— « أوه ... يا زوجتي ... ان الخلافات كثيراً ما تنشب بين القرناء لكنها لا تعني القطيعة التامة، والخيانة الموبوءة ... أتفهمين ؟ ؟ »

قالت ورائحة الشك تفوح من عباراتها :

— « أو تظن أن اليهود ينسون ما جرى ليهود بني قينقاع ؟ ؟ »

— « ان ما جرى لهم شيء يؤلم النفوس، لكن العلاقات الانسانية والسياسية الكبرى اسمى من الاحداث البسيطة ... لقد أخطأ فعلا بنو قينقاع ، وقد دفعوا ثمن أخطائهم ... هذا كل ما في الأمر ... »

قالت في دهشة :

— « أتؤمن بذلك فعلا يا عبد الله ؟ ؟ »

— « بدون شك ... »

ثم أخذ عبد الله يشرح لزوجه ما ينتويه من مشاركة فعلية في المعركة، فقد قرر ان يجمع اليه عددا من المسلمين يقودهم بنفسه، وخاصة اولئك الذين يثقون به، ولم يفقدوا بعد الأمل فيه، ومن ناحية أخرى سوف يتفاهم مع اليهود الساكنين في ضواحي المدينة ليجهزوا بضع مئات من رجالهم كي يخوضوا المعركة إلى جوار الرسول، دفاعاً عن أرضهم ومدينتهم، وتأكيداً للعهد القائم بينهم وبين محمد، واعادة للثقة المفقودة بينهما، وأكد لها أنه سوف يستقبل زعيماً من زعمائهم الليلة، وهو يرغب أن تكون المحادثات سرية، حتى لا يعلم بها أحد، وحتى تكون الحشود اليهودية مفاجأة سارة للرسول والمسلمين من ورائه .

قالت زوجه في شك :

— « محادثات سرية أخرى ؟ ؟ »

— « وماذا في ذلك ؟ ؟ »

— « لقد حسبت أن عهد المحادثات السرية قد انتهى منذ مقتل كعب بن الاشرف . . »

قال في رقة ودهاء :

— « أي عزيزتي ... انني رجل مسلم من كبراء القوم برغم سلب سلطاتي القديمة على يد محمد، وأن رجلاً كبيراً مثلي على عاتقه واجب ضخم يجب ان يقوم به، حتى ولو لم يكلفه به أحد ... ان صمود هذه المدينة والحفاظ عليها ... أمر يخصني أكثر مما يخص محمدا ... انني صاحب الأرض والوطن، ومهما حدث فلن أتخلى عن مسئولياتي العظام .. »

قالت : — ولماذا لا تطلع محمدا على الأمر ؟ ؟ »

— « قلت لك أريدها مفاجأة سارة له »

وصمت برهة، ثم قال :

— « ثم ان محمداً حوله طائفة من المتشككين المتعصبين امثال عمر وابي بكر، فقد يثورون في وجهي، ويثيرون الشحناء والاحقاد في وقت عصيب كهذا، وقد يؤدي ذلك إلى فشل ذريع لن يؤذي غير مدينتنا الخالدة وتاريخها، اما اذا اوشكت المعركة على البدء، ووجد المسلمون أنفسهم في المعركة، ووجدوا مفرزة من الجند تأوي اليهم وتعضدهم، وتشد أزرهم، فلن يكون هناك مجال للشحناء والتردد والخلاف ... أتفهمين ؟ ؟ »

قالت الزوجة بصوت خفيض :

— « قد تكون هذه فكرة لا بأس بها ... »

●

أقبل حيي بن أخطب تحت ستر الليل، وقصد لتوه دار عبد الله بن أبي، وكان لقاء حاراً فياضاً بالوان المشاعر والانفعالات المتبادلة، وانصرفا إلى مكان أمين لا يعكر وحدتهما فيه أحد، وجلسا وجها لوجه، وقال عبد الله بن أبي بعد فترة صمت :

— « لقد مات كعب ونحن أحوج ما نكون اليه ... »

قال حيي في تأثر :

— « يكفيه انه أدى واجبه، وضحى بنفسه، لم يكن ينقصه غير قليل من الدهاء والمكر، لكنه كان شاعراً، والشعراء لا يستطيعون كتمان انفعالاتهم، او اخفاء نواياهم ... انهم أصرح الناس قولا، وأشدهم حماسة ... ان الواحد منهم يا عبد الله قد يضحي بحياته من أجل بيت شعر يقوله، ولو كتمه لنجا، لكنه يدفع رقبته ثمنا لكلمته ... »

وتندت عيونهما بالدموع، وتمتم عبد الله :

— « لقد أقبلت قريش لتثأر لعذابنا الطويل ... »

وأردف حيي بن أخطب :

— « ولعذابها وأحزانها وشرفها المثلوم أيضاً ... »

— « هذا حق يا ابن أخطب ... ان دعوة محمد ترمي بسهامها في قلب أعظم مقدسات العرب، وتواجه أضخم تجمعاتها في سذاجة وغرور، ماذا يظن محمد ؟ ؟ هل يعتقد انه قادر على ضرب العرب جميعاً وتغيير معتقداتهم ؟ ؟ أيحسب أنه بعدد من الأفكار والبيان الساحر قادر على تحويل العقول والمعتقدات الراسخة ... والله لو أخذ العرب الخطر الاسلامي مأخذ الجد لسحقوه بين يوم وليلة ... لا أكتمك الحديث أن محمدا قد جانبه الصواب،

حينما تصور أنه قادر على نشر دعوته، وحملها إلى العالمين ... تصور ... العالمين... الفرس والرومان وما وراءهما ... أرأيت غروراً أعجب من ذلك ؟ ؟ »

هز حيي بن أخطب رأسه، وعديد من الأفكار يموج في عقله، ثم قال :

— « ليس الامر بهذه البساطة يا عبد الله ... »

— « ماذا تعني ؟ ؟ »

— « كان بنو اسرائيل قلة، وكان فرعون يذبح ابناءهم، ويستحي نساءهم، وكان لفرعون من القوة والسلطان والجنود ما لا يمكن دحره ... كان فرعون إلها يعبد في الأرض. لكن موسى وبني اسرائيل برغم قلة عددهم، ودار الذل والهوان التي يعيشون فيها، والرعب المسيطر عليهم ... برغم كل ذلك ... هزموا فرعون، وانتصر المستضعفون ... »

قال عبد الله في شيء من الضيق :

— « أتتكرر القصّة في هذا الزمان ؟ ؟ اينتصر محمد كما انتصر موسى ؟ ؟ »

أو تعتقد أنه نبي مثل موسى ؟ ؟ »

قال حيي بن أخطب :

— « هذا هو فصل الخطاب، هل محمد نبي ؟ ؟ انني أشك في ذلك شكاً كبيراً، ان موسى أحال العصي إلى ثعابين، وضرب البحر بعصاه فانشق وغرق فرعون ... هذه معجزات وغيرها كثير، وقد اعترف محمد بذلك في قرآنه ... موسى انتصر لانه نبي، وهو نبي لانه أتى بمعجزات خارقة فأين معجزات محمد ؟ ؟

قال عبد الله :

— « يزعمون أن القرآن معجزته الخالدة »

— « ذلك هو بيت القصيد يا عبد الله ... هذا لا يكفي ... ان بلاغة محمد لا اعتبرها معجزة ... ان في كل جيل شاعراً عظيماً، او فيلسوفاً عبقرياً، ولم يقل أحد أن أحدهما يمكن أن يكون نبياً ... »

هتف عبد الله في ضيق :

— « ان فكرة صائبة، او مبدأ هاماً نافعاً، قد يكون أجدى على البشر من احالة العصي ثعابين ... »

قال حيي بن أخطب :

— « آه ... وكيف نقرر صلاحية الفكرة او خطئها ؟ وكيف نحقق صدق المبدأ او نفعه ؟ ؟ هذه قضية لا يمكن الفصل فيها بسهولة من الناحية العقلية المجردة ... »

قال عبد الله :

— « وكيف نحكم فيها ؟ ؟ »

— « التجربة ... الزمن ... المعارك التي تحتدم ساخنة وباردة من حولها ... »

ومضى حيي بن أخطب في حديثه قائلاً :

— « فاذا ما استعرضت مبادىء محمد وبنود دعوته، وجدت فيها ما يضرك أنت شخصياً وما يؤثر على قيم الجماعة العربية، ويقلب موازينها قلباً ... ذلك ما تراه اليوم رأي العين، ما دام محمد لم يقدم المعجزات الحسية التي قدمها غيره من الأنبياء وواجبنا في هذا الوقت ان نحمي قيم الآباء والأجداد، وتراث السلف من قديم الزمان ومن خلال التجربة يا عبد الله ... ومع مرور الزمن، ومن خلال لهيب المعارك المحتدمة ستتضح الحقيقة ... اما السكوت على ما يجري، وفتح الطريق أمام الهرطقات التي يذيعها محمد، فانما هو عين الخطأ، اذ ان ذلك سيمكن له، ويفتح الطريق أمامه حتى يجمع اليه مزيداً من السذج والعبيد والرعاع، فيبلغ ما يريد ... »

قال عبد الله :

— « ان ما تقوله هو عين الصواب ... »

وران عليهما صمت عميق، قال حيي بن أخطب بعده :

— « وكيف نتصرف ازاء المعركة القادمة ؟ ؟ »

وأخذ عبد الله يشرح له وجهة نظره، ان الاحتمال الاكبر هو أن قريشاً سوف تنتصر، ولهذا فانه من الواجب موأزرتها، والانضمام اليها، حتى يمكن لهما ان يشتركا مع قريش في اجتناء ثمرة النصر، وحتى لا يتعرض احدهما لنقمة او انتقام بعد المعركة، اما الاحتمال الثاني وهو الاضعف هو أن ينتصر المسلمون، وهذه مسألة جديرة بالنظر، والاعتبار ولهذا يرى عبد الله ان ينضم بقواته إلى صفوف المسلمين، وكذلك يفعل رجالات اليهود المحاربين ... فاذا ما احتدمت المعركة، انحاز عبد الله بن أبي ورجاله من اليهود وغير اليهود إلى جانب قريش وطعنوا قوات المسلمين من الخلف طعنة نجلاء لا نجاة منها..»

قال حيي بن أخطب :

— « هذه فكرة صائبة مع ما يكتنفها من خطورة، فان سهام قريش واحجارهم قد لا تفرق بين رجالك ورجال محمد ... »

— « ليس بهذه الدرجة من الخطورة، فما هي الا بضع ساعات ويتم الأمر لصالحنا ... »

وصمت عبد الله فترة ثم قال :

— « مسكين محمد، انه يعرض نفسه لأخطار جمة، ولا يعرف أن الطريق إلى آماله الكبيرة مليء بالشوك والموت والحيّات القاتلة ... لقد غره نصره الخاطف في بدر، فتصور أن معاركه تمضي على هذه الوتيرة، ومن ثم تمادى في ارسال سراياه، وجذب الناس إلى دعوته، وتحكمه في طريق التجارة الهام، وطرده لمناوئيه من بني قينقاع ... »

وتمتم حيي بن أخطب قائلاً :

— « مسكين ... فعلا ... لقد قال في أحد أحاديثه اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين ... أترى كيف يبهر التعساء والضائعين بحلو حديثه وسحر بيانه ؟ ؟ »

— « انه حاد الذكاء »

— « ولكن كيف يتحرك ذكاؤه وسط هذه الاخطار المدلهمة ... »

قال عبد الله في ثقة :

— « سيكون دهاؤنا أقوى من ذكائه »

وأردف حيي بن أخطب :

— « والسيف يحسم الأمور »

— « أجل ... يضع النهاية المحتومة لكل الخارجين على نظام الحياة المقدس ... »

●

مال عمر بن الخطاب على أذن أبي بكر وقال :

— « أترى شيخ المنافقين ... انه يقبل نحونا في هذا الوقت العصيب ... أتراه كان متشفياً أم جاسوساً أم مؤيداً ... »

قال أبو بكر :

— « الرأي ما يرى الرسول ... ومع ذلك فليس لنا ان ندين الرجل المسلم الا بأدلة لا تقبل الشك، وبأفعال واضحة للعيان ... »

تمتم عمر في ضيق :

— « ان قلبي يحدثني انه حية رقطاء ... »

— « لو حكمنا على الناس بما تهجس به قلوبنا لظلمناهم يا عمر... ليس لنا غير الوقائع والشواهد نحكم على أساسها ... »

تنهد عمر وقال :

— « صدقت ... »

ودخل عبد الله حلبة الجدال، وأبدى حماسة فائقة للقاء قريش، والتصدي لجبروتها بكل قوة وبأس، وعندما علم عبد الله بن أبي ان الرسول يرى البقاء في المدينة، واستدراج الاعداء اليها، حتى يمكن القضاء عليهم في الشوارع والساحات، عندما علم عبد الله بذلك، قال :

— « ان ما يراه الرسول هو عين الصواب، وانا اوافقه عليه ... لقد صدق الرسول ... فعلا نحن أدرى بمدينتنا، وبمداخلها ومخارجها ... »

وعاد عمر إلى الهمس في أذى أبي بكر :

— « أليس غريباً ان يتحمس عبد الله لرأي الرسول ... أتراه صادقاً مخلصاً في قوله ؟؟ ان امره يحيرني ... »

قال ابو بكر :

— « هذا وقت عصيب، لا يتسع يا عمر للشك والريبة، فكلام الرجل حتى الآن لا يشم منه غدر ... »

وعلى الرغم من موافقة أبي بكر وعمر وعبد الله وكبار الصحابة على رأي الرسول، بخصوص البقاء في المدينة وملاقاة الاعداء فيها، الا ان جمهرة كبيرة من الشباب، وخاصة اولئك الذين لم يشهدوا معركة بدر أصروا على الخروج من المدينة وملاقاة الاعداء في معركة صريحة مكشوفة خارجها، وقال أحد الشبان :

— « لسوف يرمينا العرب بالجبن والتخاذل اذا نحن لزمنا مدينتنا، وحاربنا في شوارعها، اننا لا نهاب الموت، ولا نفرق من النضال ... »

وهكذا رأى الرسول ان الغالبية العظمى من رجاله يفضلون الخروج إلى الاعداء، ويرفضون فكرة الحرب داخلها، فأراد للرسول ان يحترم نتيجة المشورة، ويستمع إلى رأي الغالبية، لكنه قال :

— « اني أخاف عليكم الهزيمة ... »

وهدرت اصوات الشباب :

— « لا بد من الخروج، وليكن ما يكون ... »

أمر الرسول صحابته ان يتهيئوا للخروج، ودخل داره، وتقلد سيفه، وارتدى عدة القتال، ثم خرج إلى الناس ...

شعر القوم انهم استكرهوا الرسول على رأيهم، وأظهروا الرغبة في النزول على رأيه، وصاح عمر :

— « كان علينا ان نفكر في الأمر بروية، وان نصرف عن أنفسنا الحماسة الطارئة، والعنجهية الصارخة، ان الحرب خدعة، وبراعة وتفكير، وما كان يجب ان نقابل روية الرسول وبعد نظره بهذا الانفعال الأجوف ... المهم في الحرب هي النتيجة ... وسيان دارت رحا الحرب في شوارع المدينة. او إلى جوار « أحد » فان ما ننشده هو النصر، وتحقيق النصر يمحو كل الظنون والشبهات ...

الا أن النبي ﷺ وجد غضاضة في الاضطراب بين شتى الآراء والتردد في قراراته، فقال :

— « ما ينبغي لنبي لبس لامته (درعه) ان يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه... »

ثم طلب منهم الصبر عند البأس ...

وشعر عبد الله بن أبي بسعادة بالغة، لهذا القرار، لقد كان يعلم ان خطة الرسول الاولى خطة بارعة تليق بامكانيات المسلمين اذا ما قورنت بامكانيات اعدائهم، وعندما اعترض الشباب والرجال الذين لم يشهدوا « بدرا »، سر غاية السرور وتمتم بينه وبين نفسه :

— « لقد وقع محمد في الفخ المنصوب له ... لسوف يتمزق المسلمون بددا ... وستأكل الطير والوحوش من أجسادهم ... وسيصبحون قصة فريدة ... مضحكة ... مثيرة ... على مر الزمان ... »

ثم تنهد قائلا :

— « وستعود المياه إلى مجاريها ... ويحلو السمر ... وتعود الذكريات ... »

الفصل الرابع عشر

على بعد خمسة أميال من المدينة احتشد ألف من المسلمين حول الرسول، إلى جوار جبل « أحد » وأجال الرسول بصره في الحشود من حوله، فوجد تجمعاً كبيراً — غير الألف جندي — يقف على مقربة منه، وأخذ يتصفح الوجوه، لم يعرف أحداً منهم، فسأل عمن يكونون، فأجاب عبد الله بن أبي :

— « هؤلاء حلفائي من اليهود جاءوا لنصرتنا ...

وفكر الرسول برهة، ثم قال : « إما أن يسلموا أو يعودوا »

وحاول عبد الله بن أبي أن يقنع الرسول بضرورة بقائهم دون جدوى، وكيف يثق في اليهود وقصة بني قينقاع لم تزل قريبة العهد، وكثير من الشكوك تحوم حولهم، وسلوكهم المريب يعرفه الجميع، والمعركة تريد رجالاً أصحاء النفوس، أقوياء العقيدة، يعرفون الهدف النبيل الذي يحاربون من أجله ... »

قال عمر بن الخطاب :

— « يا ابن أبي ان قرار الرسول لا رجعة فيه ... »

— « ان حدة طبعك يا ابن الخطاب ستجر علينا المصائب ... »

— « لا أريد أن أدخل معك في جدل لا طائل تحته، ونحن على أبواب المعركة ... »

زمجر عبد الله بن أبي قائلاً :

— « ان قريشاً جمعت ثلاثة آلاف رجل، وهذا التفوق العددي يجعلنا في مسيس الحاجة إلى حلفائي من اليهود... لكنك يا ابن الخطاب تأبى الا أن تفرق الناس في هذا اليوم العصيب... لقد أطاع محمد الصبية وعصاني ... »

— « ان جندياً مؤمناً واحداً صادق الايمان يا ابن أبي يهزم عشرة من المشركين ... »

— « ما كل يوم تتكرر معجزة بدر ... »

قال عمر :

— « لله الأمر من قبل ومن بعدِ ... »

دق عبد الله بن أبي الأرض بقدمه، وقال في اصرار :

— « اذا لم يبق اليهود، فسوف انسحب برجالي الآخرين، وعددهم يربو على الثلثمائة »

قال عمر في هدوء :

— « ليكن ... »

— « وكيف يجابه سبعمائة من المسلمين ثلاثة آلاف من المشركين الأقوياء ؟ ؟ »

— « قرار الرسول قرار لا رجعة فيه ... »

فصاح ابن أبي برجاله الثلثمائة، والمفرزة اليهودية، أن يرجعوا ، ويتركوا ميدان المعركة احتجاجاً على موقف الرسول وعمر وغيره من كبار الصحابة ...

وابتسم عبد الله بن أبي وهو يولي وجهه شطر المدينة، وتمتم :

— « لسوف يتلقى المسلمون درساً أخيراً يجعل من وثبتهم الكبرى مجرد ذكرى عابرة... قد لا يعودون، ومن يعود منهم سيعود محطم النفس، كسير القلب لا يصلح لشيء ... »

وقال رجل من مشاهير اليهود :

— « ولماذا لا ننقض على المدينة ونحتلها في هذا الوقت العصيب ؟ »

قال ابن أبي :

— « بالمدينة قوة من الرجال الأشداء، وأظن أن مثل هذا التصرف قد يجر علينا وبالا كثيراً، ويقطع علينا خط الرجعة ... »

قال اليهودي :

— « ولم لا ننتظر حتى تحتدم المعركة، ثم ننقض على مؤخرة المسلمين ؟ ؟ »

— « المسلمون يحتمون خلف هضاب جبل أحد، وفي المؤخرة يقف خمسون من مهرة الرماة من المسلمين ... »

وصمت عبد الله برهة ثم قال :

— « ان مجرد انسحابنا سوف يخلخل الصفوف، ويضعف من ثقة المسلمين بأنفسهم... »

●

أخذ الرسول ينظم صفوف جنوده، وضع خمسين من الرماة على طريق تؤدي من الجبل إلى خلف قواته، وكان هدفه من وضع هذه القوة منع العدو من الالتفاف على قواته من الخلف، ولتكون هذه القوة قاعدة أمينة لقواته، تحمي ظهورهم، ويستندون اليها، وتستر الانسحاب عند الحاجة ...

وأصدر الرسول أمره قائلاً لهذه الجماعة وقائدها :

— « احموا لنا ظهورنا، فاننا نخاف ان يجيئوا من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وان رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا، وانما عليكم ان ترشقوا خيلهم بالنبل، فان الخيل لا تقدم على النبل » .

كان قائد المشركين أبا سفيان، وعلى الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل وحامل اللواء طلحة بن أبي طلحة ...

ولعبت هند بنت عتبة، زوجة أبي سفيان دوراً كبيراً في معركة الثأر الكبرى، لم تنس أباها وأقرباءها وكثيرين من كبار القوم اولئك الذين سقطوا صرعى بسيوف المسلمين يوم بدر الكبرى ...

وقفت هند تذكر حمزة عم الرسول يوم ان جندل شيبة، وشارك في قتل عتبة، ذكرته وهو يجول بسيفه قوياً ثائراً، لا يرهب الموت، ولا يتراجع أمام المشركين، أيمكن أن تنسى ثأرها ؟ ؟ وكيف تنساه هند، وهي ترى بعينيها حمزة نفسه يتقدم الصفوف كالمرة السابقة، ليعيد الضرب والطعان في صدور المشركين ...

أترى حمزة يكون قد انتوى الهجوم هذه المرة على زوجها أبي سفيان، وصاحت بأعلى صوتها :

— « لك الويل يا حمزة ... »

فضاعت صيحتها في الزحام والضجيج والغبار المثار ...

ثم تلفتت حولها متسائلة :

— « من يأتني برأس حمزة ، وأنا أعطيه جائزة كبرى فوق ما يحلم به ؟ ؟ »

واقترب منها أحد العبيد وقال :

— « أنا لها اذا ضمنت لي شيئاً واحداً ... »

— « من ؟ ؟ « وحشي » ... مولى جبير ؟ ؟ »

— « أجل ...

— « أتقتل حمزة ؟ ؟ انه صعب المنال ... »

— « لسوف أقتله ... »

— « وماذا تريد ثمنا لذلك ؟ ؟ »

— « حريتي ... »

وسمع جبير كلمات عبده وحشي ، وكان هو الآخر قد فجع في عمه في بدر :

— « لك ذلك يا وحشي ... »

وقالت هند :

— « وزيادة ... »

وجمعت عدداً كبيراً من النساء، وأخذت تسير بهن بين الصفوف تحرض الرجال، وتذكرهم بالثأر المقدس، وتنشد شعراً لكعب بن الأشرف يرثي فيه صرعى بدر ، ثم وقفت وسط الرجال وهي تترنم دون خجل :

ان تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

واحتدمت المعركة، وهند ترمقها بعين واجفة، وقلبها يأكله الحقد والغيظ... ومالت على أذن احدى النسوة « لو هزمنا، لبعت نفسي للشيطان ... وللطّخت وجه أبي سفيان بالوحل، ولبصقت في وجه خالد بن الوليد، ولانطلقت في قلب الصحراء أترنم بجبن قريش وخيبتها ... أما اذا تحقق النصر ، فسيكون أروع أيام عمري ... لسوف ندق الطبول، وننحر الجزر، ونطعم الرائح والغادي، ونملأ الكؤوس لينعم بالشراب كل ظامىء ... وسأقيم الأفراح في مكة أياماً وليالي طويلة ... أتدرون ما هي أعظم أمنية في حياتي ؟ ؟ أن أشرب من دم حمزة بن عبد المطلب، وأتلذذ بأكل كبده ... أتظنون أن ذلك يطفىء النار التي تتلظى في قلبي ؟ ؟ آه من يوم بدر ! ! ان ذكراه تملأ روحي بالحزن والحسرة والعذاب ، وتملأ ليلي بالأرق والدموع والكراهية ... لا بد أن يتحطم محمد ... لتنطلق كل امرأة منكن تحرض زوجها وعشيرتها وتشعل في قلوبهم نار الثأر ...

وسمعت هند وهي ترغي وتزبد أحد المشركين يقول :

— « لقد قتل حامل لوائنا طلحة بن أبي طلحة ... قتله علي بن أبي طالب صاحب محمد وابن عمه ... »

ودقت هند على صدرها في غيظ :

— « يا للكارثة ! ! أيسقط حامل اللواء هكذا بسرعة ؟ ؟ هل ستتكرر مأساة بدر ؟ ؟ »

ثم صاحت بأعلى صوتها :

— « فليتقدم رجل آخر ... »

فتقدم شقيق طلحة ، فسقط قتيلا ، ثم شقيقه الثاني... فقتل ...

أخذت هند تصيح وتولول ، وتستثير الهمم والعزائم ، وتهدد بأنها ستتقدم لتحمل اللواء ما دام الرجال قد عجزوا عن حمله ، وما داموا يتراجعون أمام هجمات المسلمين ، وبينما هي في عنفوان ثورتها وهياجها ، سمعت وحشي يصيح :

— « لسوف أقتل حمزة ... انني موكول به هذا اليوم برغم ما نعانيه من جهد ، وما نتكبده من مشاق وخسائر أمام المسلمين ... »

تضايقت هند بعض الشيء ، كانت تتمنى أن تسمع عن مصرع حمزة لا التهديد بقتله ، هؤلاء الرجال يتكلمون كثيراً ، ويبذلون الوعود ، وهم كثيرون ، ومجهزون بأقوى الأسلحة ، ومع ذلك فهي تراهم يتقهقرون ويقتلون ... ماذا جرى ؟ ؟ هل هناك قوة خفية تحمي محمدا ورجاله ؟ ؟ لو كان الأمر كذلك فلن تروي ظمأها للثأر ، ولن تجدي أية معركة ...

وأخذ وحشي يعد حربته ليصوبها نحو حمزة ، كانت يد وحشي ترتجف ، انه يشعر بخوف ظاهر ، وضيق بالغ يكاد يكتم أنفاسه ، الحرب محتدمة الأوار ، وفي امكانه ان يجرب حظه ، لكن يده ترتجف ... احساس بالذنب يؤرقه ، انه يحارب ومن ثم فان قتل عدوه أمر طبيعي لا يعتبر خطيئة ، لكن ارادته تكاد تكون مشلولة ، « يا الهي » أترى يكون محمد على حق ، ونحن على باطل ؟ ؟ » وأخذ يستعيد كلمات محمد ، وبعض الآيات التي يتناقلها الناس ، ويبحث فيها عن شيء يدين محمد ، لكنها كلمات طيبة ... سلسلة ... لا غبار عليها ... لا فرق بين سيد وعبد ، الله واحد أحد ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ... اوفوا بالعهد ... استوصوا باليتامى والعبيد والضعفاء خيراً ... جنة ونار ، وعقاب وثواب... وانبياء وملائكة ... والله ... الانسان ... الشيطان ... العدالة ... الاخاء ... لكن لماذا الحرب ؟ ولماذا الدماء ؟ ؟ ومن المسئول عن هذا كله ؟ ؟ »

ودفعه مولاه جبير في ظهره قائلاً :

— « لماذا تقف هكذا ؟ ؟ هل عجزت عن اصطياد حمزة أيها الجبان ؟ ؟ يبدو أنك لست أهلاً للحرية » .

ورنت كلمة « الحرية » في رأسه، فهزت جسده كله ، ودق قلبه فرحاً ... الحرية ... يا لها من كلمة سحرية يضحي في سبيلها بكل غال، لقد عاش طول حياته عبداً ذليلاً ، ويؤمر فيطيع ، ويسهر على راحة السادة، ويؤدي أحقر الاعمال ... هل في الامكان أن يتخلص من هذا الذل والعار ؟ ؟ أهو حلم أم حقيقة ؟ ؟ أيصير حقاً رجلاً حراً مثل باقي الناس، يأكل ويشرب وينام ويعمل حسبما يريد ؟ ؟ انه لأمل حلو طالما داعب حلمه في ليال الأسى والأرق والسهاد ...

وسمع من خلفه صوت هند :

— « ان الحرية يضحى في سبيلها بالحياة نفسها، فما بالك تتراخى وتتكاسل وأنت تجيد تسديد الرمية، وستنال حريتك، وقدراً كبيراً من المال والاغنام والابل ... »

أمسك « وحشي » بحربته، ورأى حمزة يضرب بسيفه يمنة ويسرة، يصرع الرجال، ويجندل حملة اللواء، والكلمة السحرية « الحرية » تطن في رأس « وحشي »، فلا يكاد يرى أمامه الا الحرية، وحمزة ... ان بينه وبين الحرية مسافة قصيرة، وحركة دقيقة ... ويولد من جديد ... يصبح « وحشي » العبد ... « وحشي » الحر ... يتزوج ويتناسل ويهب للوجود ذرية من الأحرار الشرفاء ... لم يكن في ذهنه المشوش في تلك الأوقات العصيبة وسيلة للحرية غير هذه الوسيلة السهلة وهي ان يطلق حربته ...

وانطلقت الحربة ...

أصابت أسفل بطن حمزة ... فسقط شهيداً ...

لحظات سريعة مليئة بعديد من الانفعالات الهادرة ... هند تطلق عقيرتها بصيحات الفرح والسعادة الكبرى، وجبير يربت على كتف وحشي مهنئاً اياه بالحرية ... والنسوة يتحلقن حوله يطرين شجاعته، ويفضن عليه من الثناء العظيم ... ووحشي صامت مفتوح العينين في ذهول، وكلمات كثيرة تطن في أذنيه، ويفتح وحشي فمه في بلاهة، ويحاول أن يتكلم فلا يستطيع ... هل أصبح حراً ؟ ؟ وبماذا يشعر الآن ؟ ؟ هو يعلم ان الحرية جميلة، لكنه لا يرى غير حمزة الشهيد والدم ينزف منه، وتهليل هند وصخبها، وثناء جبير وتمجيده لعمله، هل هذه هي مظاهر الحرية، ان قلبه ينزف دماً خفياً، واحساس بالذنب يلجم لسانه، ويغشى على عينيه، ويوشي روحه بالأحزان ... وينصرف الناس عنه في غمرة الأحداث، وتولول هند في تعاسة وهي تسمع أحد الانباء، لقد سقط الرجل التاسع من حملة اللواء، ثم تتقدم امرأة لتحمل لواء المشركين ...

تصدعت صفوف المشركين، وأخذت جموعهم تتراجع أمام ضربات المسلمين القاصمة وعاد وحشي أدراجه هارباً لا يلوي على شيء، لكأنه فقد السيطرة على نفسه، ولم يعد بامكانه ان يفكر التفكير السليم ... كان إلى الجنون أقرب، وصيحات التكبير تصم الآذان، فاندفع فارس مسلم يحمل سيف الرسول، نحو انسان عنيد يحرض المشركين على الثبات والقتال، فحمل عليه بالسيف، فاذا هند بنت عتبة زوج ابي سفيان تولول وتستغيث،

— « الرحمة يا أبا دجانة ... »

قال أبو دجانة ، وهو يبتعد عنها :

— « ما كنت لألوث سيف الرسول بدم امرأة ... حتى ولو كانت هند الحاقدة زوج قائد المشركين ... »

واستطاع المسلمون ان يجلوا المشركين عن معسكرهم، وان يحيطوا بنسائهم، أما وقد صل المسلمون لهذا الحد، فقد توقفوا عن المطاردة، وعادوا يجمعون الغنائم ويترنمون بالنصر العظيم ...

وصاح أحد الجنود المسلمين من الرماة الذين وقفوا بأمر الرسول يحمون ظهر قواتهم . ويمنعون خالد بن الوليد وفرسانه من تطويق المسلمين :

— « أيها الرجال ... لم تقيمون ها هنا في غير شيء ؟ ؟ وقد هزم الله عدوكم، وهؤلاء أخوانكم ينتهبون عسكرهم، لم لا نلحق بهم ؟ ؟ »

وصدرت عبارات ترحيب من الرماة تأييداً لكلام صاحبهم، غير ان قائد الرماة صاح :

— « لن أترك مكاني، وقد أمرني رسول الله ألا أغادره لأي سبب »

قال أحد الرماة وقد هزته نشوة النصر :

— « نحن لا نخالف أمر الرسول ... لقد انتهت المعركة ، فنحن في حل من البقاء في أماكننا أو تركها ... »

وهرولوا صوب معسكر المشركين ليشاركوا في جمع الغنائم، أما قائد الرماة فقد أبى أن يغادر مكانه، وكذلك بقي معه نفر دون العشرة، وتمتم قائد الرماة :

— « انه عصيان لرسول الله ... حاشا أن أعصيك يا سيد البشر ... ولو خلف الهاربون وراءهم قناطير من الذهب والفضة ... »

وأخذ يردد بضع آيات عن الصبر والجهاد والاستشهاد، وبينما هو كذلك ... اذ وجد على حين غرة عدداً كبير من جنود المشركين يقودهم خالد بن الوليد — وكان يقود ميمنة قريش — وجدهم يقومون بحركة التفاف مباغتة حول المسلمين من الخلف ، ولا يستطيع قائد الرماة والنفر الذين معه ان يصدوهم، ويصيح خالد بأعلى صوته طالباً من فلول المشركين الهاربين ان يعودوا إلى أماكنهم ، فقد حصر المسلمون بين فكي أسد ...

ويقع المسلمون في الكمين الذي نصبه خالد، وتحتدم المعركة من جديد ...

الفصل الخامس عشر

تطلع عمر بن الخطاب إلى الميدان الرحب، تحت أقدام الجبل المهيب، فوجد طائفة من جنود المسلمين ما زالوا منهمكين في جمع الغنائم، ووجد حشود قريش تعود أدراجها وتحاصر المسلمين من كل جانب، وتوقع في صفوفهم البلبلة، وتشتت تجمعهم، فلا يكادون يفتحون عيونهم حتى يجدوا ان النصر الذي حققوه في شطر المعركة الاول قد تبدد وان الدائرة تكاد تدور عليهم، وهجم المشركون على المسلمين في عنف واستماتة، واختلط الحابل بالنابل، وظهر تفوق المشركين من ناحية العدد والعدة ومن ناحية الموقع الذي ارتكزوا عليه أخيراً ... وأخذ المسلمون يناضلون من أجل الخروج من الحصار المضروب حولهم ... وكان الرسول ضمن المحاصرين ... ان ترك الرماة أماكنهم، وانصراف جنود المسلمين لجمع الغنائم بعد ظنهم ان المعركة قد انتهت، هذان العاملان قد اوقعاهم في مأزق حرج ...

واستطاع أحد المشركين ان يصيب الرسول بحجر في وجهه، واشتدت الحيرة والارتباك بالمسلمين، وظلوا يجادلون للخروج من المأزق، ان علي ابن أبي طالب يحرس الرسول بكل جوارحه، وأبا دجانة يتلقى النبل عنه، وسعد بن أبي وقاص يرمي دونه، حتى تلك المرأة الخزرجية نسيبة التي خرجت يوم المعركة لتسقي المسلمين، رمت بسقائها وانتضت سيفا، وأخذت تنافح عن النبي الذي أمسك بحربة، وظل يضرب بها يميناً ويساراً في شجاعة واستبسال نادرين ... لقد كان موقفاً ميئوساً منه، لكن الايمان القوي، والثقة بالله دفعت الرجال المحصورين، القليلي العدد يمضون في نضالهم في تلك الظروف السيئة ...

وسمع عمر بن الخطاب أحد المشركين يصيح بأعلى صوته :

— « مرحى... مرحى... لقد قتلت محمدا ... »

دارت الارض بعمر، وأظلمت الدنيا في عينيه، يا اله السماوات والأرض ! ! أحقاً مات محمد نبيك وحبيبك ؟ ؟ وكيف يحدث ذلك ؟ ؟ أيهزم المؤمنون، وينتصر المشركون ؟ ؟ أحقاً مات محمد ؟ ؟ والقى عمر بجسده المنهك المليء بالرضوض والسحجات، وظل جامداً ذاهلا، ما معنى ان يحدث ذلك ؟ ؟ كيف يصدق ؟ ؟ وماذا يحدث للاسلام والمسلمين ؟ ؟ والمستقبل ؟ ؟ وكلمات الله إلى الناس تلك الكلمات الموحاة إلى نبي الله ...

ونور الرسالة الالهية التي أخذت تفيض بالحب والهداية والعدل والحرية ... هل يتحول ذلـــك إلى هباء ... وذكريات ... وأحزان مرهقة ... لماذا لم ألق الشهادة مع من سقط في ميدان الجهاد فأنجو من هذا العناء النفسي الذي لا مثيل له ؟.. انني أتعس رجل في الوجود ... يا عذاب الملايين التي كانت تنتظر الخلاص والهداية على يديك يا محمد ... يا شقاء العبيد والمظلومين والمعدمين الذين كانوا يحلمون بفجر السعادة والاخاء ... أحقاً انتهى كل شيء ؟ ؟ أيعلو « هبل »، وتنتصر اللات والعزى ؟ ؟ ويعود كبراء مكة وسدنة البيت يضربون القداح، ويؤدون الشعائر الميتة، ويقرعون الكؤوس، وينحرون الجزر، وتصبح الدعوة الاسلامية، مجرد خبر يجري على ألسنة الرواة، وقصائد الشعراء في ليالي السمر، وأعياد عكاظ ؟ ؟ لماذا ... لماذا لا ينصر الله عباده المؤمنين ؟ ؟ اللهم لا اعتراض على حكمك، اللهم ان نصرك لا ينزل الا لمن يعمل وفق أوامرك ونواهيك، أتراه عقاباً أنزلته بمن انصرفوا عن الواجب الاسمى إلى غنائم الدنيا ؟ ؟ ان الموت لأروح من هذا العناء الذي أقاسي منه ...

وسمع عمر صوتاً يهتف به وبمن يجلسون بالقرب منه :

— « ما يجلسكم أيها المسلمون ؟ ؟ »

قالوا في أسى ولوعة والدموع على الأهداب :

— « قتل رسول الله ... »

قال وهو ينظر اليهم واحداً واحداً، ويطيل النظر إلى عمر :

— « فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ... »

رنت هذه الكلمات في أذن عمر فأيقظت حواسه ومشاعره، « فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ ؟ » يا لها من كلمات صادقة ! ! لقد آمنا بك يا محمد، وتغلغل حب الله في أعماقنا وخالط نفوسنا وفكرنا، أيمكن أن تنال الهزيمة من هذا الايمان، او تخرج به عن دائرة الصدق والثقة ؟ ؟ لقد كنت يا محمد على حق حياً وميتاً ... وموتك لن يغير من عظمة الدعوة الكبرى التي حملتها لبني الانسان ...

وانتضى عمر سيفه، ومعه أصحابه، وعادوا إلى المعركة يناضلون في ساحة الشرف والجهاد وهم أشد ما يكونون شوقاً للموت، وطرباً له، لو لم يكن في الموت سوى اللحاق برسول الله، والاستشهاد في سبيل الحق، لكان حقيقاً بالبحث عنه، والارتماء في أحضانه، ولن يستسلم المؤمنون لشرذمة الشر والشرك مهما كان الأمر ...

●

تطلعت هند إلى الهجوم الكاسح الذي تقوم به قريش، ثم تابعت سقوط عدد من أبطال المسلمين وهم يستميتون في الحرب، فرقص قلبها فرحا، وأخذت ترقص من جديد وتغني

وترتجل الأرجاز، وتترنم بالاشعار، وتثير الهمم والعزائم، ثم أخذت تثرثر « اضربوهم ضربة رجل واحد ... مزقوا شملهم ... اعل هبل ... احتزوا رأس أبي بكر وحطموا جمجمة عمر وأريقوا دم محمد بن عبد الله... لا تبقوا منهم على أحد... مثّلوا بهم أشنع تمثيل ... اذيقوهم الذل والهوان حتى لا تقوم لهم بعد اليوم قائمة ... »

وسمعت ذلك الصائح الذي يقول: « لقد قتل محمد » فوثبت من الفرحة، وبرقت في عينيها ومضات الشر والشماتة، وأخذت تردد في جنون: « قتل محمد... قتل محمد ... مرحى... مرحى... قتل حمزة ... مرحى... مرحى... قتل عمر وابو بكر ... »
ومضت تترنم من جديد: ان تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

أسكرت حلاوة النصر جموع المشركين، فاندفعوا مبهورين يضربون يمنة ويسرة، ويغوصون داخل صفوف المسلمين، ومع ذلك استطاع الرسول ومن معه ان يخترقوا الحصار، وان يلوذوا إلى ربوة، وأشرق محمد بوجهه على الصحاب الذين يناضلون في استماتة، وسمع المسلمون الصحابي كعب بن مالك ينادي بأعلى صوته:

« يا معشر المسلمين ... أبشروا ... هذا رسول الله ... »

ونظر عمر فرآه ... رآه يخرج من المعمعة مرفوع الهامة، لم تستطع الدماء التي تنزف من وجهه أن تخفي الاشراقة النبوية في قسماته، ولم يستطع غبار المعركة الدامية أن يطفىء صفاء عينيه، او يهد من قواه ... رآه عمر فهتف في شوق:

— « بنفسي أنت يا رسول الله ... أما وقد سلمت فكل شيء في الحياة يهون ... أيها المسلمون شدوا عليهم ... والنصر مع الصبر ... »

وعاد عمر يضرب بسيفه ...

سمعت هند صيحة الفرح والاستبشار بنجاة الرسول، فدمدمت في شك:

— « هذا كذب... الدائرة تدور على المسلمين، وهم يحاولون ايقاظ الهمم، واثارة العزائم بهذه المغالطة الفاحشة ... لقد قتل محمد وانتهى أمر المسلمين ... لكنهم يأبون الا ان يشيحوا بوجوههم عن لقاء الحقيقة المرة... ها ... ها ... ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق... »

وردت عليها امرأة:

— « لكني يا هند بنت عتبة رأيت رجلا يشبه رسول الله ... »

أهوت هند على وجه المرأة بكل ثقل كفها قائلة :

— « اخسأي يا ملعونة ... لقد بطل سحر محمد إلى الأبد ... لقد رآه رجالنا بأعينهم يسبح في بركة من الدماء ... فلا تذيعي قالة السوء هذه ... إن قاتله حدثني بذلك ... »
قالت المرأة وهي تضع يدها مكان الصفعة :

— « صدقت يا هند ... ان غبار المعركة يرسب في العين صورا لا أساس لها من الصحة ... » أما وحشي ، فقد لجأ إلى مكان منعزل يطوي قلقه وهمومه، ونسيته هند، ونسيه مولاه حين اشتد أوار المعركة ، لقد أدى دوره، أما شخصه فلا يهمهم في قليل او كثير بعد ذلك ...

ونظر خالد بن الوليد من فوق جواده، انه يرى كبار الصحابة متجمهرين لدى الربوة التي آوى اليها الرسول، ووجدهم يحشدون صفوفهم، ويستأنفون جهادهم العنيد من جديد، فانقض عليهم ومعه المجموعة الكبيرة التي رافقته ...

وانبرى عمر وصحابه ... الزبير وعلي وابو بكر وغيرهم لكتيبة خالد ...

كان عمر يضرب بسيفه، وفي نفس الوقت يستغفر الله على ما بدر منه من جمود ويأس ابان انتشار نبأ مقتل الرسول ...

قال ابو سفيان لمن حوله من رجالات قريش :

— « لقد انتقمنا ليوم بدر انتقاما رائعاً، وأرى جنودنا قد أرهقهم الكر المتواصل، وما أظنهم قادرين على مواصلة الحرب أكثر من ذلك ... »

قالت زوجه هند وقد سمعته عن كثب :

— « ماذا تقول يا رجل ؟ ؟ لا بد من القضاء على المسلمين قضاء مبرماً بحيث لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك ... أتريد أن تعطيهم فرصة أخرى ليتجمعوا بعد بضعة أشهر، وينقضوا علينا للثأر ؟ ؟ .

ورد عكرمة بن أبي جهل قائلاً :

— « ان زوجك على حق يا أبا سفيان ... هل خرجنا لنقتل بعض المسلمين ثم نعود أدراجنا ام جئنا لنضع حدا للمتاعب التي نقاسيها من جراء سيطرة محمد ؟ ؟ »

قال أبو سفيان في اصرار :

— « لقد قتل محمد وعمر وابو بكر ... وأكثر من سبعين نفراً من كبار المسلمين

المهاجرين والانصار، كما انشق عبد الله بن أبي قبل بدء المعركة ، فهل تعتقدون بعد ذلك ان تقوم للمسلمين قائمة ؟ ؟ »

ورضخ المشركون لأوامر قائدهم ابي سفيان، فكفوا عن الاستمرار في القتال، وقد صادفت أوامره هوى في نفوسهم بعد ما عانوه من مشاق، وهزيمة مرة في الفترة الاولى من الحرب، ألا يكفيهم ما حققوه من نصر ؟ ؟ »

وعاد المسلمون إلى مكان قريب يضمدون جراحهم، ويداوون ما يشعرون به من أسف لما حاق بينهم من هزيمة في شطر المعركة الثاني ... انهم في حاجة إلى الهدوء والراحة واعادة النظر فيما جرى ... بل لعلهم كانوا في مسيس الحاجة إلى الاتجاه من جديد إلى باب الله بأرواحهم وعقولهم، أهناك خلل ما في بنيانهم النفسي والسلوكي ؟ ؟ وبينما كان المسلمون يستغفرون ويتوبون إلى الله، ويستمعون إلى كلمات الرسول، تلك الكلمات التي تزيل ما علق بقلوبهم من كرب وهم، بينما كان المسلمون يفعلون ذلك، كانت هند بنت عتبة، وزوجة القائد أبي سفيان بن حرب، تتجول بين جثث الشهداء من المسلمين باحثة عن حمزة بن عبد المطلب، فقد أقسمت ونذرت ان تمثل بجثته، وتلوك كبده بين اسنانها، وتشرب من دمه، لعل ذلك يطفىء من نار الحقد التي كانت تأكل قلبها ...

رآها زوجها ابو سفيان في صورة وحش بشري، الدماء تغرق شدقيها، ويداها تعبثان باحشاء الشهيد، وبعض النسوة الاخريات يفعلن مثلها :

— « ماذا تفعلين يا هند ؟ ؟ »

— « احقق الامل الحارق الذي يضطرب في قلبي منذ مأساة بدر ... »

— « هذا لا يليق بالكرماء من العرب ... »

صرخت في حدة :

— « اذهب عني ... »

ثم دفعته بيديها الملوثتين إلى الوراء، فمضى ساخطاً ...

وقبل أن يعود أبو سفيان إلى مكة، أشرف على الجبل، فنادى بأعلى صوته موجها حديثه إلى المسلمين :

— « أفيكم محمد ؟ ؟ »

فلما لم يجيبوه، استطرد يقول :

— « أفيكم ابن أبي قحافة أبو بكر ؟ »

لكنه لم يسمع جواباً لسوأله الثاني، فقال مرة ثالثة :

— « أفيكم عمر بن الخطاب ؟ ؟ »

وعندما فوجىء بالصمت، قال في سعادة :

— « أما هوُلاء فقد كفيتموهم ... لقد قتلوا ... وانتهى الأمر ... »

فلم يتمالك عمر بن الخطاب نفسه، لقد هب واقفاً، ونادى بأعلى صوته :

— « يا عدو الله ...

ان الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ...

وان محمدا يسمع كلامك الآن ... »

قال رجل من قريش ممن يدركون الأمور جيداً :

— « اذن فالمعركة لم تنته بعد، وما حققناه من نصر لا يعتبر أمرا ذا بال ... »

قهقه ابو سفيان ساخراً، ثم قال :

— « انه ليس أمرا هيناً ... لقد هزمنا رجلا يقول انه نبي مرسل من عند الله ... وهذا كثير... ان هذه الهزيمة التي مني بها المسلمون لها ما بعدها، لسوف نزعزع الثقة في نفوس المؤمنين برسالة محمد، ولسوف يترك الحزن طابعه على كل بيت من بيوت المدينة ... »

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه، نادى من جديد :

— « وان موعدكم بدر العام القادم ... »

فقال الرسول لرجل من اصحابه :

— « قل نعم ... هو بيننا وبينك موعد ... »

وتمتم عمر في ثقة :

— « ولن نخلفه باذن الله ... »

وعلم الرسول بما جرى لعمه حمزة بن عبد المطلب، وما ارتكبته هند في حقه من تمثيل وعبث بجثته، فتمتم الرسول، وعبرة تتسال من بين أهدابه :

— « سيد الشهداء حمزة ... »

وعادت قريش تنحر الجزر، وتقيم المآدب، وتدق الطبول، وتسقي الخمور، وتترنم بقصائد الفخر والمديح... من أجل نصر تافه لم يحسم أمراً ...

ولم يخف جوهر الامر على عمر، فقد همس في أذن ابي بكر :

— « لماذا تحزن يا ابن ابي قحافة ؟ ؟ أنا اعرف ان قريشاً انتصرت كما يبدو ظاهرها،

لكن ألا تعتبر نجاتنا من الفناء الكامل، وانسحاب جنودنا دون ان نخسر سوى عُشْرهم. ألا تعتبر هذا بالنسبة لنا نصراً كبيراً ؟؟ ان الرسول لم يزل بيننا، وايماننا بالله لم يتزعزع، وجبريل ينزل بالوحي يشرح الامر، ويستخلص العبر والدروس، كان لا بد أن يحدث شيء من هذا القبيل ... ان يمسنا شيء من الاسى والنكد والتعب حتى نتعظ ونتعلم ... لقد علمنا ان قريشا ستعود وتكر على المدينة غدا ... وسنخرج اليهم ... ألا ترى ان خروجنا يعني اننا لم نزل قوة يحسب حسابها، وان الهزيمة الظاهرة ليس لها تأثير يذكر على ايماننا الذي لا يتزعزع بالله وبرسوله وبكتابه ؟ ؟ »

هز ابو بكر رأسه قائلاً : — « ان كلماتك مقنعة يا عمر ومريحة ... رضينا بقضاء الله وقدره ... والله مع الصابرين ... « ان ما حدث كان ابتلاء من الله وامتحانا ... وتمحيصا للمؤمنين ... »

الفصل السادس عشر

في مكان يقال له « الروحاء » بين مكة والمدينة، وفد إلى أبي سفيان رجل وقال له :

— « إلى أين يا أبا سفيان ؟ ؟ »

— « نحن عائدون إلى مكة، وقد ضربنا المسلمين أمس ضربة ساحقة ... »

قال الرجل :

— « انك تهون من امر المسلمين، وتشمخ بنصرك المزعوم ... »

تغير وجه أبي سفيان، ونظر إلى الرجل مستفسراً، وقال :

— « ماذا تعني ؟ ؟ »

— « ليكن معلوماً لديك يا أبا سفيان ان محمدا قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، وكان قد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقا، ومنكم للثأر طلبا ... »

تمتم ابو سفيان : — « في جمع لم تر مثله قط ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « وأنا الذي ظننت انهم لن تقوم لهم قائمة قبل فترة طويلة ؟ ؟ أفي اليوم التالي للهزيمة يحشدون الحشود، وينهضون للحرب ؟ ؟ انه لأمر خطر ... »

وقال الرجل لأبي سفيان :

— « انه لنصر أبتر، وفرحة لم تتم، ومن ينظر إلى الأمور يجد ان المسلمين لم يخسروا سوى سبعين قتيلا ... وهذا عدد قد يقضي عليه أي وباء في يوم واحد ... وغدا تنقلب هزيمة محمد إلى نصر، ويخرج أصحابه من المحنة القاسية أصلب عودا، وأقوى ايمانا، وأكثر عدداً ... »

فكر أبو سفيان في الأمر ملياً، أيعود إلى الحرب من جديد الآن ؟ ؟ وكيف ؟ الرجال مجهدون وقد رضوا بما فعلوا، وثأروا لقتلى بدر، وشفوا غليلهم بتمثيلهم بالقتلى من المسلمين،

وأكلوا وشربوا وطربوا، وترنموا بالقصائد، ورفعوا رأس « هبل » فوق أعلى جبل ... ان الرجال يريدون العودة إلى مكة، واستئناف حياتهم، وليس هذا هو المهم، أخطر ما في الامر هو هذا السؤال : ماذا تكون النتيجة لو ابتدأنا المعركة من جديد ؟ ؟ هل يستطيع الرجال المرهقون الثمالى بخمرة النصر أن يحافظوا على انتصارهم ؟ ؟ وهل سيرتكب المسلمون نفس الحماقة التي ارتكبها الرماة وجامعو الغنائم حينما تركوا أماكنهم، وأتاحوا لنا الفرصة الذهبية التي لا تتكرر ؟ ؟ أكبر الظن ان المسلمين سيكونون هذه المرة أقوى شكيمة، وأشد حذرا، وأكثر منا إصراراً على النصر ومسح أثر الهزيمة، والانتقام لشهدائهم، ولمن مثلنا بهم ... وتمتم أبو سفيان : « ألا ان العودة إلى الحرب مغامرة قد تؤدي إلى كارثة، وتمحو النصر العظيم الذي حققناه أمس ... يجب أن نعود إلى مكة، ونترك الهزيمة تفعل فعلها في محمد وصحبه ... يجب أن نعود إلى مكة بالنصر الذي حققناه، ونزف إلى أهلها بشرى الأمل الذي عاشوا من أجله منذ مأساة بدر ... »

لكن أبا سفيان لم ينس ان يلعب لعبة جديدة، لقد دسّ إلى محمد من يذهب اليه ويخبره بأن أبا سفيان سيعود لحرب المسلمين فورا، ومعه مدد ضخم أتت به قريش، وأبو سفيان يقصد من وراء ذلك اثارة الخوف في قلوب المسلمين، وتحطيم معنوياتهم، لعلهم يعودون إلى المدينة ... ثم انطلق عائداً إلى مكة ومعه انباء النصر، ومقتل حمزة وغيره من عظماء المسلمين ...

●

كان عبد الله بن أبي قابعا في المدينة بعد أن انسحب بجيشه، وترك المسلمين وحدهم يجابهون عدوهم بعددهم القليل، وظل عبد الله يتنسم الأخبار، ويسأل عنها الركبان، وقد فاضت نفسه غبطة حينما علم بما حاق بالمسلمين من انكسار في النهاية، لقد كان قلبه يرتجف حقداً حينما علم بأنباء الانتصارات الاولى، لكن سماعه بمصرع حمزة قد أثلج صدره ... وما ان علم بالانكسار الأخير للمسلمين، حتى وثب كطفل، وأخذ يصفق بيديه فرحا، وهتفت زوجه :

— « ماذا جرى لك ؟ ؟ »

— « الكبرياء الفارغة ... »

— « ماذا تقول ؟ ؟

— « وقصر النظر ... »

— « انني لا أفهمك يا عبد الله ... »

— « وغرور ابن الخطاب ... كل تلك الاسباب قادت المسلمين إلى الهاوية ... »

صاحت زوجه في خوف :

— « هل أصاب محمدا مكروه ؟ ؟ »

قهقه في شماتة :

— « تقول الأنباء أنه قد قتل ... »

صرخت — « انهم يكذبون ... »

هتف في دهشة : — وماذا يضيرك يا امرأة ... »

— « انه بر أمين ، صادق كريم ، يعطف على المساكين ، ويبش في وجوه الجميع . إنه رسول الله ... »

ضحك ساخراً وقال :

— « ويزعمون ان ابن ابي قحافة ، وابن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ، كل هؤلاء قد قضت عليهم سيوف قريش ... »

ورأى الدموع تتجمع في عينيها ، فاستطرد :

— « لقد توهّم محمد أن النصر يأتي بالدعوات والضراعة إلى الله ، وحسب أن حفنة من رجاله قادرون على سحق قريش ذات العدد الوفير ، والتاريخ الطويل ، والمجد التليد ... الحرب هي الحرب يا امرأة ... وهي لا تخرج عن كونها (عقول ، ورجال ، وسلاح) .. وما عدا ذلك من ضراعات ومزاعم وكبرياء لا تشكل أي تأثير فعال ... أتفهمين ؟ ؟

وأخذ يشرح لها كيف ان اليهود قد تناسوا ما حاق بهم من أذى على يدي محمد ، واظهروا رغبة أكيدة في رد عدوان قريش ، ومع ذلك فقد أبى محمد الا أن يسلموا او يعودوا ، فعادوا ...

— « ماذا كسب محمد من وراء ذلك ؟ ؟ »

قالت زوجه :

— « ان للقائد أن يختار الجنود الذين يثق فيهم ، ويرتاح لايمانهم وخبرتهم ... »

قال عبد الله في ثورة :

— « الوقت ليس وقت اختيار يا حمقاء ... ان أمن المدينة على شفا الهاوية ، والدمار الشامل يكاد يحيق بها ، والقائد الألمعي هو الذي يعرف كيف يحشد كل الطاقات لكسر شوكة العدو في الظروف العصيبة ... »

قالت زوجه :

— « ولم لا تقول ان القائد الألمعي هو الذي يعرف كيف يختار جنوده المؤمنين به وبرسالته ؟

وعاد عبد الله يقهقه في سخرية :

— « هؤلاء الجنود المؤمنون قد تركوا مواقعهم فوق الجبل، وتسابقوا لجمع الغنائم، فأحاطت بهم قريش من كل جانب، وأذاقتهم مرارة الهزيمة ... أهذه هي الألمعية ؟ ؟ »

— « انك تعرف يا عبد الله كيف تدير دفة الحديث، وكيف تحقر أفكاري ثم تسفهها ... كل ما أعرفه هو أن محمدا يتصرف بحكمة، ويخطو في حذر، ويستلهم الله في كل حركاته وسكناته ... والله لن يضيعه ... »

وتذكرت فجأة ما قاله زوجها منذ لحظات، فهو يزعم أن محمدا قد قتل، وقتل معه غيره من أصحابه، ان هذا الخبر وحده كفيل بأن يحطمها، ويزلزل فكرها، ومع ذلك فقد مضت في حوارها مع زوجها، ان هاتفاً داخلياً يؤكد لها ان محمد ا حي يرزق، وان رواة الاخبار يكذبون، لسوف تخرج إلى باب البيت، وتسأل عن محمد، وارتدت ملابسها، واسدلت قناعها على وجهها، وعزمت على الخروج، فقال زوجها :

— « إلى أين ؟ ؟ »

— « أسأل السائرين في الطرقات عن أنباء محمد »

— « أنا لا أكذب ... »

— « لكن رواة الأخبار قد يكذبون يا عبد الله ... »

— « أحرى بك أن تسألي ولدك الذي يحارب إلى جوار محمد ... »

وجدت الشارع يموج بالاطفال والنساء والرجال، وسمعت من يقول ان محمدا عائد إلى المدينة ليلم الشمل ويعيد تنظيم قواته، ليستأنف المعركة من جديد ...

صاحت في فرح :

— « ألم يقتل محمد ؟ ؟ »

رمقتها العيون في عتاب، وهمس رجل :

— « زوجة ابن أبي تظن أن محمداً قتل ... أليست هذه هي أمنية زوجها ؟ ؟ »

وصاح رجل بأعلى صوته :

— « ان الرسول بخير، وأبا بكر بخير ... وعمر بخير ... وقد استشهد حمزة ... »

وتبللت عيناها بدموع الفرح، وهتفت :

— « حمدا لله على نجاتك يا رسول الله ... »

ثم عادت تسأل :

— « وهل يعود الرسول وجنوده لاستئناف الحرب فعلا ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « مرحى ... مرحى... ان ذلك يعني أنهم بخير ، وأنهم أقوى من الهزيمة والغدر... »
وجرت إلى الداخل مهرولة ، فتعثرت في ثيابها الضافية وانكفأت ، ثم نهضت ، وهي تصيح :

— « يا عبد الله ... يا عبد الله ... ألم أقل لك ؟ ؟ ان محمداً بخير ... وكذلك عمر وابن أبي قحافة ... انهم يستعدون لمواصلة الحرب ... »

خرج من حجرته بوجه محتقن مكفهر ، وقال في دهشة :

— « ماذا ؟ ؟ من أين أتيت بهذا الكلام ؟ ؟ »

— « اخرج إلى الشارع لترى العجب ... ان الرسول يحشد قواته من جديد ليعود لحرب قريش ... »

قال في شرود :

— « يعود إلى حرب قريش ؟ ؟ هل هذا معقول ؟ ؟ هل بقي في المسلمين ثمالة أمل ، ونفحة رجاء ، ونبض ثقة ؟ ؟ ان العودة إلى الحرب تعني انهم ما زالوا أقوياء ، وان الهزيمة لم تؤثر فيهم ... لكن العودة للحرب في اليوم التالي للمعركة جنون مطبق ... »

●

وفعلا أخذ المسلمون يستعدون للقاء المشركين من جديد ، كان الرسول يرى ان يستأنفوا المعركة فوراً دون ابطاء ، فقد رأى في عيون الجند ، وعلى ملامحهم سيما الاصرار والثقة والتضحية ، ثم ان رضوخه للهزيمة ، وانتظاره لقريش كي تدهمه في عقر داره بعد أن نالت ذلك النصر الساذج ، أمر لا يمكن قبوله ...

وأدرك عمر ما يدور في ذهن الرسول ، فقال لمن حوله :

— « لسوف نعود لحرب قريش بإذن الله ، اننا أقوى من الهزيمة الطارئة ، وإننا نستعصي على أحقادها وتدابيرها ، ان ما جرى ابتلاء من الله ، وسننهض من هذه الكبوة ، لنواصل النصر الذي وعد الله به عباده المتقين... لن نستسلم او تخور عزائمنا ، او يهد من ايماننا سقوط اخوة لنا شهداء ، في ميدان الجهاد والشرف ... ان عودتنا إلى النضال سوف تدفن فرحة

الأعداء قبل ان تنمو، وسوف تلقي في روع المنافقين والمشركين واليهود اننا لم نزل أقوياء، وان المجال لن يُفسح أمام تآمرهم ودسائسهم ... إلى المعركة من جديد ... »

وسمع عمر رجلا عليه غبار السفر يقول :

— « قدمت من مكان تجمع فيه قريش رجالها وحديدها ... جاءهم مدد ضخم من مكة ... لم يقنعوا بالنصر الذي حققوه، انهم يأبون الا القضاء المبرم على المسلمين وخاصة عندما علموا بنواياكم ... أتيت ناصحاً مخافة ان تقعوا في كمين قاتل ... خذوا حذركم ... وتجنبوا الصدام ... »

تداول المسلمون الرأي، ونظر الرسول إلى الأمر في تبصر، واجمعوا على أن يبرزوا لقريش وهم في كامل استعدادهم واصرارهم على الاستشهاد، لكي تكون كلمة الله هي العليا ... ورفع عمر وجهه إلى السماء، واخذ يتمتم ... إلهي ... لولا هداك ما اهتدينا ... إلهي انت تعلم اننا لم نبدأ بعدوان، ولم نخرج لطمع، ولم ننهض لظلم، ولا نتعشق الحرب او سفك الدماء ... اننا يا إلهي نبذل النفس والنفيس من أجل رضاك ... فلتأخذ اللهم بأيدينا إلى طريق الحق والنصر، انك على كل شيء قدير، وبالاجابة جدير ... »

ولما علم عبد الله بن أبي بنية المسلمين، واستعدادهم للخروج، عجب غاية العجب، وقال لنفسه: « ان محمداً ورجاله يذهبون إلى حتفهم بأنفسهم، ويلجون في العناد والمكابرة، فلو برزوا لقريش لأصابهم شر مستطير فلا تقوم لهم قائمة بعد اليوم، ولو كنت مكانهم، لاعتصمت بالحذر، ولجأت إلى الحيل والدهاء، وقدمت لقريش من التنازلات ما يجعلها ترجع عني ... اما اندفاع عمر، وحماسته المفرطة فستجر المسلمين إلى الوبال ... »

وخرجت جنود المسلمين، وهم من حضروا أحداً فقط، ومضوا إلى « حمراء الأسد » في الطريق بين مكة والمدينة، وهي تبعد ثمانية أميال عن المدينة ...

وأخذوا يستعدون للقاء قريش ...

لكن قريشا كانت قد فرحت بنصرها المبتور الساذج، ورجعت إلى مكة لتزف البشرى وتقيم الأفراح ...

وبقي الرسول وأصحابه أياماً ثلاثة، وعندما تيقنوا من خبر رحيل قريش، عادوا إلى المدينة، وهم أحسن حالاً وأقوى شكيمة، ولم تستطع الأحداث الجسام، ولا الهزيمة الطارئة، أن تنال من ايمانهم، او تزعزع من ثقتهم بالله ورسوله ...

الفصل السابع عشر

استمد المسلمون من الهزيمة قوة دافعة، فأخذوا يتدارسون أخطاءهم، ويناقشونها في وضوح وصراحة، وعادوا لتجميع قواهم، واستكمال استعداداتهم، ولم تنم عين الرسول عن مراقبة ما يجري حوله من انتقاضات يقول بها المنافقون واليهود، ومن تحلل من العهود ترتكبها بعض القبائل المجاورة، وخاصة تلك القبائل التي علمت بما جرى يوم « أحد » ففكرت في مداهمة المدينة، والاستيلاء على ما فيها من أسلاب، لكن الرسول أخذ يرسل السرايا والعيون إلى تلك القبائل مثل قبيلة بني أسد، وبني لحيان من هذيل، ويسدد اليهم الضربات القاصمة قبل ان ينقضوا عليه.

وذهل اليهود والمنافقون، وهم يرون بأعينهم ان محمداً أقوى من الانحدار، وفوق النكبات الطارئة، وأنه – هو ورجاله – أقوى مما يتصورون، وأن فناء الدعوة الاسلامية، والقضاء على رجالها حلم لن يتحقق لهم، وليس في الامكان الآن – على الأقل – ان يحرضوا قريشا على حرب جديدة، ان قريشا ما زالت تتغنى وتنشد الاشعار لنصرها في « أحد »، والمعركة كلفت قريشا الكثير من المال والعتاد وبعض الرجال، فليس من المعقول ان تعود إلى الحرب بسرعة، فضلا عن أن هزيمة المسلمين هزيمة ماحقة أمر يحتاج إلى وقت وجهد ومال كثير، لهذا عقد اجتماع حاسم في مكان « يهود بني النضير » – ضاحية من ضواحي المدينة – وحضر هذا الاجتماع كبير المنافقين عبد الله بن أبي، وحيي بن أخطب الزعيم اليهودي المعروف، مندوباً عن يهود بني قريظة، وعمرو بن جحاش، من كبار يهود بني النضير، وفي هذا الاجتماع الحاسم، تدارس المجتمعون أمر المسلمين على ضوء الاحداث الجديدة، وما يجب عمله في تلك الفترة الحاسمة قال حيي بن أخطب:

– « أرى أن معركة أحد، وما انتهت اليه، لم تحقق ما كنا نحلم به من آمال، لقد استطاع المسلمون ان يخرجوا من المأزق الحرج بخسائر لا تزيد عن العُشْر، بل لعل انسحابهم بهذه الخسائر القليلة، يعتبر نجاحاً كبيراً، لقد أخطأت قريش حين ظنت ان الهزيمة العسكرية البسيطة هي الهدف الأكبر، ان الوجود الاسلامي لن يخلصنا منه كسبنا لبعض المعارك، وانما يُقضى على هذا الوجود تماماً بهزيمة ماحقة، فكيف يكون ذلك ؟ ؟ »

قال عبد الله بن أبي :

— « أعتقد أنه لا يمكننا أن نعيد الكرة ، ونجند الجنود ، وندفع قريشا لحرب محمد من جديد قبل عام على الأقل ، وخلال هذا العام قد يستطيع محمد اعادة تجميع قواته وتدريبها ، كما يستطيع ان يفكر بهدوء ، وان يتصيد القبائل الخارجة على ارادته ، تلك التي نقضت العهود ... فالوقت اذن ليس في صالحنا ، وكذلك لا نستطيع التعجيل بحرب مدمرة ... »

قاطعه حيي بن أخطب قائلا :

— « ذلك هو الموقف ، فكيف السبيل لضرب محمد ؟ ؟ »

تدخل « عمرو بن جحاش » قائلاً :

— « لم يزل ثأر كعب بن الأشرف يلح علينا بأخذه ، ولم تزل مأساة يهود بني قينقاع في حاجة إلى من ينتقم لها ، واذا لم نبادر بفعل شيء حقيقي ، فسوف يتمادى محمد في الاستهانة بنا ، واصطياد المناوئين له من رجالنا ، ومن يدري ، فقد يصيبنا ما أصاب يهود بني قينقاع ... أيها الأصدقاء ... ما دمنا غير قادرين على جمع جيش جديد ، واشغال محمد بمعركة أخرى ساحقة في هذا الوقت ، وما دمنا نرى ان الوقت ليس في صالحنا ، فليس هناك غير شيء واحد ممكن عمله الآن ... »

قال حيي بن أخطب ، وعبد الله بن أبي في صوت واحد :

— « ما هو ؟ ؟ »

— « هذا الشيء لن يكلفنا حشد جيوش ، ولن يحتاج لوقت طويل ، أترانا لو استطعنا ان نقهر الاسلام والمسلمين دون جيش لجب ، وبلا وقت طويل أفلا نكون قد بلغنا ما نحلم به ؟ ؟ »

ابتسم عبد الله بن أبي في دهاء ، وكأنه يعلم ما يجري في رأس « عمرو بن جحاش » وقال في هدوء من يدرك الحقائق :

— « تريد أن توضح لنا الأمر ... »

تربع عمرو ، وقال :

— « لا بد من قتل محمد ... »

هتف حيي بن أخطب :

— « قتل محمد ؟ ؟ » يا لها من كلمة سهلة ! ! وما أخطرها عند التنفيذ ... » لم يعر عمرو بن جحاش كلامه التفاتاً ، ومضى يقول :

— « عندما يموت ... ينتهي كل شيء ... سوف يتمزق المسلمون أيدي سبأ، ولسوف يفر المهاجرون بجلودهم قبل أن يريق الانصار دمهم، وسينسى العرب قرآنهم وأيامهم الحالكة السواد ... وسيهرب ابن الخطاب — ان نجا — إلى بادية من البوادي، متخفياً في زي امرأة يلوك أحزانه وخيبة أمله ... وعندئذ يعود يهود بني قينقاع إلى ديارهم ويهدأ كعب بن الأشرف في قبره، ويطمئن اليهود على مستقبلهم وعقيدتهم، ويعود لرجالات المدينة أمجادهم القديمة، وينشر النظام والسلام رواقهما على أراضينا العزيزة ... أيها الأصدقاء ... عندما يموت محمد، فسينطفيء النوار الذي يشع في قلوب المؤمنين من أتباعه، وسيبطل سحر كلماته . وينهار ذلك الرباط المقدس الذي يربط بين هؤلاء السذج والبلهاء ... أجل يموت محمد، فتموت دعوته ... وهل تكمل رسالة من الرسالات بدون نبي ؟ ؟ ذلك هو الحل، ولا حل غيره ... »

وساد الصمت، وأخذ الرجال يمحصون تلك الكلمات الخطيرة، وكان حيي بن أخطب أكثرهم قلقا، ماذا لو فشلت المؤامرة ؟ ؟ لسوف يمزق محمد يهود بني النضير شر ممزق، وينكل بهم تنكيلا شديداً، وسوف يكون له الحق في ذلك، ألم ينقضوا العهد ؟ ؟ ألم يبدأوا بالعدوان ؟ ؟ ألم يحاولوا قتل محمد وقد أعطوه الأمان ؟ ؟ كل هذه الاسئلة ستدور حتما في ذهن الناس اذا فشلت المؤامرة، وسيجد محمد فيها التبرير الكافي للقيام باجراءات الأمن الضرورية لحمايته وحماية المسلمين، وله في ذلك الحق كل الحق، لقد فشلنا في القضاء على محمد رأيا برأي، وحجة بحجة، لم نستطع أن نسفه عقيدته، أو ننال من مبادئه الواضحة، فاذا ما ترك الأمر للحجة والرأي، فسيكسب الجولة، واذا امتد الوقت بتفوقه في طرح حججه، وابداء آرائه، فسيندفع اليه العرب مجنونين بحبه، متلهفين لدعوته، مضحين بأرواحهم وأموالهم في سبيل عقيدتهم، عند ذلك يندثر مجد اليهود، ويذوب سلطانهم ونفوذهم، ويكون ذلك ختاماً مروعاً لقصة بني اسرائيل المجيدة ... أجل ان قتل محمد ضرورة دينية ودنيوية بالنسبة لنا معشر اليهود، ما في ذلك شك، على أن تكون النتيجة مضمونة تماماً،

وكيف تكون مضمونة ؟ ؟ كيف ؟ ؟

واتجه اليهم حيي بن أخطب ببصره قائلاً :

— « فكرة رائعة، لكن من يضمن لنا نجاحها ؟ ؟ »

قال عمرو بن جحاش صاخباً :

— « ما هذا الجبن يا حيي بن أخطب ؟ ؟ دائماً تخافون من الاقدام، لو فكر محمد في النتائج كما نفكر نحن الآن، لما خاض معركة بدر ، ولما عاد منها منتصراً بعد أن مرغ شرف

قريش في الرغام، ولو خاف محمد من الفشل لما طرد يهود بني قينقاع ، ولا انتقم من كعب بن الأشرف، ولما واجه قريشا وهو في جيش من سبعمائة، واعداؤه يربون على الثلاثة آلاف ... »

قال عبد الله بن أبي بعد أن طال صمته :

— « صبراً صبراً أيها الرفاق، انكم تتحدثون وكأنكم وحدكم في الميدان، نسيتم اخوة لكم بالمدينة، يحفظون ودكم، ويذكرون حلفكم القديم، انهم يتظاهرون بالاسلام، بل ويخوضون المعارك إلى جوار محمد، لكنهم يتوقون للخلاص منه، واستخلاص « مدينتهم » العزيزة من يديه، وعلى استعداد تام لأن يوأزروكم عند الشدة، ويضحوا بأنفسهم عندما يجد الجد، وتحين ساعة التضحية ... »

قال حيي بن أخطب :

— « ما كنت جباناً في يوم من الأيام، ولن استسلم لمحمد، أو أكف عن حربه حتى ولو كنت وحدي في بلاد العرب كلها ... انني أعرف سلفاً ما ينتظرني من مصير ، لن أهادن محمداً، ولن أستسلم له حتى الموت ... تلك هي العقيدة التي آمنت بها، غير أن هذا لا يمنع أيها الرفاق من حساب كل شيء بدقة، والاستعداد لكل طارىء، والتفكير فيما يجب عمله عند النصر وعند الهزيمة ... أتسمعون ؟ ؟ عند النصر وعند الهزيمة، ومن لا يفعل ذلك فهو عابث تافه، أو متآمر ضد مصلحة نفسه وأرضه ودينه ... أما وأن عبد الله بن أبي يزعم لنا أن هناك رجالا داخل المدينة، يحفظون الود القديم، ويبدون استعدادهم لموأزرتنا، فلسوف يكون ذلك عملاً رائعاً بحق، وسنحاول جاهدين ازاء هذه الظروف أن ننفذ فكرة القضاء على محمد شخصياً، فيتشتت رجاله، ويفسد تدبيره، ان محمدا مصدر الفكر والوحي والعقيدة، فاذا ما انتهى أمره انقطع رفد الموءمنين، وذبلت أغصان الشجرة الوارفة الظلال بعد أن قطعت جذورها ومنع عنها الماء مصدر الحياة والنضرة ... »

أشار عبد الله بن أبي بيده وقال :

— « والآن استمعوا إليّ جيداً ... ما لكم تلفون وتدورون، وتحاولون ابداء المبررات والأسباب التي تدفعنا لقتل محمد ؟ ؟ إنكم تثرثرون كثيراً حول هذا الموضوع ، وكثرة الحديث عنه توحي بالتردد والخوف... والآن اصغوا لي ... محمد قادم اليكم غداً ... بعد ساعات سيكون هنا بين أظهركم ... »

صاحوا في صوت واحد :

— «كيف ؟ ؟ »

— « تعلمون أن أحد المسلمين قتل رجلين متعاهدين خطأ ... »

— « أجل ... نعلم ذلك ... وهذه فرصة أخرى لاثارة العرب ضد المسلمين واظهارهم بمظهر القتلة وقطاع الطرق ... »

قال عبد الله :

— « لقد فات الأوان، اعترف القاتل بخطئه، وأبدى الأسباب التي دفعته إلى ذلك وهي أسباب وجيهة، وقرر الرسول دفع دية القتيلين نيابة عنه ... وهذا هو بيت القصيد، لسوف يأتي محمد اليكم غدا للاستعانة بكم في المساهمة في جمع المال اللازم لدفع الدية... هذه هي الظروف المناسبة لاغتياله ... أنا معكم بأن قتله سوف يثير ضجة في البداية، لكن لا تنسوا أنه سيكون بين أظهركم ، وسيكون معه نخبة من أصحابه، وفي الامكان القضاء عليهم هم أيضاً ... ستضربون عدة عصافير بحجر واحد ... فاذا ما حاول المسلمون التجمع لضربكم ... ستكون هناك بعض التضحيات والاشتباكات التي لا مفر منها، تلك التي تعقب الضربة القاضية ... لكنها ستكون أشبه برقصة الذبيح... ستندلع فتنة قصيرة الأمد، وسيكون وقودها المسلمين أنفسهم ... »

لم يعلق أحد من السامعين، كان حيي بن أخطب، وعمرو بن جحاش، وغيرهما من اليهود يريدون قتل محمد باحدى طريقتين، الاولى ان يكون ذلك بيد واحد من رجال عبد الله بن أبي المنافقين، فيجنون بذلك نصراً لم يبذلوا فيه قطرة دم واحدة، وهذه بالنسبة لليهود أفضل وسيلة، أما الطريقة الأخرى، أن تدبر مؤامرة، لا مانع من أن يشارك فيها اليهود، على أن يقتل محمد في خفية تحت جنح الظلام، بحيث لا يرى الجناة أحد ، حتى تتخبط الآراء بين المسلمين، وحتى لا يعرفوا أين تتوجه ضرباتهم ... لكن عبد الله بن أبي يرى شيئاً آخر ... يريدهم أن يرتكبوا الجريمة في وضح النهار، وفي منازل بني النضير أنفسهم، ولعل عبد الله بن أبي أدرك ما يعتمل في نفوس اليهود من تردد ، فقد قال :

— « انني أعني ما أقول، أؤكد لكم أننا سنخوض المعركة إلى جواركم ، وسنحمي ظهوركم ، ولن تطولكم أيدي المسلمين ، حتى ولو فشلت المؤامرة، ولكننا واثقون من النجاح ان شاء الله ... ان العمل بيننا قسمة، ولديكم من الأقوات والماء والحصون والسلاح ما يدعم لكم الحماية الكاملة . في أرضكم ، ولدينا من المال والعيون والرجال ما نستطيع به اتلاف جيش يبلغ أضعاف أضعاف جيش محمد ... ففيم التردد ؟ قال عمرو بن جحاش في إصرار وعناد :

— « انها فرصة نادرة ولن نضيعها ... سيكون لنا الفخر أبد الدهر اذا سال دم محمد

وعمر وأبي بكر وعلي على ثرانا ... وسيعلو شأن بني النضير ... وسترتفع قيمتنا بين العرب، وسنثأر للمطرودين ولكعب وللعقيدة أعظم ثأر وأروعه ... انني جد موافق على هذه الفكرة ... »

هتف عبد الله بن أبي في فرح :

— « وعلى استعداد أن تنفذها بنفسك ... »

قال عمرو بن جحش مؤكداً :

— « أجل ... بنفسي، وأقسم بالله ألا أتزحزح ... وليكن ما يكون ... »

وأطلت امرأة برأسها من كوة بالجدران، وصاحت :

— « ماذا تفعلون أيها الأغبياء ؟ ؟ »

وطنت كلمة « الأغبياء » في آذانهم فبعثت القشعريرة في أجسادهم، وملأت نفوسهم بالحنق والضيق، ورفع عبد الله بن أبي بصره إلى أعلى، فوقعت عيناه على العينين الواسعتين الجميلتين، والشعر الأسود الفاحم، والوجه البض الشاحب، وتمتم في دهشة :

— « من ؟ ؟ اليهودية ؟ ؟ ما الذي أتى بها إلى هنا ؟ ؟ ألم ترحل مع يهود بني قينقاع ؟ ؟ وجاءه صوتها مرة أخرى :

— « أنتم تلعبون بالنار ... لم تجربوا بعد ما جربه بنو قينقاع وهم يسيرون في الصحراء الحارقة يبحثون لهم عن مأوى يأوون اليه، او ظل يتخففون تحته من العذاب والظمأ والضياع. أيها الرجال ... كفى عبثاً، وابحثوا عن حل آخر عميق ورصين ... هذه أفكار متعفنة فجة لا تقدم ولا تؤخر... هل تذكرون؟؟ لقد استطاع يهوذا ان يتآمر على عيسى ابن مريم... ماذا كانت النتيجة بعد أن اختفى عيسى ؟ ؟ ازداد عدد المؤمنين به، وانتشرت دعوته في كل مكان، وان ابتليت بالحمقى او المخرفين او المنقحين من آن لآخر...

لن تعدموا من يحمل رسالة محمد بعد موته، ويطير بها في أرجاء الجزيرة العربية . . »

ملأ عمرو بن جحاش قبضته بقدر من التراب، وحساه في وجهها وهو يصيح :

— « اغربي عن وجوهنا أيتها المجنونة ... »

فابتعدت عن الكوة وهي تقول بصوت يسمعونه جيداً :

— « لقد بذلت لكم نصحي فافعلوا ما شئتم ... أنتم لم تجربوا حرقة الصحراء وعذاب الضياع ... لا تتباكوا بعد اليوم، فأنتم تخونون العهود، وتدبرون المؤامرات وتبدأون

بالعدوان، ولو استطعتم النجاح — برغم كل هذا — لمحا الانتصار سيئاتكم، وعفّى على غدركم ... لكنكم تفشلون ... تفشلون ... دائماً ... »

وبسط الصمت رواقه بضع لحظات، وتمتم حيي بن أخطب :

— « ما الذي أتى بها إلى هنا، لقد هربت من قافلة بني قينقاع، وأتت الينا في بني قريظة ... وجدناها في حالة صحية سيئة، كانت جائعة ملتاثة العقل، تهذي بكلمات غريبة ... فبذلنا لها الكثير من الرعاية حتى كادت تشفى مما أصابها ... »

هز عمرو بن جحاش رأسه قائلاً :

— « لقد قدمت إلى هنا عقب مجيئك بساعات يا حيي »

— « ولماذا لم تخبرني بذلك يا عمرو ... »

ابتسم عمرو في خبث وقال :

— « لقد أكرمت وفادتها في بيتي، وحققت لها رجاءها في ألاّ أخبرك بحضورها، أتراني قد جانبت الصواب ؟ ؟ »

قال عبد الله بن أبي :

— « انني أعرفها جيداً، لقد فشلت في استدراج عمر بن الخطاب لشباكها، ولم تنجح في أية مهمة أوكلت اليها ... انها لا تحسن سوى تسوية الفراش، والمشاركة في السمر ومقارعة الكؤوس ... »

ولم يعلق أحد بكلمة واحدة ...

الفصل الثامن عشر

النخيل الخضراء تنصب هاماتها دونما حركة تذكر، وكأنها ترقب ما يجري من أحداث بعين يقظة متلهفة، والشمس تطل من أفقها العالي، وتسدد إلى الوجود أشعتها الحارقة التي تميض بالنور والحياة، ومساكن بني النضير ومضاربهم تقبع في انتظار مشوب بالقلق، وعمرو بن أبي جحاش يذهب ويجيء في حركة عصبية مريبة، إن وجهه الشاحب، وعينيه القلقتين توحيان بما يعتلج في قلبه من توجس وارتباك وتمزق، ويهمس من خلفه صوت يعرفه :

« أتخاف يا ابن جحاش »، فتتصلب تعبيرات وجهه، وتنطلق من عينيه نظرات ساخطة عاتبة، ويتمتم : « لا كنت، ولا طلعت علي شمس يوم أجبن فيه عن لقاء محمد والقضاء عليه » . ورجالات بني النضير يختلسون النظرات، وهم واجفو القلوب، مرتعدو الفرائص، ويقول أحدهم : « لو جاءت الضربة محكمة، لانتهى كل شيء على الوجه الأكمل » وكان في النية، أن يتجه بضعة من الرجال من أمهر المحاربين للانقضاض على محمد وصحبه، وتمزيقهم شر ممزق ...

وفي أحد البيوت شبه المهجورة، على أطراف بيوت بني النضير، قام بضعة رجال بالحراسة وفي الداخل توجد امرأة مقيدة بالحبال في ساقيها ويديها، ولا تكاد المرأة تكف عن السب واطلاق الصيحات :

— « أيها الأوباش، ماذا تفعلون ؟ ؟ أنتم لم تذوقوا ما ذقناه، ولم تجربوا مرارة الضياع الذي شعرنا بـه، ونحن نترك الارض التي نشأنا عليها، وترعرعت آمالنا فيها ... أنتم هنا تعيشون بين الماء والنخيل والظلال، وتشربون اللبن وتغتسلون وتمرحون ... لكن لا تعرفون كيف كان مصير بني قينقاع ... إنكم ترتكبون اليوم نفس الحماقة ... أيها الأغبياء يا حثالة بني اسرائيل ... ما أصابكم ضر . ولا لحقت بكم كارثة الا وكنتم المسؤولين عما جرى لكم ... ان تصرفاتكم البلهاء تجر عليكم الوبال دائماً ... أترى كانت الخسة والنذالة لصيقة بجنس دون جنس، أو بعنصر دون عنصر ؟ ؟ لا أظن ذلك، إن تشابهكم في السفالة ليس مرده عنصرنا اليهودي فحسب، ولكن مرده للأفكار الدينية المزيفة التي نرضعها مع ألبان الأمهات منذ الصغر ... ان المبادىء المنحرفة التي نتلقاها على

أيدي الأحبار والرؤساء والحكماء منا... هي المسؤولة عن تشويه معالم الحق في حياتنا... لماذا لا نظهر من جديد كأخوة للناس عامة ؟ ؟ لماذا لا نمتنع عن غمس أيدينا في القاذورات نحن شعب ممزق متسخ الروح والجسد... سيقتلون محمداً اليوم ... وعندما يسيل دمه، ستطوى صفحة أخرى من صفحات اليهود السوداء ... لن يكون هناك شيء اسمه بنو النضير ... أو في نفس الطريق سنسير ... الطريق الذي سار فيه بنو قينقاع ... » وتدق اليهودية رأسها في الحائط، وتصرخ وتبكي، وتعود لكلماتها الثائرة :

— «كلما ذكرت بني قينقاع ، غلى الدم في عروقي ، وسالت دموعي ، ودق قلبي من الجزع والرعب ... يا لها من لحظات ... في بعض الأوقات كانت قطرات الماء أعز وأغلى ما في الوجود ... وفي لحظات أخرى كان الركون الى مسكن حيث الهدوء والدعة والظل ، حلماً من أجمل الأحلام... وفي بعض الأوقات يأخذ الحنين الى الوطن في الجيشان والتسلط ، فيطمس لذة الحياة ، ويقضي على كل معنى لها ... ويمضي الرجال في الطريق الحارق ... الجاف... وعدد من الأطفال والنساء ... يمضون حيارى تعساء ... أيها المجانين ! ! ماذا تفعلون ؟ ؟ ان قتل محمد خطيئة كبرى ، يا من تعيشون بعصبية البلهاء ، وأحقاد القبائل ... الأمر ليس أمر قبيلة أيها البهائم ... انني داعرة ... سكيرة ... عاشرت رجالاً من مختلف المشارب والأهواء واللهجات... وتعلمت الكثير ... رأيت عمر... وقابلته ، وانفردت به ... فوجدت صنفاً آخر من البشر ... احذروا يا أبناء اليهود ... أيها البهائم الضالة ... يا خراف بني اسرائيل الضالة ... اننا نحفر قبورنا بأيدينا ... واحذروا العاصفة... انها قد تقتلع كل ما انبتناه من زرع وضرع وبشر...

يا حكماء اليهود : انتم ملعونون ملعونون ... وعلى عاتقكم يقع الوزر الأكبر... هذه الأرض وسعتنا منذ مئات السنين ... منذ أن طردنا الرومان من الشام وغيرها ... فلم الغدر المقيت ؟ ؟ »

ويصيح بها أحد الحراس :

— « ألا تكفين عن الثرثرة ؟ ؟ لسوف نضطر إلى حشو فمك بالتراب أيتها المتمردة الجميلة ... »

— « أنتم ؟ ؟ يا حثالة الرجال ؟ ؟ إليّ بجرعات من الماء والا بصقت على وجوهكم ...»

وتمضي اليهودية في صخبها وسبابها ...

ويمضي عمرو بن جحاش في استعداداته، وانتظاره لمجيء محمد وصحبه ...

وهرول اليه أحد اليهود وارتمى أمامه وهو يلهث من شدة التعب :

— « يا ابن جحاش ... صعدت فوق نخلة عالية، ورأيتهم قادمين ... »

— « محمد ؟ ؟ »

— « أجل ومعه بضعة رجال ... »

— « أكانوا مسلحين ؟ ؟ »

— « لم أتأكد من ذلك، انني في الحقيقة لم أر بريقاً لسيف ... »

قال عمرو بن جحاش :

— « فلتنطلق ولتخطر رجالنا ... »

— « أنبدأ فوراً ؟ ؟ »

— « لا ... يجب ان يسترخي المسلمون في جلستهم، وأن يتحدثوا الينا حتى نوحي اليهم بالثقة والاطمئنان، ثم نأخذهم على غرة ... اذهب الآن ... »

ومضى الرجل تاركاً عمرو بن جحاش يفكر، ان نذر الخوف أخذت تتسلل إلى قلبه، ان عمرواً كان يشعر بقدر كبير من الشجاعة حينما كان حيي بن أخطب إلى جواره، كما كان يشعر بارتياح كبير لكلمات عبد الله بن أبي، ذلك الحلف غير المقدس الذي ربط بين اليهود والمنافقين ذو أهمية بالغة، وكلا الطرفين شديد الحرص على الحفاظ على هذا الحلف، لانه يحمي مصالحهما المشتركة، لكن عمرواً بن جحاش الآن يقف وحده بعد أن اختفى حيي بن أخطب قبيل الفجر، وبعد أن انصرف عبد الله إلى المدينة، انه يواجه الموقف الآن وحده، ماذا لو تخلى عبد الله عنه ؟ ؟ ماذا لو تملص حيي بن أخطب من عهده، حماية لقومه من يهود بني قريظة ؟ ؟ ان الموقف حرج دقيق، لعل اليهودية السجينة — التي رميناها بالتخبط والجنون أصدق الناس رأياً، وأبعدهم نظراً ... لكن لم هذا التردد والتخبط في ذلك الوقت العصيب ؟ ؟ أهناك فرصة للتراجع ؟ ؟ وبينما كان عمرو يصارع تردده وخوفه، جاءه الرجل الذي أرسله منذ فترة وجيزة إلى رفاق السلاح، وأخذ يقول دون مقدمات :

— « لقد أفسدوا تدبيرنا ... تهدم كل ما بنيناه »

صاح عمرو :

— « ماذا جرى ؟ ؟ »

— « ان الرجال رفضوا تنفيذ الأوامر، وداسوا الاتفاق »

— « انه الجبن والعصيان ... »

— « أجل ... اللعنة على هؤلاء الحقراء ... »

— « ليكن ... فلن أتراجع ... »

— « انك لا تستطيع أن تفعلها وحدك يا عمرو ... »

— « بل سأفعلها ... »

— « انه الانتحار بعينه، إن أيدي أصحاب محمد سوف تذود عنه السيوف، وسيلقون بأنفسهم فوقك، ولن تتمكن منه ... »

فكر عمرو برهة، أيلغي كل ما دبره ؟ ؟ أتضمحل كل الآمال والأحلام التي رسموها بالليل، وعقدوا عليها أماني الخلاص ؟ ؟

— « لسوف أمضي في الطريق ... لسوف أعد حجراً ضخماً وأقذف به فوق محمد وهو يجلس إلى جوار الحائط ... سيبدو الأمر مجرد صدفة ... انه حجر ثقيل ... لن أتراجع ... وليكن ما يكون ... »

•

وأقبل محمد ... ومن حوله صحابته ...

آلاف العيون خلف النوافذ الصغيرة، والأبواب، ومن فوق الأسطح ومن خلال كوّات الخيام المبعثرة ... آلاف العيون ترقب خطاه ... رجل بسيط طيب ... ينظر إلى الأمام، ويلقي السلام، ويبدأ بالتحية، وعلى سيماه حب ووضاءة واشراق ... أصحابه يفسحون له الطريق، ويرمقونه في حب، وينصتون إلى كلماته ... لقد سقطت حواجز القلوب، وتمازجت الأرواح، فبدوا وكأنهم يعيشون بقلب واحد ... هذا ما يفهم من نظراتهم وحركاتهم وكلماتهم ... لا يوحي مظهرهم بأدنى خوف ... مجرد حذر ... ينقلون خطاهم في ثقة ... ثم جاء عمرو بن جحاش وحوله طائفة من رجالات اليهود ... الابتسامات الماكرة بوميضها الأصفر تسبق كلماتهم، وعبارات التحية المليئة بالرياء والنفاق ... « أهلا بكم ... نزلتم سهلا وحللتم أهلاً ... نحن أهل كتاب مثلكم .. » وتدور المناقشات، لكن الرسول يرى أشياء لا يطمئن اليها قلبه ... حركات مريبة، همسات هنا وهناك، رجال يروحون ويجيئون، واشارات بالأيدي والعيون، وقسمات الوجوه ... وأحاديث عن حجر ثقيل يقذف من عل ... من مكان قريب ... وينصرف الرسول معجلاً قاصداً المدينة ... تاركاً أصحابه ... وأصحابه يظنون أنه قادم بعد فترة ... لكنه لا يعود ... ويعرف أصحاب محمد الحقيقة، فيمضون صوب المدينة للحاق به ... ويهتف عمر :

— « انها الخيانة ... »

ويتمتم علي بن أبي طالب : « يريدون قتل الرسول ... لكن الله سلّم ... »

ويهز أبو بكر رأسه في أسف : « انهم حريصون على نبذ العهود ... »

ويقول علي بن أبي طالب : « ترى ما موقف الرسول من هذا كله ؟؟ انه يعرف من قديم غدرهم ويلم بنواياهم ، لكنه يمد لهم في حبال الصبر والتسامح والغفران ... فالى متى يمضي في تلك السياسة ؟ ؟ »

ويرمي عمر بن الخطاب رجال بني النضير بنظرات عاتبة ، ويقول :

— « لماذا تفعلون ذلك ؟ ؟ »

فيرد أحدهم :

— « نحن لم نفعل شيئاً ، لا ندري ماذا تقصد ؟ ؟ اننا على استعداد للمشاركة في دفع دية القتيلين ... »

فيهز عمر رأسه حزيناً ويقول :

— « انما بغيكم على انفسكم ... »

ثم يستأنف المسير صوب المدينة وهو يقول :

— « ألا وإنّ لكل مجرم عقوبة ، ألا وان لكل متآمر جزاء ، ألا وان السكوت على هذا العبث ، وترك الحبل على الغارب لليهود ، انما سيجر على المدينة الوبال ، ويكلفها الكثير من التضحيات ، ويجلب عليها العديد من الكوارث ...

أرادوا قتل الرسول ... فماذا ينتظر الرسول بعد ذلك ؟ ؟ »

●

وفي ديار بني النضير ، وقف عمرو بن جحاش شاحب الوجه ، مرتجف الأوصال ، وحوله عصبة من اليهود قد طأطأوا رؤوسهم في أسى ، ثم صرخ عمرو بن جحاش في عصبية :

— « انكم لجبناء انذال ، ها قد انكشف أمرنا ، واطلع محمد على نوايانا ، أترونه تارككم دون عقاب ؟ ؟ أظنكم سوف تسلموني اليه ، وتقولون هذا هو الجاني ... أيها الجبناء ... لماذا لم تنقضوا عليه بسيوفكم ؟ ؟ انكم مترددون لا تعرفون ماذا تفعلون ، لسوف ندفع الثمن غالياً على الرغم من أننا لم نحقق أي كسب ... بل خسرنا ... أجل خسرنا كل

شيء ... لو كان الجبن ينجي من المهالك لكنت أول الجبناء، لكنه يجر إلى الهاوية ... انصرفوا عني أيها الحمقى .. انصرفوا قاتلكم الله ... »

بعد ساعات قليلة قدم رجل من المدينة، وتوسط ديار اليهود في بني النضير وأخذ يصيح بأعلى صوته :

— « يا معشر اليهود ... يا معشر اليهود ... بعثني رسول الله اليكم ... إليّ ... إليّ واستمعوا لرسالته ... يا معشر اليهود ... »

وأخذ اليهود يتوافدون من كل حدب وصوب، وقدم عمرو بن جحاش، وما أن احتشد عدد غفير من اليهود حتى قال مبعوث رسول الله :

— « ان رسول الله ارسلني اليكم، أن أخرجوا من بلادي، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم ما هممتم به من الغدر بي، لقد أجلتكم عشراً، فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه » . لكأن على رؤوسهم الطير، وعمرو بن جحاش يزداد شحوب وجهه، والنسوة يتحسسن آذانهن وأعناقهن، هل صحيح ما يسمعون ؟ ؟ أهكذا بسرعة يتركون الأرض والنخيل والحياة الجميلة والذكريات ؟ ؟ أيمضون في نفس الطريق الكئيب الطويل الذي سار فيه بنو قينقاع ... اللعنة على كل مثير للفتن، اللعنة على كل غادر بالعهد ... اللعنة عليك يا عمرو بن جحاش ... يا حيي بن أخطب ... يا عبد الله بن أبي ... اللعنة على جميع العابثين واللاهين بمصائر الخلق ...

وصاح مبعوث الرسول :

— « ماذا أنتم قائلون ؟ ؟ »

وصدر هدير صاخب، لم يستطع مبعوث محمد أن يتبين منه شيئاً واضحاً اللهم الا دمدمات الرعب، وغمغمات الأسى المكبوت، وصياح النسوة، ونباح الكلاب، وصراخ الأطفال ... وحاول عمرو بن جحاش أن يثور وأن يرفض الانصياع لمطالب الرسول، لكن صوته المبحوح ضاع وسط الهدير الذي ينشد السلامة، ويؤثر الرحيل على الفناء، او الاشتباك في معركة ميئوس منها ...

— « اذن فأنتم موافقون على مطالب الرسول ... »

— « أجل ... أجل ... أجل ... أجل ... »

انقلب هدوء بني النضير إلى ضجيج هائل ... الرجال يربطون الأحزمة والأحبال حول أمتعتهم، ويسرجون خيولهم، ويحشدون ما يحتاجون اليه من طعام وماء وملبس، والعذارى تتأرجح في عيونهن الدموع، والأطفال يتلفتون في حيرة، « لعنة الله عليك يا عمرو بن

جحاش ... » كلمة تهتف بها العجائز ، ويرددها العقلاء من الرجال ، ويتمتم بها الفتيان والفتيات ... « لعنة الله عليك يا عمرو بن جحاش » وتنتشر التعليقات المختلفة : « ماذا تنتظرون من رجل أردتم قتله ؟ ؟ ماذا تنتظرون من محمد بعد ما فعلتم به الأفاعيل ؟ ؟ ويقول آخر : « لم نتعظ مما جرى لبني قينقاع ، اننا نضيف غباء جديداً إلى غبائنا القديم » ويهتف شاب منتحب : « لمن نترك هذا النخيل ، وملاعب الصبى ، وأرض الأحلام والذكريات ؟ ؟ ان ما يحدث لنا تعبير عن غضب الله ... » وعمرو بن جحاش يقف جامداً ، يرقب الأحداث الخطيرة بقلب واجف ، وعين قلقة ، أين الرجال الذين تعاهدوا على نصرته ؟ ؟ أين حيي بن أخطب ، وأين عبد الله بن أبي ؟ ؟ أكان الأمر مجرد خدعة ومكيدة ؟ ؟

وفي المساء قدم عبد الله بن أبي ، قال عمرو بن جحاش :

— « هل آتيت ؟ ؟ لقد ردت الي الروح ... »

— « أو تظن أنني أترك في مثل هذه الأوقات الحرجة ؟ ؟ حقاً ... لقد كان فشلك فشلاً ذريعاً ، هذا الفشل احنقني ، وبعث الثورة والضيق في نفوس رجالي ، وكان هذا كفيلاً بأن انفض يدي من الأمر كلية ... لكني كظمت غيظي ، وتسللت تحت أستار الظلام ، وآتيت اليكم دون أن يعلم بي أحد ... وكيف أترككم تسقطون هكذا فريسة سهلة تحت أقدام محمد ؟ ؟ لقد أردنا كسره ولم نرد له انتصاراً كهذا ... والغريب أنكم سلمتم بكل مطالبه كيف ذلك ؟ ؟ »

قال عمرو بن جحاش في حسرة :

— « لقد كاد القوم يقتلونني ، بعد أن سلقوني بألسنة حداد ... وما كان في امكاني أن أقف في وجه الرغبة الجامحة في الرحيل ... »

قهقه عبد الله بن أبي ساخراً :

— « الرحيل ؟ ؟ هل جننت ؟ ؟ »

— « وماذا كنت فاعلاً يا عبد الله ؟ ؟ »

وامتعض عبد الله أشد الامتعاض ، وأخذ يتدارس الأمر مع عمرو بن جحاش ، وغيره من رجالات اليهود ، وبعملية حسابية بسيطة استطاعوا ان يستخلصوا عدة حقائق هامة ، أولها أن بني النضير لديهم من الأقوات والماء ما يكفيهم لمدة عام فيما لو حاصرهم المسلمون ، وأن لديهم من الحصون والموانع ما يعوق أقوى جيش عن التقدم ، وان استسلام بني النضير يعني انتصاراً لمحمد ، وكسباً لمزيد من الأرض والمواقع ، وتنبيهاً للقبائل المناوئة ان تستسلم هي

الاخرى، فاذا صحت هذه التقديرات فان على بني النضير أن يرفضوا رغبات محمد وأن يقاوموا أهدافه، ولا شك أن عاماً من المقاومة قد يعطي الفرصة لأعداء المسلمين كي يتجمعوا وينقضوا على محمد فيقضوا على قوته، وينقذوا اليهود من حصاره ...

وقال عبد الله بن أبي :

— « ان رجالي ينتظرون الأمر لخوض المعركة ضد محمد، وما عليكم يا يهود بني النضير سوى أن ترفضوا دعوة محمد، وأن تمتنعوا بحصونكم وقلاعكم وترفعوا راية المقاومة. »

وابتلع عبد الله ريقه، ثم استطرد :

— « ومع ذلك فلسوف نرسل الرسل إلى قريش وإلى القبائل المعادية لمحمد، حتى نأتيه من حيث لا يحتسب، وندك معاقله دكاً، وما يوم « أحد » منه ببعيد ... »

راقت الفكرة لزعماء اليهود، وتحمس لها عدد كبير من شبابهم، وحمل لواءها عمرو بن جحاش وأخذ يروج لها، ويبدو أن الارتباط بالارض، والألفة بين اليهود وبيئتهم، ومصير بني قينقاع وما تعرضوا له من تشتت وضياع، كل هذه الاعتبارات قد دفعت اليهود إلى التمادي في المغامرة، ورفض كل ما جاء في رسالة محمد عليه السلام، بل أرسلوا اليه من يقول في تبجح :

— « لن نخرج يا محمد، فافعل ما بدا لك »

ثم احتموا بحصونهم، ونقلوا الحجارة إلى شوارعهم، وأقاموا منها متاريس وخنادق للاحتماء وراءها في القتال، وكدسوا أرزاقاً تكفيهم لمدة عام في حصارهم، وكان الماء متيسراً لهم باستمرار، فتحرك المسلمون بقيادة الرسول إلى ديار بني النضير، فحاصروهم عشرين ليلة، كانوا أثناءها يحتلون شارعاً بعد شارع، وداراً بعد دار ... ولما رأى المسلمون اصرار اليهود على القتال مستفيدين من حصونهم القوية، بادروا بقطع نخل اليهود، حتى لا يبقوا على حماسهم في القتال، وكان لهذا العمل وقع سيء في نفوس اليهود قاطبة ...

هرولت اليهودية السجينة بعد أن أطلقوا سراحها، وأقبلت نحو عمرو بن جحاش وامسكت بخناقه قائلة :

— « ماذا جنيتم أيها العقلاء ؟ ؟ هأنتم ترون أن مجنونة مثلي كانت أصوب رأياً، وأبعد نظراً، منكم ... ان المسلمين يضيقون عليكم الخناق الآن، ولن ينفعكم الذي خزنتموه، ولا الماء الذي حافظتم عليه ... أنتم في الحصون، والمسلمون في الشوارع المكشوفة لكنهم يتقدمون، وينتصرون ... ولو بقيتم على وضعكم هذا لطالتكم سيوفهم أينما كنتم ... عند ذلك سيأخذونكم أسرى حرب، وسيضربون أعناق المحاربين منكم، وسيتحول نساؤكم إلى سبايا ... أيها الأغبياء ... ماذا تنتظرون ؟ ؟ أتظنون أن عبد الله بن أبي سوف

يأتي برجاله لنجدتكم كما زعم ... ان المنافق لدى المسلمين منافق هنا أيضاً ... المنافقون ليسوا رجالا يعتمد عليهم، وكيف تثقون في قوم يظهرون اسلامهم، ويخفون كفرهم وحقدهم، وهم يكرهون دينكم كما يكرهون الاسلام ... والله انكم لأقرب للاسلام منهم ... ان عبد الله بن أبي لن يأتي ... وان قريشاً لن تهب لنجدتكم ... وستقضون على أنفسكم بغبائكم ... »

وقدم شيخ عجوز وقال :

— « الحق ما قالت المرأة ... يجب أن ترسلوا الرسل إلى محمد ولتبحثوا عن حل وسط ... أي حل سيكون أفضل من الفناء التام وسبي النساء والذراري ... »

فردت اليهودية والدموع تطفح من عينيها :

— « يا للنكبة الكبرى ! ! قصة بني قينقاع من جديد ... الطريق الأسود المليء بالأشواك والرعب والظمأ والجوع والضياع ... ما أتعسنا وأشقانا ! ! »

لم يجد اليهود مفراً من أن يرسلوا إلى محمد، ويطلبوا منه الأمان على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة ...

ووافق الرسول على مصالحتهم، بشرط أن يخرجوا من المدينة، ولكل ثلاثة منهم بعير، يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ...

توارى عمرو بن جحاش خلف بعير، والدموع تنزف على خديه، ونظراته إلى الأرض، وما أن غادر المدينة حتى مد بصره إلى بعيد ... حيث الآكام والرمال والأفق الرحب الذي يتوهج بالضوء وحرارة الشمس ...

وصاحت اليهودية : — « واكرباه ! ! ! أنعود للعناء من جديد ... يا جنس العبيد ؟؟ »
ولم ير أحد وجه عبد الله بن أبي في ذلك اليوم، لقد لزم بيته، وجلس يفكر مهموماً، والغيظ والحقد يأكلان قلبه ... لكنه ما زال يفكر في خيانة جديدة ...

الفصل التاسع عشر

قال عمر لابنته حفصة :

— « ما أضخم المسؤوليات التي يحملها رسول الله على عاتقه ! ! ها هم بنو المصطلق يعدون العدة ، ويجندون جيشاً لجباً للهجوم على المدينة ، لماذا هذا الاعتداء ؟ ؟ نحن لم نؤذ بني المصطلق ، ولم نتعرض لهم بعدوان ، ان الرسول يا حفصة ينشد السلام والخير ، ويتمنى على الله آن يجد الحرية في أن يقول كلمة الحق ، وأن ينشر دعوته ، حتى تبلغ القاصي والداني ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، والرسول لا يكره أحداً على الاسلام ، « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني ... » تلك كلمات الله يا حفصة ... فلم تتضايقين يا ابنتي من أن الرسول مشغول عنك ؟ ؟ ماذا يفعل الرسول ؟ ؟ أيترك بني المصطلق يغزونه في عقر داره ؟ ؟ ان الرسول يريد السلام لبني البشر جميعاً ، لكن يبدو أن ارادة الله قد اقتضت ألاّ يستسلم الشر بسهولة ، وأن يرفع السيف في وجه الحق والخير .. هل من الضروري ان نصل إلى السلام والحرية والعدل بعد خوض أهوال من الصراع والدماء والسهر ؟ ؟ ولكن لله في خلقه شؤون ... »

خفضت حفصة رأسها في حياء وقالت :

— « بسم الله الرحمن الرحيم : « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى » صدق الله العظيم ... أجل ... فالرسول لا يصدر الا عن أمر إلهي ، ولا يخطو خطوة الا في سبيل الله والحق ، لكنني امرأة يا أبي ... وعائشة بنت أبي بكر ، تحظى من الرسول بعطف زائد ... »

صاح عمر في حنق :

— « أهي الغيرة الحمقاء يا ابنة عمر ؟ ؟ أتعترضين على تصرفات رسول الله ؟ ؟ من أنت حتى تبيحين لنفسك حق نقده ، والاعتراض على تصرفاته ... بخ... بخ... لقد نلت شرفاً لم ينله أحد من العالمين غير قليل ... قسما لو اتخذني رسول الله خادماً له لكنت أسعد البشر ... يجب أن تخضعي يا حفصة لرسول الله خضوعاً تاماً ... أنا نفسي حرضته على طلاقك لما تسببينه له من اعتراضات ... أتدرين ماذا قال ؟ ؟ لقد أوحي اليه أنك زوجته في الجنة ... يا لها من منزلة لم تنلها امرأة من نساء العرب قبلك ، ولن تنالها امرأة بعدك ... »

دمعت عينا حفصة وقالت :

— « انه لشرف عظيم حقاً يا ابتي ، لكن الرسول لا يضيق ذرعاً باعتراضاتنا كما تضيق أنت انه ينفسح لنا من صدره ، ويبيح لنا الرد والاعتراض ، ويطارحنا شتى ألوان الأحاديث »

— « انكن يا حفصة تستغللن حلمه، ورحابة صدره استغلالاً سيئاً ... »

— « حاشا لله ... انه حق أباحه لنا ... »

تنهد عمر في غير قليل من الارتياح ، وقال :

— « حسناً ... لتعودي تواً إلى الرسول ، وتجلي عن قلبه ما علق به من منغصات ، اني أريد أن يذهب إلى بني المصطلق ، دون أن تشوب مزاجه شائبة ... أتفهمين ؟ »

أطرقت في تواضع قائلة :

— « السمع والطاعة لكما يا أبي ... »

— « لرسول الله وحده ... »

في ساعات قليلة استطاع الرسول أن يحشد ألفاً من الرجال الأشداء ، يجب أن يحاصر الشر في وكره بل أن يدهمه ، وأن يقضي على الفتنة في مهدها قبل أن يستشري خطرها ، وفي ذلك توفير للجهد والتضحيات والوقت ...

وأقبل عبد الله بن أبي

ومال عمر على أذن أبي بكر قائلاً :

— « ماذا يريد هذا الرجل ؟ ؟ »

— « انه خارج معنا لحرب بني المصطلق ... »

— « كيف ؟ ؟ هل وافق الرسول على ذلك ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « هل نسيتم تدابيره الشيطانية ، وتحريضه لبني النضير ، وتأليبه الأعداء علينا ؟ ؟ إن وجوده بيننا أخطر على المسلمين من بني المصطلق أنفسهم ... إن صفح الرسول عن المجرمين يبلغ في بعض الأوقات درجة لا أقوى على احتمالها ... لو كنت مكان الرسول لضربت عنق هذا المنافق الأكبر ... »

كان الصحابة — وأبو بكر بخاصة — يجلون الرسول اجلالا لا قبله ولا بعده ، ويرون

أن أي قول يقوله، أو أي فعل ينتوي القيام به، فوق الشك والريب، لما حفّ به من العصمة عليه الصلاة والسلام ولهذا قال أبو بكر :

— « الرأي ما رأى الرسول يا عمر ... »

— « لكن الرسول يا أبا بكر يشاورنا في الأمر دائماً ... إلا ما يتعلق بهذا الرجل العنيد المكابر ... إنه حليف كعب بن الاشرف، وحيي بن أخطب، وغيرهما من زعماء اليهود. »
وأخذ عمر يزفر في حدة، ويرمق عبد الله بن أبي بنظرات حانقة، ولم يخف ذلك على عبد الله فقد كان يدرك ما يكنّه عمر نحوه من مشاعر، واقترب عبد الله من عمر في صفاقة وقال :

— « لماذا تنظر إليّ هكذا ؟ ؟ »

— « هل تؤلمك نظراتي الى هذا الحد ؟ ؟ »

— « انني أقرأ فيها أشياء لا تروق لي ... »

— « تماماً كما لا تروق لي تصرفاتك ... »

— « انك تتهمني دون بينة »

— « وهل تحتاج الشمس إلى بينة ؟ ؟ »

— « عمر ... حذار ... انني رجل مسلم مثلك ... »

وامتدت يد أحد الصحابة، وأمسكت بذراع عمر، وجذبته إلى الخاف، وقال الصحابي :

— « ان الرسول يريد لقاءك يا عمر ... »

وطول الطريق لم يرتكب عبد الله بن أبي مخالفة واضحة، ولم يتقاعس عن شعيرة من الشعائر، فما تخلف عن صلاة، ولا قصر في أي عمل يوكل اليه، ومع ذلك فان عمر كان يتابعه بنظراته، ويراقب تحركاته وسكناته، انه لا يطمئن اليه، ولا يثق فيه، على الرغم من تحذير الرسول له بعدم التعرض لابن أبي بأي أذى، وعلى الرغم من اصرار أبي بكر على نصح عمر بطاعة الرسول فيما يتخذه من قرارات، او يصدره من أوامر ... لأن عمر — وهذا حق — كان لا يرى شيئاً من التعارض بين الأمرين ...

وأحاط المسلمون ببني المصطلق عند ماء يقال له « المريسع »، فلم يفق بنو المصطلق الا والمسلمون يحيطون بهم احاطة السوار بالمعصم ... ولم تستغرق المعركة وقتاً طويلاً اذ هب بنو المصطلق إلى سيوفهم، وحاولوا ايجاد ثغرة ينفذون اليها في صفوف المسلمين فلم

ينجحوا ... وانجلت المعركة عن قتل مسلم واحد، وعشرة من بني المصطلق، ثم التسليم الكامل لأمر الرسول ...

•

قبيل الرحيل ازدحم رجلان من المسلمين حول الماء، وحدثت أخطاء غير مقصودة بينهما مما أدى إلى اشتباك بسيط، وصاح الرجل الأول — وهو أجير يقود فرس عمر بن الخطاب — « يا معشر المهاجرين ... النجدة ... »، فصاح الرجل الثاني :

— « يا معشر الأنصار ... »

رأى عبد الله بن أبي ما حدث ...

هذه فرصة ذهبية لن تتكرر، ان الرجال في أيديهم السيوف، وهم عائدون من النصر، وبأيديهم أيضاً السبايا والأموال، هذه فرصة ذهبية للايقاع بين المسلمين، وعبد الله يعرف أن هناك « مهاجرين وأنصار »، وأن هناك « أوس وخزرج »، لماذا لا يثير النعرات القديمة، ويمزق وحدة هذا الجيش ؟ ؟ لماذا لا يتحرك ؟ ؟ ان الفتنة الناجحة قد تكون أفعل من الجيوش المهاجمة، ومحمد الآن في عريشته بعيداً لا يرى شيئاً، وابن الخطاب هو الآخر إلى جوار الرسول، وتمتم عبد الله قائلاً : « ماذا جرى ؟ ؟ هؤلاء المهاجرون لا يكفون عن الطمع، ويعقرون اليد التي تقدم اليهم الاحسان، آريناهم آزرناهم، وافسحنا لهم من قلوبنا وبيوتنا وأموالنا، واعتنقنا دعوتهم، وحاربنا إلى جوارهم، وبذلنا النفس والنفيس من أجلهم ... فتآمروا علينا، واستبدوا بالسلطة دوننا ... ما كنت عبد الله بن أبي إن لم أشعل بينهم فتنة عمياء تقضي على وحدتهم وألفتهم، وتنسيهم النصر الذي حققوه على بني المصطلق، وتجعلهم لقمة سائغة لكل عدو طامع فيهم ...

ما كنت عبد الله بن أبي إن لم أنتهز هذه الفرصة ... »

وقال واحد من رجاله يقف إلى جواره :

— « بماذا تهمس يا عبد الله ... »

قال عبد الله موجهاً حديثه لمن حوله من الرجال، ورافعاً صوته حتى يسمعه أكبر عدد من الرجال المنحازين له :

— « أقول ... لقد كاثرنا المهاجرون في ديارنا، والله ما أمرنا واياهم الا كما قال الأول : سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ ... »

قال أحد المنافقين :

— « أجل ... الأذل هم المهاجرون، فلم لا نضرب ضربتنا الآن، وننشر أشلاءهم في عرض الصحراء، ونجعلهم عبرة لكل جاحد ... »

وأخذ المنافقون يتصايحون :

— « أيها الأنصار ... يا رجال الأوس والخزرج ... هلموا إلى المعركة الفاصلة دفاعاً عن حريتكم وكرامتكم ومدينتكم ... »

ابتسم عبد الله بن أبي في سعادة وهو يرى بعض الرجال يسلون سيوفهم، وينهضون للحرب، بينما سارع أحد الرجال المسلمين إلى الرسول يخبره بما حدث ...

واستشاط عمر بن الخطاب غضباً وهو يستمع لأنباء الفتنة الموشكة، فقال محتداً :

— « يا رسول الله، مر به عباد بن بشر فليقتله ... ان عبد الله بن أبي منافق غادر، ويريد أن يريق الدماء، ويشعل الفتنة بين المؤمنين ... »

قال الرسول في هدوء :

— « فكيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه ؟ ؟ »

وصمت عمر بن الخطاب، كان هائجاً مغتاظاً، ان عبد الله بن أبي معدود من أصحاب رسول الله، لكنه خان وارتكب حماقة كبرى، ولا يكف عن الافساد واثارة الفتن، فهل تبقى صحبته للرسول عاصماً له من وقوعه تحت طائلة العذاب؟ ؟ ان في ذلك خطراً كبيراً على مستقبل الدعوة، وأمن المدينة ...

ونهض الرسول وأصحابه من زعماء الأوس والخزرج والمهاجرين لينتشروا بين جنود المسلمين، ويقضوا على الفتنة في مهدها، وليعتبوا على ما صدر من عبد الله بن أبي، وكم كانت دهشة عمر بن الخطاب حينما سمع عبد الله بن أبي يقسم الأيمان المغلظة انه لم يتكلم بأية كلمة يشتم منها رائحة الفتنة، وأنه حريص على وحدة الصف، وتماسك المسلمين، وانه أغير على مصالحهم من أي انسان آخر .

وأخذ عمر يصر على أسنانه وهو يقول :

— « يا رجل ... اتق الله، ولا تحنث في قسمك ... »

— « انني لا أكذب يا عمر ... انني بريء من تلك الافتراءات التي يلصقها بي المغرضون، ان سبب الفتنة يا عمر هو أجيرك الذي نادى : يا معشر المهاجرين ... ولم يكن لي دخل بما حدث ... »

رماه عمر بنظرات حادة ... نظرات يعرفها عبد الله بن أبي، ويحسب لها ألف حساب...

— « لو كان الأمر أمري يا عبد الله لعرفت كيف أقلم أظافرك ... لكن لا مناص من طاعة الرسول الذي يأمر دائماً بالترفق بك، ويصر على العفو عنك، لكنك تستغل كرم الرسول وصفحه استغلالا بشعاً ... فلنترك أمرك لله ... »

ولكي يحسم الرسول كل خلاف، ويضع حدا للنقاش الصاخب، والجدل العقيم، ولكي يقضي على الفتنة قبل أن يستفحل أمرها، أصدر أوامره بالرحيل فوراً نحو المدينة، ولم يسمح للجنود بالراحة فترة طويلة، اذ انطلق بالناس طيلة يومهم حتى أمسوا، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، فلما نزل الناس لم يلبثوا حين مست جنوبهم الأرض أن ناموا من فرط التعب، وأنسى التعب المسلمين فتنة ابن أبي، كما استجابوا لكلمات الرسول الصادقة المؤثرة، ونصائحه المخلصة الغالية، وعادوا إلى المدينة ومعهم الأسرى والغنائم ...

ولم يكتف عبد الله بن أبي بما فعله، بل حاول جاهداً أن ينشر « حديث الافك » حول الرسول وزوجه عائشة، وخلفت أقاويله وأكاذيبه غباراً كثيفاً لف بعتامته جو المدينة، وأثار العديد من الشكوك والاضطرابات ... هذا المنافق الأكبر، سدد إلى صفحة الاسلام النقية، وإلى زعمائه الأجلاء طعنات قذرة ... وكان يحاول دائماً أن يدس في الظلام، فاذا ما ضاقت من حوله الدائرة، وحاصرته التهم، تنصل من خبائثه، وأنكر كل ما ينسب اليه ... »

وأخيراً نزل الوحي على الرسول، كاشفاً سر عبد الله بن أبي ومن معه موضحاً كل ما يدبره من مكائد ودسائس، فاسقط في يد الطاغية، توهم الجميع ان الرسول لا بد أن يحاكمه يصدر حكمه بقتله جزاء أفعاله الشنعاء.

وهرول عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى الرسول، وقال ورأسه منكسة، والدموع تتقاطر من عينيه :

— « يا رسول الله أنت تعلم حسن اسلامي ، وعظيم بلائي... يا رسول الله ... انه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي ، فان كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل اليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، واني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي انظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار »

فأجابه رسول الله :

— « انا لا نقتله، بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا ... »

وهز عبد الله رأسه وأخذ يتمتم : « انك رسول الله حقاً ... ان حلمك وسع الدنيا ، ولم يقصر دون العصاة المذنبين الذين أساءوا وأفسدا في الأرض ... والله ما أحب الينا أحد في الدنيا منك يا رسول الله ... »

وذهب عبد الله إلى أبيه، وطوال الطريق كان يفكر في أمره، لماذا ينسلخ عن الحق، وينحاز إلى الضلال والفتن ؟ ؟ أهو داء أصابه لا يستطيع له علاجاً، أم اصرار على الباطل بكامل وعيه وارادته ؟ ؟ ولماذا يفعل ذلك ؟ ان الرسول لم يسيء اليه، ولم يقابل جحوده ونفاقه بغير العفو والاحسان، ومحمد يدعو إلى الله على بينة، ويبسط مبادئه للناس دون غموض او انحراف، لا يرفع سيفا الا في وجه معتد، ولا يشن حرباً الا ليفتح الطريق أمام كلمة الله، ولا يظلم أحدا، ينصر الضعفاء، وينافح عن المساكين، ويدعو إلى النظام والعدالة والمساواة بين البشر، ويدعو الناس لعبادة الله وحده ...

أيكره أبي ذلك ؟ ؟ واذا كان له موقف معارضة فلماذا يلجأ إلى هذه الوسائل الدنيئة؟؟ لماذا لا يكشف عن طويته، ويقارع الحجة بالحجة، ويقيم على رأيه الدليل والبرهان ؟ ؟ أم انه يحقد لمجرد الحقد ... أترى ان صفاء المؤمنين، وعظمة مبادئهم، ونجاحهم في نضالهم يثير أحقاد المنحرفين والضالين من الناس . فبدلاً من أن ينصاعوا لكلمة الحق، ويقدموا كلمة الشكر الواجبة للمحسنين، يلجأون إلى الاساءة والدس ؟ ؟ ان أمر والدي محير غريب، يثير غيظي، ويؤلم نفسي أشد الايلام ... عندما وصل عبد الله إلى أبيه، وجده جالساً وحده يرتجف من الخوف والحيرة،

قال عبد الله لأبيه :

— « المدينة كلها تتحدث عن فعالك .. »

قال أبوه في شيء من الارتباك :

— « ومحمد ؟ ؟ »

— « انه أكبر من اساءاتك ودسائسك، مازال محمد مصراً على ان يترفق بك ويحسن صحبتك ما دمت مع المسلمين، على الرغم من أن الوحي قد نزل بإدانتك ... انه عار الأبد يا أبتي ... ان يدينك القرآن، ويصمك بالعصيان والانحراف ... كيف تمضي بين الناس ؟ ؟ كيف تحادثهم ؟ ؟ كيف تنكر كلمات الله التي أدانتك، والتي لا مجال لردها او مناقشتها ... »

قال الأب في حدة، وقد شحب وجهه وتقلصت عضلات وجهه :

— « ألزم حدودك يا فتى ... أنسيت أنني أبوك ؟ ؟ »

— « وهذا ما يعذبني ... انك أبي ... وأنت تعتنق الاسلام ... ولكنك تطعن الدعوة الاسلامية كأعنف ما يكون العدو الكافر ... لقد وضعت يدك في يد قريش واليهود والمنافقين ... ماذا بعد ذلك يا أبتي ؟ ؟ ألا ترعوي وأنت ترى الرسول يغمض العين عن مخازيك حتى بعد أن نزل بها الوحي ؟ ؟ »

هب أبوه واقفاً وصرخ في حدة :

— « أهذا ما تعلّمته من الاسلام ؟ ؟ أتقذف بهذه الكلمات البذيئة في وجه أبيك ؟ ؟ يا ليت أمك لم تلدك ! ! ان القرآن لم يذكر اسمي صراحة ...

سدد الابن اليه نظرات حادة ...

قال الأب : « إنها نفس النظرات التي يرمقني بها ابن الخطاب ... انني أكره هذه النظرات ... أتفهم ؟ ؟ »

— « أنت تعرف الحقيقة يا أبتي ... »

— « أية حقيقة يا فتى ؟ ؟ »

— « أنت تخطىء ... ولو استطعت خداع الناس جميعاً فلا يمكن أن تخدع نفسك .. كيف تقابل الناس بعد اليوم ؟ ؟ وكيف تلتقي بالرسول ؟ ؟

تمتم الأب في ضيق :

— « أنا لا أكره محمدا ... ان ما يثيرني هو هؤلاء القساة الذين يلتفون حواه ... خذ مثلا عمر بن الخطاب ... انه يحرض محمدا على قتلي ... كيف يبيح لنفسه أن يقول ذلك ؟ ؟ من هو ومن أنا ؟ ؟ لقد ناصرناهم وآويناهم بعدما ذاقوا الأمرين من قريش ونكايتها ... ان أكتافنا هي التي حملت أعباء هذا الدين ... »

— « أكتاف من ؟ ؟ »

— « الأنصار يا فتى ... »

— « ليس بالمدينة أنصار ومهاجرون ... بل بها مسلمون .. لم تزل تفكر يا أبي بعقلية الماضي ... ان الأنصار لا يوأزرون المهاجرين ... بل الجميع يتكاتفون من أجل اعلاء كلمة الله ... تلك هي القضية بصورتها الحقيقية ...

الأوس ... الخزرج... المهاجرون ... الأنصار... لماذا هذا التقسيم ... اننا اليوم عصبة واحدة تستند إلى الحق، وتسير وراء الرسول ... وليس لنا لواء غير لواء الاسلام ...

مهما تعددت الأسماء ... إن للأنصار فضلاً ... وللمهاجرين ... لكن الفضل الأكبر لله الذي منّ عليهم جميعاً بنور الإيمان ... »

هز أبوه رأسه في ضيق وقال :

« أجئت لتعلمني أمور الدين، وتشرح لي نظام المدينة ؟ ؟ »

— « انني أشرح لك وجهة نظري ... »

— « احتفظ بها لنفسك ... انني احترم محمدا لا شك في ذلك، ولكن ... »

فقاطعه ابنه قائلا :

— « ولهذا حاولت أن تثير الفتنة بعد غزوة بني المصطلق، ثم نشرت حديث الافك... »

أشاح الأب بوجهه غاضباً وقال :

— « ان وزراء محمد وحاشيته يسيئون التصرف، ولا يستحقون ما يضفيه عليهم من ثقة كبيرة ... ولا صلة لي بحديث الافك ... هل استطاع أحد أن يمسك بجرم ظاهر وقع مني ؟ »

قال ابنه في حزم :

— « محمد أدرى بالرجال منك ... ومحمد يختار رجاله واصفياءه عن تجربة، ويثق في اخلاصهم، وحسن فهمهم لدعوته ... ولا يقرب أحداً لقرابته، ولا يحابي انساناً لهوى... انه يقيس الرجال بمقياس التقوى ...

ويبدو أنك تريده أن يقيم وزناً كبيراً للأحساب والانساب والعنجهيات الجاهلية ان محمدا نبي وليس ملكاً ينشد رضى أصحاب النفوذ ... ولهذا انتصر وسينتصر بإذن الله ... »

أقبل الأب نحو ولده، وأمسك بكتفه في غلظة، وهزه هزاً عنيفاً وقال :

— « والآن لتخرج من بيتي ... لا أريد أن أرى وجهك هنا ثانية ...

اللعنة على المدينة ومن فيها ... أنا لا يهمني الناس، لا أريد أن أرى وجه أحد، لا أريد أن أتعامل مع أحد ... ان هذه الفضيحة التي نزل بها الوحي، وتلك الكلمات التي تقال عني في كل مكان ... كل هذه الكلمات لن تقربكم مني، انها تملأ نفسي مرارة وحنقاً ... وليس هذا هو السبيل لعلاجي ... أتفهم ؟ ؟

لا أريد أن أرى أحدا منكم هنا، والآن اذهب فوراً دون تردد ... »

ودفع ولده إلى الخارج ...

فتمتم عبد الله في أسى :

— « سامحك الله يا أبي ... »

الفصل العشرون

جلس حيي بن أخطب وحده، الدنيا في عينيه كابية حزينة، والآفاق مقيتة سمجة، والحياة لا طعم لها، لقد تمزق يهود بني القينقاع، وذهب يهود بنو النضير مع الريح، وانكسرت القبائل التي كانت عازمة على غزو المدينة، بعد أن داهمها محمد واحدة اثر أخرى، وأخذهم قبل أن يأخذوه، ووضع لأطماعهم وعدوانهم حداً، وقريش فرحت بنصرها الساذج، وانطوت على نفسها تخدعها وتقنعها بأنها قامت بواجبها نحو محمد، وعبد الله بن أبي لزم بيته بعد أن كشف أمره، وفضحه بغيه، وبيّن القرآن نفاقه وأخاديعه بما لا يدع مجالاً للشك ... كل هذا ونجم محمد في صعود، واتباعه في ازدياد، وقوته في نمو، ان سلطانه يمتد ويمتد، ولا يكف عن عقد المعاهدات، واقامة الأحلاف، حتى أوشك العرب أن يستسلموا لسلطانه استسلاماً غريباً ... ما معنى هذا ؟؟ ان يصبح محمد سيد العرب المطاع، وان تسود الدعوة الاسلامية أرجاء الجزيرة، وأن يقضي على نفوذ اليهود وسلطانهم القديم، وألاّ يأخذ أحد بثأر بني القينقاع وبني النضير، وأن يبقى بنو قريظة ويهود خيبر في رعب قاتل ينتظرون مصيرهم المحتوم، وبذلك لا تقوم لليهود قائمة بعد اليوم، ان مبادىء الاسلام التي حملها محمد قد لاقت تأييداً كاسحاً، حتى الأعداء الذين يرفعون في وجهه السيف، ويدبرون لغزوه لا يفعلون ذلك دفاعاً عن مبدأ، أو حماية لدين أصيل بالدرجة الاولى، انهم ينظرون إلى الأمر من زاوية أخرى، فهم لا يحاربون الا للقضاء على نفوذ المسلمين الذي يهدد نفوذهم، ولا ينفرون خفافاً وثقالاً الا طمعاً في أخذ غنائم المسلمين وأموالهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، وهنا مكمن الخطورة، ليس هناك مبدأ يصارع مبدأ، ولا دين في مواجهة دين، ان محمدا وحده هو القادر على ان يحمل مبدأه ويشرحه للناس، ويحمل جنوده على الدفاع عن العقيدة، والاستشهاد في سبيل الله ... ومحمد رجل منظم ذكي، ذو دراية كبيرة بأمور الدين والدنيا، والسياسة والحرب، والادارة والسفارة، انه يعرف جيداً ماذا يفعل، لا يستطيع مواجهته الا من يحملون مبدأ قوياً مثل مبدئه، وما أظن أن ذلك متوفر الا فينا نحن اليهود ... ولكن يا لأحزانك يا حيي بن أخطب ... ان اليهود قليلو العدد، ضعيفو الايمان، لا يصمدون عند اللقاء، ولا مناص من أن نعيد تحريض قريش من جديد، وأن نجمع أكبر عدد ممكن من القبائل المناوئة لمحمد. يجب ان يكون الحشد قوياً وضخماً وحاسماً هذه المرة ... ان يشكل ضربة نهائية ...

ويجب ان تدار المعركة بحكمة وروية ... وبقسوة أيضاً ... يجب ألا يبقى في أرجاء الجزيرة فرد واحد يهتف باسم محمد، او يترنم بالاسلام ...

هذا ما كان يعتمل في ذهن حيي بن أخطب وهو جالس وحده ينتفض حقداً وغيظاً، ولم يقف عند هذا الحد، بل نقل أفكاره إلى يهود بني النضير الذين صدعوا للضربة الأخيرة، وتفرقوا أيدي سبأ، ولكن بقية منهم لجأوا إلى بني قريظة خفية، فكان طبيعياً ان ينحاز هؤلاء إلى رأي حيي بن أخطب، كما انضم اليه أبو رافع بن أبي الحقيق وغيره، لكن جماهير بني قريظة أبت الانسياق وراء تيار الحقد، ان بينهم وبين محمد اتفاقية تعاهد فيها الطرفان على الصداقة ورد العدوان عن كليهما، إلى غير ذلك من بنود التحالف والاخاء المتين...

وانطلق حيي بن أخطب إلى قريش ...

— « يا أبا سفيان، ماذا تنتظرون ؟ ؟ أو تظن أن محمدا سيضمر جيشه، وتنحصر دعوته في مكان ضيق حتى تضمحل ؟ ؟ لا وألف لا ... ان محمدا سوف يضربكم هنا في عقر داركم ، وسيسبي النساء والذراري، ويديل محمد قريشا، ويقضي على كبرائها ...

يا أبا سفيان ... لا تحسب ان انتصاركم في « أحد » انتصار حقيقي، لقد استفاد محمد منه أكثر مما استفدتم، تعلم مزيدا من الحذر، وتعلم جنوده مزيداً من آداب الحرب والحرص والطاعة، أما أنتم فقد ثملتم بالنصر الصغير ، وتركتم له الحبل على الغارب ... ها قد قطع عليكم طريق التجارة إلى الشام، وقضى على القبائل واحدة واحدة وانتم نائمون او متناومون ... ولم يبق الا أنتم ونحن ... ولسوف يأكلنا ثم يثني بكم، وبعدها تدين له بلاد العرب قاطبة ... ويصبح تاريخكم وأمجادكم مجرد ذكرى غابرة، وستصب الأجيال لعنتها علينا لاننا قصرنا في حفظ امجادها وتراثها ... لقد استطاع رجال محمد ان يقتلوا عمرو بن جحاش ... انهم لا يتركون ثأرهم ... دائماً يقضون على من يتجرأ بالعدوان عليهم ... وفعلوا مثل ذلك بكعب بن الأشرف ... وسيفعلون بك غداً ... يا أبا سفيان... فكر في الأمر ملياً ... »

هز أبو سفيان رأسه وقال :

— « ان كلامك يحمل معنى خطيراً ... »

— « انه الفناء المؤكد لنا جميعاً يا أبا سفيان ... »

— « انني مؤمن يا حيي بكل ما تقول حرفاً حرفاً ...

— « هذا بداية النجاح ... »

وأخذ أبو سفيان يدق جبهته بقبضته اليمنى ويقول :

— « لكن كيف السبيل إلى القضاء على محمد قضاء نهائياً ؟ ؟ انني معك في ان هذا الخطر الداهم المزمن يجب ان يكون له علاج حاسم وسريع ... »

وأخذ حيي بن أخطب وابن أبي الحقيق وغيرهما يشرحون وجهة النظر اليهودية، لا بد ان يجتمع كل أعداء محمد في صعيد واحد، قريش، وبنو سليم وأسد وفزارة وأشجع وغطفان واليهود ... كل هؤلاء، ويحاصرون المدينة من كل جهاتها، ويطبقون على محمد اطباقة نهائية، ويجعلون من هذه المعركة معركة العمر ... معركة الشرف والمبدأ والكرامة.

قال أبو سفيان :

— « أما قريش فهي رهن اشارتي، وفي امكاني ان احشد منهم بضعة آلاف في فترة وجيزة ... »

أردف حيي بن أخطب في سعادة غامرة :

— « أما القبائل فدع الامر لي، انني كفيل بتزيين المعركة لهم، فلسوف يجنون من ورائها الكثير من المال والسبايا والغنائم التي لا حصر لها، ولعل ذلك هو الهدف الرئيسي الذي سوف يتحرك رجال القبائل صوبه في سرور ... ولن يترددوا لحظة في تنفيذ ما أطلبه منهم اذا ما علموا ان قريشا على رأس القوات المحاربة، وان اليهود بمالهم وسلاحهم ورجالهم سيقفون إلى جوارهم ... »

وضحك أبو سفيان ضحكة أثارت الدهشة لدى المجتمعين، ولدى حيي بن أخطب خاصة، فقال حيي بن أخطب :

— « لم تضحك يا شيخ قريش ؟ »

— « ولم لا أضحك ؟ ؟ انني أتذكر ذلك الرجل وهو بيننا، أتذكر محمدا وحوله عدد قليل من السفهاء والضعفاء، وأتذكر سخرياتنا منه، وكيف كنا نلهو بتعذيب رجاله، ونهزأ بالعبيد الذين آمنوا بدعوته ... وكيف حصرناهم في شعب بني هاشم وتركناهم يتضورون جوعاً وعذاباً وعزلة ... وأتذكر يوم خروجه من مكة ضعيفاً متخفياً يبحث عن مكان أمين يأوي اليه ... أيمكن ان يتصور عاقل ان هذا هو الرجل الذي هزمنا في « بدر »، وسبب لنا المتاعب في التجارة، وجعلنا نبذل أقصى الجهود للتغلب عليه يوم « أحد » ... واليوم ... اليوم ... نحشد له العرب قاطبة من كل مكان لنحاول كسر شوكته ... يا للأقدار ! ! ماذا لو نجحنا في تدبير مقتله قبل هجرته ؟ ؟

أكان يحدث ما حدث ؟ ؟

قال حيي بن أخطب :

— « ليس هذا هو المهم ، المهم ان نصعقه قبل ان يستفحل خطره أكثر من ذلك »

قال أبو سفيان في استغراب :

— « لكم أتساءل كيف بلغ محمد ما بلغ ؟ ؟ لقد كنا قوة كبيرة ، ومعنا المال ولدينا الأمجاد ، ويسودنا نظام عتيد عريق ، كيف اهتز هذا كله أمام كلمات محمد ؟ . وكيف نما شأنه وازدهر ، وهو لا يملك للناس اغراء غير كلمات بسيطة عن الله ... والجنة .؟ والنار ... والشيطان والعدل والاخاء ... أكان هذا شيئاً ينقص العرب ؟ ؟ هل كانوا في مسيس الحاجة إلى من يقول لهم هذه الكلمات ؟ ؟ ولماذا لم نقدم البديل الذي يصرفهم عنه ، ويجذبهم الينا ؟ ؟ »

نظر اليه حيي بن أخطب نظرات متمعنة ، نفس التساؤلات الشائكة التي جالت بخاطره كثيراً ، أترى يكون محمد على حق ؟ ؟ هل الله معه ؟ ؟ وهل نحن على باطل ؟ ؟ وما جدوى هذه التساؤلات وقد فات الاوان ، ولم يعد من الحرب الفاصلة مهرب ؟ ؟

قال حيي بن أخطب وهو يعلم سلفاً مدى تفاهة أفكاره :

— « يا أبا سفيان ان محمدا يستغل السذج والبسطاء من الناس ، ويغري اصحاب ذوي الطموح والمكانة منهم ، ويفتح أمامهم أبواب عالم آخر ... عالم سحري مليء بالخيالات والسحر والاحلام الرائعة ... »

قال أبو سفيان في مكر :

— « واليهود أيضاً ... أليس عندهم جنة ونار ؟ ؟

قال حيي متصنعاً المرح ، ومحاولاً الهرب من الاجابة الحقيقية المؤلمة :

— « يبدو أن محمدا استطاع ان يزوق جنته بألوان أزهى وأجمل مما فعل أحبارنا الأجلاء ... »

تنهد أبو سفيان في ضيق وقال :

— « ومع ذلك فأنتم مسؤولون معشر اليهود عن نكبة العرب »

قال حيي وقد ارتسم الجد على وجهه :

— « كيف ؟ ؟ »

— « أنت تعرف ... »

— « يا أبا سفيان ، ان أحداً لم يقاس من محمد مثلما قاسى اليهود ، لقد طرد بنو قينقاع ، وطرد بنو النضير ، وتمزق شملنا ... »

قال أبو سفيان :

— « انني أعرف ذلك جيداً، لكن هل تنسى ان محمدا هاجر إلى المدينة ومعه عدد قليل من المكيين ؟ ؟ هل نسيت ان المدينة — برغم سلطان اليهود وصلاتهم الوثيقة بأهلها — قد أفسحت صدرها للرجل الطريد ... ونامت عن أطماعه، وأمدته بكل ما يحتاج اليه من أمن ومال ورجال ؟ ؟

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ... ألم يقم اليهود أنفسهم بمحاولة كسب رضاه، وجلب صداقته، فعقدتم معه المحالفات والمعاهدات، وقبلتم امارته غير المباشرة عليكم ؟ ؟

ان ابرامكم المعاهدات معه قد جعله السيد المطاع الآمن في المدينة ... »

قال حيي بن أخطب في شيء من الأسى والأسف :

— « لا أنكر ما تورطنا فيه من أخطاء، لكننا لم نكن قادرين على معاداة الأوس والخزرج حلفائنا الأقدمين، ولم يخطر ببالنا ان محمدا سيشكل خطراً داهماً كالذي نراه اليوم ... أنتم في مكة وقعتم في نفس الخطأ، لو علمتم ما ينتظره من نباهة شأن، وعلو ذكر، وصعود سلطة وقوة، لأرقتم دمه بأية وسيلة، ولقضيتم على هذا الخطر في مهده ... لقد رأينا رجلاً طيباً ألوفاً، ينشد الأمن والسلام، ويمد يده لمصافحتنا فصافحناه، ولما وجدنا عوده يشتد، ومبادئه تغزو القلوب، وأتباعه يكثرون ... استيقظنا من نومنا ... أخذنا نناوئه، ونثير الناس ضده، نقضنا ما بيننا وبينه من محالفات، لكنه استغل نقضنا ذلك ببراعة وبعنف، فطرد بني قينقاع وبني النضير، وفتح عينيه جيداً على تحركاتنا وتدابيرنا .. ثم فاذا فعلتم انتم وقد سمعتم بما يفعله فينا من أفاعيل ؟ ؟ يا أبا سفيان اننا جميعاً مسؤولون عما نتعرض له من تهديد هذا الرجل لأمجادنا وسلطاتنا ومستقبلنا ولا يصح ان نبكي على ما فات ... بل نفكر في اتخاذ الاجراءات الكفيلة بضربه ضربة ساحقة لا يفيق بعدها أبداً.. »

قال أبو سفيان وقد طأطأ رأسه :

— « الحق معك »

وأردف حيي بن أخطب :

— « اننا أمام عدو ذكي لبق، محمد ليس بالرجل السهل، ورجاله يتفانون في سبيل المبادىء التي لقنها لهم، فتشربتها قلوبهم وعقولهم وأرواحهم، هذه الاستماتة هي الخطر الداهم ... ان قتله وحده لم يعد يجدي نفعاً تلك حقيقة ... ان مات محمد فان مبادئه السحرية باقية يحملها نفر من الأشداء الأقوياء الايمان ... عمر، أبو بكر، عثمان، علي، الزبير، أبو عبيدة، سعد بن معاذ، وغيرهم كثيرون ... ان القضاء على الخطر يعني القضاء على هؤلاء جميعاً ... يجب ان نعد أنفسنا لحرب ابادة ...

تمتم أبو سفيان :

— « أجل ... ابادة ... »

ثم استطرد أبو سفيان وقد رفع رأسه :

— « وبنو قريظة ؟ ؟ »

— « ما شأنهم ... »

— « هؤلاء اليهود يا حيي بن أخطب بينهم وبين محمد عهود ومواثيق، وقد علمت منكم بالأمس عدم وضوح موقفهم بل ان زعيمهم كعب بن أسد يبدو انه مصر على ولائه لمحمد، واستمساكه بما بينهما من عهود ... »

قال حيي :

— « هؤلاء أبناء جلدتنا، وانحيازهم لنا أمر مؤكد ... »

— « انهم يشكلون جانباً هاماً ... فهم يسكنون ضواحي المدينة ... وهم أدرى بمداخلها ومخارجها واسرارها، وانحيازهم الينا سوف يطعن المسلمين طعنة في الصميم ويؤدي إلى انهيارهم ... الضربة من الداخل أعنف وأفعل ... »

ابتسم حيي قائلاً :

— « لا تشغل بالك من هذه الناحية، فأنا بحلها كفيل، والآن دعني انطلق إلى غطفان وفزارة وأسد وغيرها من القبائل حتى نكمل حشودنا لليوم الموعود ... »

— « رافقتك السلامة ...

الفصل الحادي والعشرون

بيت صغير من بيوت المدينة، الساكنون فيه قوم فقراء، في حظيرة البيت قليل من الأغنام والإبل، وأمام البيت نخلات صغيرة لم تجد بالثمر بعد، وفي احدى الحجرات الداخلية يجلس شاب في مقتبل العمر، وأمامه زوجه الصغيرة السن، لم يكد يمضي على زواجهما أكثر من أربعة أيام،

قالت هند لزوجها :

— « لقد عدت من صلاة العشاء متأخراً الليلة ... »

شرد رابح بذهنه لحظات، وزاغت نظراته وغمغم :

— « انه لخطب جسيم ... »

قالت وقد دق قلبها :

— « ماذا جرى يا رابح ؟ ؟ »

— « جولة جديدة من العناء ... ستكون جولة قاسية مريرة لا يعلم الا الله مداها ... »

— « أهي الحرب ؟ ؟ »

— « نعم ... »

— « قريش من جديد ؟ »

— « ليت الأمر أمر قريش، ان العدوان الجديد يجمع قريشاً واليهود والمنافقين، وكثيراً من القبائل منهم غطفان وأسد وفزارة وغيرهم ... »

— « وكيف تقاتلون هذه الجموع الهائلة، ان عددهم لا شك سيزيد على عشرة آلاف مقاتل، وسيأتون مدعمين بكل ما يحتاجون اليه من مال وسلاح وأحقاد ... »

قال رابح في ثقة لا تعدلها ثقة :

— « لقد فرضوا علينا القتال فرضاً ... »

— « ألا تكون هناك وسيلة لتجنب ويلات الحرب ... »

— « ان الرسول يتمنى ذلك من قرارة قلبه ... هو لا يطلب منهم سوى أن يفتحوا الطريق ليسمع الناس كلمته، ولهم أن يقبلوها أو يرفضوها ... ان الرسول لا يرغم أحداً على الايمان بما يدعو اليه، لكن الأعداء، يسدون الطريق، بل ويرفعون السيف في وجه كلمات الله ... أوتظنين أننا نستطيع أن نقف جامدين وسيوف البغي تعلو هاماتنا ؟ ؟

اننا مسوقون للحرب سوقاً، نضرب بسيوفنا ونحن أشد ما نكون شوقاً للسلام والراحة .. لاننا لا نستطيع ان نجابه السيف بغير السيف، فالعدو لا يبغي سوى الفناء لنا، والقضاء على دعوتنا ... الألوف يزحفون صوب المدينة ... كل العرب من حولنا أصبحوا أعداء...

لم يبق الا بنو قريظة، انهم ما زالوا متمسكين بالعهد القائم بينهم وبين المسلمين ... اقتربت هند من زوجها وقالت في دهشة :

— « وكيف تقاتلون هذا الجيش اللجب وأنتم قليلو العدد ؟ ؟ ان انتصاركم عليهم أمر يكاد يكون مستحيلاً .. »

— « تلك هي الحقيقة ... لا بد أن يكون هناك تصرف ما ... خطة لا تخطر على البال ... مفاجأة توقف من تدفق هذا السيل الجارف ... اننا سنخوض الحرب يا هند الحبيبة أيا كان الأمر، اذا أراد الرسول أن يخرج للقتال فسنخرج ... لن نفكر في النتيجة ... ان الموت في ساحة القتال حتى آخر رجل أحب الينا من الحياة الذليلة ... من التسليم ... وكيف يحني الحق رأسه للباطل، وكيف ننكس راية الله، وترتفع رايات هبل والشرك والنفاق واليهود المنحرفين ؟ ؟ ان الموقف صعب ... شديد الصعوبة ... وليس أمامنا الا الاستسلام او الموت ... ونحن نفضل الموت ... والموت في سبيل الله يا هند صورة من صور النصر ... بل لعلها أروع صور النصر إطلاقاً ... »

شحب وجه هند، وارتجفت أناملها الدقيقة، ودارت بذهنها أشياء لم تشأ ان تبوح بها، ان الموت كلمة رهيبة حقا، وهي تحب زوجها الوفي الذي سيطر على مشاعرها وروحها منذ ان عاشرته، وعاشت معه تحت سقف واحد، وهي ترمق الآن وجهه الأسمر المستطيل، ولحيته السوداء الصغيرة، وعينيه الحادتين اللتين تشعان قوة وصفاء وايماناً، ثم تتخيل ان هذا الوجه الباش النضر قد يلفه التراب، ينطمر في حفرة مظلمة، فيذوب قلبها أسى، وتتمزق روحها حسرة، لعلها لم تفكر في الموت بهذه الحدة، ولم تستعرض صورته المنفرة تلك، قبل زواجها ... هل جاء اليها الزواج بالحب والحياة السعيدة ... وبالأنانية ايضاً ؟ ؟ أفاقت فزعه من هواجسها حينما سمعته يقول :

— « أترهبين الموت يا هند ؟ ؟ »

لكأنما يقرأ أفكارها، ويلحظ ما يعتمل في فؤادها من انفعالات، ولما لم تجب قال :

— « العمر ليس هو الفترة الممتدة بين المولد والوفاة ... الموت يا هند لحظة نوم قصيرة وان طالت ... وبعد الموت بعث ... وحياة أخرى أعظم وأروع ... لكننا لا نرى هذه الروعة ولا تلك العظمة بحواسنا القاصرة ... والحياة التي نلمسها أبعد تأثيراً فينا من الحياة المنتظرة، تلك كانت المشكلة، أما وقد تفضل الله علينا بنعمة الايمان، وهدانا إلى الاسلام فقد تحول الموت من شبح مخيف مرعب إلى أمنية عزيزة المنال ... أصبح هو المعبر الذي نعبره إلى العالم الآخر الجميل ... تلك هي الصورة الجديدة للموت ... انها صعود ورفعة وانتقال إلى وجود أعز وأروع ... الموت له قيمة وخاصة اذا مات المرء وهو يناضل من أجل اعلاء كلمة الله، ونشر العدل والخير، وتصحيح أفكار الناس عن الله، وعبادته وحده ... ذلك هو الموت العظيم ... أما موت الفراش فهو شيء صغير تافه لا قيمة له ... وان حمل المؤمن إلى العالم الآخر بما فيه من روعة وجلال ... استمعي إلى كلمات القرآن يا هند « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون » ... أتسمعين ؟ ؟ أحياء يا هند ... فلم تفزعين من الموت ؟ ؟ »

قالت هند وقطرات الدمع تبلل أهدابها :

— « آمنت بالله رباً، وبالاسلام ديناً، وبمحمد رسولاً ... »

ثم انكفأت على ذراعه وأخذت تقول في براءة وهي تبكي :

— « سامحني يا رابح ... لقد ارتعدت مفاصلي من ذكر الموت ... انني احبك يا رابح، وأتمنى أن نظل معاً في الدنيا والآخرة ... ان نحيا معاً، وان نموت معاً، وأن نبعث معاً ... ان وجودك إلى جواري متعة ما بعدها متعة ... اعذرني أيها الحبيب ... حدثني كثيراً عن الله ... عن محمد ... عن دين الله ... أريد أن أكون مثلك ... بل ليتني أستطيع أن أحمل سيفي وأعلو به هامات المشركين والمنافقين ... ان الموت الذي تتحدث عنه رائع حقا ... انني في مسيس الحاجة لأن يقوى ايماني أكثر وأكثر ... أن أنسى كل شيء تافه ولا أذكر سوى الأشياء العظيمة التي يعلمنا اياها رسول الله ... »

وتمتم « رابح » :

— « لقد قال الرسول يا هند « لن يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ... »

قالت هند وهي تجفف دموعها :

— « هذا هو السر الذي جعلكم تندفعون وراءه في شوق جارف ... تاركين وراءكم الدنيا بكل ما فيها من مال وزخارف وأهل وولد ... لقد كنت أحب الرسول حبا كبيراً ...

أما حبي له الآن فقد نما وازداد ... انني أحبه لأنه الرسول ... وأحبه أيضاً من خلالك ... ان الرجل الذي تزوجني من صنع كلمات محمد ... أعني أنه سوّى فكرك، وشكل قلبك وروحك ... وهذب سلوكك وكلماتك ... وأنت من تكون؟؟ أنت الفكر والقلب والروح والسلوك ... وهذا ما أحبه فيك ...

انفجر رابح ضاحكاً وهو يقول :

— « تتكلمين وكأنك عجوز في الستين ... »

— « وأنت تتحدث وكأنك فيلسوف في الثمانين ... مع أنك لم تتجاوز السادسة والعشرين ... » وسادت فترة صمت، كان كل منهما يفكر فيما تبادلاه من حديث، وعلى الرغم من كل ما قيل فان القلق لم يزل يسيطر عليهما، ولم يكن مصدر هذا القلق هو الخوف من الموت، كان التفكير في الرسول وفي دعوته ومصيرها هو الذي يشغل الذهن، ويبعث على الاشفاق، أليس من العجيب أن يجد الباطل هذه الحشود الضخمة، والامكانيات الكبيرة، في الوقت الذي يقف فيه الحق وحوله عدد قليل من الرجال والعتاد؟؟ واذا كان الله يريد النصر لدينه، والحماية للمؤمنين به، والهزيمة لأعداء دعوته فلماذا لا يخسف بهم الأرض، أو يطبق عليهم الجبل، أو يبعث عليهم الجراد والثعابين والوحوش المفترسة كي تقضي عليهم وعلى باطلهم؟؟ اللهم غفرانك ... لا عتاب ولا ملام، ان لك في خلقك شؤوناً ... هذا ما كانت تحدث به هند نفسها، ولهذا قالت في تساؤل :

— « لماذا يكثر عدد المشركين وعدتهم؟؟ لماذا يبدو وكأن الغلبة لهم؟؟ »

— « انك يا هند تحاولين دائماً ان تبحثي عن العلل والأسباب ... »

— « أريد أن أعرف الحقيقة ... »

ابتسم رابح في سعادة وقال :

— « منذ أن جاء الرسول، ومنافذ فكرنا قد تفتحت ... كنا نتقبل الأمور على علاتها، كل الحقائق مسلم بها لا يصح مناقشتها او نقدها، أما الآن فقد غزا الفضول عقولنا ... حتى النساء أخذن في الحديث عن كل شيء ... حتى قضايا القضاء والقدر »

قالت في غير قليل من اللهفة :

— « أريد أن أعرف الحقيقة ... »

— « الحقيقة ... انها ليست جديدة ... انها تتفق وطبيعة الحياة وطبائع الناس ... لا نصر بغير عناء وتضحيات ... الباطل لا يستسلم طواعية، من صفاته الاصرار والعناد ... انه باطل أتفهمين؟؟ والحق لا ينتصر وحده دون جهود ... ان قوى الشر تقف في

مواجهته ... النصر لا يقدم هدية من السماء الا لمن تدعم بالايمان القوي، وتعلم كيف يجاهد النفس والهوى والناس، عندئذ يكون جديراً بأن يحمل شرف الدعوة الالهية ... لقد خلق الله قوة الفكر وقوة الجسد وقوة الروح لتتآزر كلها في بناء الأمة الفاضلة ... النصر السهل السريع لا مذاق له ... والذين يتلقونه لا يقدرونه حق قدره ... ولا يستطيعون حمايته او الدفاع عنه، كان في الامكان يا هند ان يهبنا الله رغيفاً ... لا ... لقد أعطانا الحب، والحب نزرعه ونسقيه، ونمهد له الارض، ثم نحصده، ثم نجففه، ثم نطحنه، ثم نعجنه ونخبزه ... وبعد ذلك يحلو مذاقه اذا أكلناه ...

تلك ارادة الله ومشيئته ... « اني جاعل في الأرض خليفة ... » هكذا قال الله في كتابه العزيز ... والخليفة ليس ملكاً وتاجاً وكسلاً وترهلاً ... لكنه انسان يعرق ويكافح ... والخليفة ليس رجلاً واحداً بعينه ... بل كل منا خليفة ... أتفهمين يا هند ؟ ؟

وابتلع رابح ريقه ثم قال :

— « لقد استطعت ان تجذبيني إلى أحاديث شتى كادت تنسينا أهوال الايام القادمة ... »

طأطأت رأسها في ألم وقالت :

— « أجل ... الحرب ... فكيف تجابهون هؤلاء الشياطين ؟ ؟ انهم ألوف مؤلفة ... »

قال رابح :

— « ظل الرسول يفكر ويفكر ... انه يبحث عن سلاح جديد ... انها المعركة الفاصلة يا هند لو انتصرنا فيها لدان العرب للاسلام، ولقطعنا مرحلة كبيرة في شوط النضال الطويل — ولو هزمنا لا قدر الله — فسنعاني من جراء ذلك عناء شديداً ... »

قالت في حماس :

— « ان الله لن يخذلكم ... »

— « هذا هو الأمل ... »

— « بل يبدو لي في مرتبة اليقين ... »

— « نحن في حاجة إلى معجزة ... اننا سنذود عن الاسلام بكل ما نستطيع ... لكن هل هذا يكفي ؟ ؟ »

ودق باب البيت فجأة، وثب « رابح » مسرعاً، وجرى صوب الباب، وسمعت هند حديثاً خافتاً، وبعد لحظات أغلق الباب، ثم عاد يفكر

قالت هند « ما بك ؟ ؟ هل جد جديد ؟ ؟ »

قال ووجهه يشرق بالسعادة :

— « هذا هو الجديد الذي أبحث عنه ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « قرر الرسول حفر خندق طويل يمتد بين « جبل سلع » و« حرة المدينة » مثل هذا الخندق يحمي المدينة من الشمال، ويمنع تدفق الأعداء اليها... أما باقي الجهات فقد توفرت لها الحماية الطبيعية من جبال وبساتين وغير ذلك من الموانع ... هذا هو الجديد... »

قالت في دهشة :

— « خندق ؟ ؟ »

— « أجل ... سيكون عميقاً فاذا ما حاول أحد الأعداء عبوره لاقيناهم بالنبل والسيوف وتمكنا منهم ... تلك فكرة « سلمان الفارسي » وقد عرضها على الرسول بعد أن رأى عدم رغبته في الخروج إلى ميدان مكشوف خارج المدينة ... ان الخروج في أرض مكشوفة ونحن قليلو العدد سوف يعطي الأعداء فرصة ذهبية للاحاطة بنا ... قد يتكرر ما حدث في « أحد » وفي المدينة العدد الكافي من الرجال والأقوات والمياه ... وفي المدينة نستطيع الصمود من شارع إلى شارع ومن بيت لبيت ... وفي المدينة ستوفر لنا الامداد بكل ما نحتاج اليه، ويستطيع النساء أن يقمن بدور فعال ... »

قالت هند مقاطعة وهي فرحة :

— « اذن سأتمكن من الاشتراك في المعركة ..؟ »

— « اذا احتاج الأمر ... بقي أن تعلمي أن بني قريظة من اليهود ما زالوا حافظين لعهدهم مع رسول الله وسيمدوننا بالأقوات، وبهذا تكون المدينة في أمان تام ... سنفرغ للاعداء في صبر وحكمة ... لن نتهور او نعبر الخندق ... سنقف قبالتهم نضرب بشدة كل من سولت له نفسه العبور الينا ... ان الرسول بعمله هذا قد أحرج الأحزاب المجتمعة . سيتركهم في العراء والشتاء القارص يبحثون عن ثغرة كي ينفذوا الينا منها وهيهات ... انها خطة بارعة ... ان الموقف دقيق وحرج ... ونحن لا نطمع في نصر نسحق به الاعداء، ولكننا ننشد النجاة من الوقوع في شباكهم ... اننا في موقف دفاع عن رصيدنا من الرجال والمبادىء والمكاسب التي حققناها طول السنين الماضية ... لم يؤن الأوان بعد لنعد العدة لسحقهم ... لو استطعنا ردهم نكون بذلك قد نجحنا نجاحاً كبيراً ... ان الرسول يعرف جيداً يا هند ما يجب عمله ... ان الله يلهمه الصواب، ويؤتيه الحكمة ... »

وصمتت هند برهة ثم قالت :

— « أتعتقد أن بني قريظة سيكونون أوفياء ؟ ؟ »

— « ولم لا ؟ ؟ ومع ذلك فان الشك لم يزل قائماً، ان حيي بن أخطب هو الذي حرض قريشاً والقبائل ... لكن بعض اليهود رفضوا تحركاته، نقموا على تصرفاته، ومنهم كعب بن أسد زعيم قريظة ... »

واحتقن وجهه غيظاً وقال :

— « تصوري يا هند أن أبا سفيان سأل حيي بن أخطب اليهودي قائلاً له هل دين قريش أعظم وأحق بالاتباع أم دين محمد ؟ ؟ وأنت تعلمين أن قريشا تعبد الأصنام، وأن اليهود أهل كتاب .

قالت هند : « أعرف ذلك ! ! ولا يمكن أن يعترف أهل الكتاب بصحة عقيدة المشركين، وعبادة الاصنام ... »

قهقه رابح ساخراً وقال :

— « الكارثة أن حيي بن أخطب أكد لأبي سفيان أن دين قريش حق، ودين محمد باطل ... »

— « أمر عجيب ... »

— « ان أبا سفيان نفسه دهش لهذا الكلام، وشك فيه، وطلب من حيي بن أخطب أن يدلل على كلامه بالسجود لأصنام قريش ... »

هتفت هند :

— « مستحيل أن يفعلها اليهودي الذي يؤمن بكتاب موسى ... »

— « بل فعلها يا هند ... وقاد رفاقه اليهود إلى ساحة الأصنام وسجدوا لها وعفروا جباههم بترابها ... »

— « لا أكاد أصدق يا رابح ... »

— « ان حقد اليهود فوق التصور ... يكفرون بكلمات الله، ويدوسون مقدساته، وينكرون نبوة محمد وقد ذكرت عندهم في كتبهم ... يفعلون كل ذلك ... أليس هذا غريباً ؟ ؟ »

قالت هند :

— « وما بنو قريظة الا يهود قلبا وقالبا ... »

— « نحن معهم ما داموا على العهد ... »

الفصل الثاني والعشرون

كان حيي بن أخطب يعلم جيداً أن مهمته شاقة وصعبة بالنسبة ليهود بني قريظة، لان زعيمهم « كعب بن أسد » قوي الشكيمة، عميق النظرة، فضلاً عن أن « عمرو بن سعدي » وهو رجل من رجالات قريظة المشهورين، يأبى الانصياع لآراء المتطرفين والمغامرين من اليهود، لذا أدرك حيي أن من الواجب عليه أن يتخذ كل الوسائل، ويلجأ إلى كل السبل كي يقنع قريظة بالدخول في حلف الأحزاب، فليس من المعقول أن يحشد حيي قريشا وغطفان وغيرهما، ويسوق عشرة آلاف جندي من غير اليهود دون أن يستطيع اقناع بني قومه بالمشاركة في المعركة، سيكون شيئاً مضحكاً بل ومدعاة للسخرية المرة ان فشل في اقناع بني قريظة ...

وما أن اقترب حيي بن أخطب من حصن « كعب بن أسد » زعيم قريظة، حتى رآه أحد الحراس، فأسرع إلى كعب وأخبره الخبر، فانتفض كعب واقفاً، وصاح بأعلى صوته:

— « أغلقوا أبواب الحصن في وجهه ... لا أريد أن أراه ... »

وفوجىء حيي بالأبواب تغلق، وعيون الحراس ترميه بنظرات ذات معنى، تلفت حوله، وقاس المكان بنظراته، ثم دق الباب بعنف، فقال أحد الحراس:

— « لن نفتح لك ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « هذه أوامر كعب بن أسد ... عد من حيث أتيت ... ان كعباً يرفض مقابلتك... »

قال حيي في دهشة:

— « أهناك سبب لذلك ؟ ؟ أخ لكم يطرق بابكم، فكيف تسدون الطريق في وجهه؟؟ »
وبينما كان حيي يتطلع إلى أعلى رأى كعب بن أسد يطل بوجهه المكفهر ويهتف:

— « ماذا تريد ؟ ؟ »

— « ويحك يا كعب ... افتح لي »

قال كعب في حنق:

— « ويحك يا حيي ... انك امرؤ مشئوم، واني قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه الا وفاء وصدقاً ... »

تنهد حيي في ضيق وقال متوسلاً :

— « افتح لي أكلمك »

— « ما أنا بفاعل ... لن أفتح للفتنة بابا جديداً يدخل منه الشر والفساد ... لن أجر الوبال على قومي وعشيرتي ... انني أعني ما أقول ... »

ضحك حيي في مكر ودهاء وقال :

— « انني أعرفك يا كعب بن أسد ... والله ما أغلقت دوني الا تخوفاً على جشيشتك[1] أن آكل معك منها ... أنت لم تعرف بعد لماذا أتيت اليك. فلم تتسرع في الاتهام، وتوصد بابك، وتعاملني كلص، وأنت سيد الحلم والكرم والحكمة ؟ ؟ أترضى أن أرجع ويعلم الناس أن سيد قريظة يرفض لقاء الاخوان، وقرى الضيف، واغاثة اللهفان ؟ ؟ »

شعر كعب بغير قليل من الحرج والخجل، ومن ناحية أخرى ان احداثاً كبرى تجري من حوله، وحب الاستطلاع يدفعه دفعاً لأن يعرف ما جد من أحداث، ان كعباً يريد أن يسمع لمجرد العلم، حتى يكون علي بينة، ان الحرب ستنطلق من حوله، ونيرانها ستتسع وتشمل القاصي والداني، ودخانها سيزكم الأنوف، فمن الضروري أن يعرف سيد قريظة، كعب بن أسد ما يدور حوله ...

وطأطأ كعب بن أسد رأسه وقال للحراس :

— « افتحوا له أبواب الحصن ... »

وما أن دخل حيي بن أخطب، حتى جذب كعباً من كمه، ودفعه إلى مكان قصي بالداخل لا يراهما فيه أحد، وكعب يتبعه مستغرباً، وأخيراً قال حيي :

— « أبشر يا كعب ... جئتك بعز الدهر ... جئتك بقريش حتى أنزلتهم « بمجمع الأسيال » وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب « أحد » ... قد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه ... »

وابتلع ريقه ، ثم عاد يقول :

— « اتسمع جيداً ؟ ؟ حتى يستأصلوا محمداً ومن معه ... »

---

(١) البر يطحن غليظاً.

قال كعب في انفعال :

— « أجل أسمع... وسمعت مثل هذا كثيراً قبل كل مأساة ... لتغلق فمك يا حيي... »

— « ليس هناك مدعاة للخوف، اذ أن وراءك عشرة آلاف بقضهم وقضيضهم ... »

قال كعب في مرارة :

— « لقد جئتني والله بذل الدهر، وكل ما يُخشى، فاني لم أر في محمد الا صدقاً ووفاء ... جئتني يا حيي بجهام[1] قد أهريق ماؤه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء...

وصمت برهة وجيزة ثم استطرد في اصرار :

— « ويحك يا حيي ... فدعني وما أنا عليه، فاني لم أر من محمد الا صدقاً ووفاء ...

ما جربت عليه غدراً قط، وما بدأنا بإساءة، وما حدث من قبل كان الخطأ منا، وعيب كامن فينا ... تلك هي الحقيقة يا حيي ... »

كشر حيي عن أنيابه، انقلبت سحنته، هدر في حنق :

— « ماذا جرى لك يا كعب بن أسد ؟ ؟ ما هكذا تكون الفطنة والسياسة ... الوفاء والصدق وحفظ العهود ... كلها كلمات يترنم بها الضعفاء ... لا ترفع لامرىء شأناً، ولا يقيم بها دولة . لو استطاع محمد افناءكم لداس كل العهود المواثيق ... أتعتقد أن محمداً سيتركنا اذا ما تمت له السيطرة على العرب ؟ ؟ فكر بعقل وروية يا كعب بن أسد ... وأمامنا فرصة العمر لن يجمع العرب هذا الحشد الضخم في أي وقت آخر من الأوقات ... ان المواثيق خدعة يلهو بها الأقوياء، ويضحكون بها على الضعفاء ... لن يكون هناك سوى يهودية أو إسلام فأختر أيهما، ولسوف يتضاءل كل نفوذ إلى جوار نفوذ محمد، وسيتقلص ظلنا، وتذوب أموالنا، ويضمر سلطاننا، ونتحول إلى قبيلة ضعيفة مطاردة من قبائل هذه الجزيرة ... هذا اذا سمح لنا محمد بمجرد البقاء إلى جواره ... لقد عاهدت قريشاً يا كعب عهداً لا ينقض ... لن ينصرفوا قبل القضاء على محمد ومن معه ... أتفهمني ؟ ؟

هز كعب بن أسد رأسه في حيرة وتمتم :

— « لست أدري ماذا أفعل، دعني أجمع لك عدداً من الرجال ... ان الأمر لا يخصني وحدي ... »

واستدعى كعب عدداً من بني قريظة، وتركهم يستمعون لكلمات حيي بن أخطب

---

(١) سحاب عظيم ليس فيه ماء .

وإلى حجته القوية وانفعاله الحار، وتعلقت به أبصارهم وهو يتحدث عن المستقبل الذي ينتظر اليهود، واحتمالات الموقف، وأخذ يصور لهم عالماً جديداً ... حيث لا محمد ولا أحد من المسلمين ... وحيث سلطات اليهود المطلقة ... حيث حرية التصرف في المال والتجارة والاستغلال ... واللعب بمصير القبائل وضربها ببعضها ... وحيث يعلو نجم اليهوذية، وتعلو التوراة ... كان يمزج الدين بالسياسة، والمال بالمجد، ويلعب بكل ما يستطيع اللعب به.

وأخيراً تكلم زعماء اليهود الحاضرين ...

قال الزبير بن باطا :

— « هذا كلام طيب، ولا بد من الانصياع لرأي حيي بن أخطب »

وقال عزّال بن ميمون :

— « مزقوا ما بيننا وبين محمد من مواثيق، اما نحن واما هو لا مكان لنا نحن الاثنين... »

وقال شاس بن قيس :

— « لقد شرد محمد اخواننا، وبعثر قوانا، قضى على مستقبل بني قينقاع وبني النضير لسوف يثلث بنا، فاضربوه ضربة رجل واحد ولا تفزعوا ... »

وقال عقبة بن زيد :

— « يا رجال بني قريظة ... لا تضيعوا الفرصة التي لن تتكرر ... ان مصلحة اليهود فوق كل العهود والمواثيق المقدسة ... لتذهب كل مواثيقنا مع المسلمين إلى الشيطان ... »
وبقي رجل واحد ظل صامتاً طيلة الجلسة، وهو « عمرو بن سعدي »، رفع عمرو بن سعدي رأسه ورمى الجلوس بنظرة قوية ثابتة لا تتململ، ثم قال :

— « استمعوا إلي جيداً يا زعماء بني قريظة، انني أخ لكم ولست بمتهم ... ولا أصدر في رأيي الا عن خبرة وتجربة وروية ... ان نقض العهد عاقبته وخيمة ومحمد ظل دائم الوفاء والصدق، حسن المعاملة ... اننا ملزمون بالقتال إلى جواره ... والدفاع عن المدينة حسب ما بيننا من عهود ... فكيف تبيحون لأنفسكم أن تشهروا السلاح في وجهه، وتعينوا عدوه عليه ... فلتثبتوا على العهد يا زعماء بني قريظة ولا تنصاعوا لرأي حيي بن أخطب... واذا لم تنصروا محمدا، فعلى الأقل اتخذوا موقف الحياد ... اذا لم تنصروا محمداً فاتركوه وعدوّه ... »

وحدث هرج ومرج، ان حيي يهاجم عمر بن سعدي، ويتهمه بقصر النظر، والتمسك بالمثاليات الجوفاء التي لا طائل من ورائها، ويرميه بالغباء، وعدم الاسراع في انتهاز

الفرص، ويسفه من آرائه السطحية الساذجة، وأنه ليس على مستوى المعركة الكبرى الوشيكة الوقوع، ولا على مستوى المسؤولية التي حملتها له بنو قريظة هو وغيره من الزعماء، عاد حيي يشرح الأمر، ويحلل الموقف تحليل السياسي الداهية البارع، ضارباً عرض الحائط بما يثيره عمرو بن سعدي من قضايا مثالية سخيفة لا تتفق ومستقبل اليهود ومطامعهم ...

وأخيراً اتفق الزعماء اليهود على تمزيق الصحيفة التي تتضمن العهد المعقود بين النبي ويهود بني قريظة، ايذاناً بنقض العهد، والانضمام للأحزاب، وأعلن كعب بن أسد وبقية الزعماء موافقتهم على حرب محمد، وضربه من الخلف ضربة في الصميم لا نجاة منها ...

أما عمرو بن سعدي، فقد أعلن رأيه النهائي :

— « لن أشترك في هذه الجريمة ... »

ثم استطرد في انفعال :

— « والله لا أغدر بمحمد أبداً ... »

فصاح حيي بن أخطب :

— « انصرف عنا، أنت وشأنك، لن يضيرنا أن يهرب من المعركة رجل واحد ... او ثلاثة والتضحيات يا عمرو لا يصمد لها كل الرجال ... »

وتركهم عمرو بن سعدي ومضى إلى بيته ...

وبعد فترة صمت قال كعب بن أسد زعيم بني قريظة :

— « انصت إليّ يا حيي بن أخطب ... هناك أمران لا بد من الوفاء بهما ... »

قال حيي في استفسار :

— « ماذا تريد ؟ ؟ »

— « أولاً ... لا بد من طرح الأمر على شعب بني قريظة في ميدان عام، وأنا واثق انهم سوف يستجيبون لمنطقك القوي ... »

— « والثاني يا كعب ؟ ؟ »

— « ثانياً ... أن نأخذ عليك العهود والمواثيق ان تبقى إلى جوارنا في حصوننا حتى يصيبك ما يصيبنا اذا رجعت قريش وغطفان دون ان تقضي جيوشها على المسلمين قضاء تاماً ... »

وضحك حيي ضحكاً متواصلاً حتى كاد يستلقي على ظهره ... ثم قال :

- « موافق ... أتعتقدون أن محمدا سيجد فرصة أخرى لمحاصرتكم مرة ثالثة ، والانتقام منكم ؟؟ عشرة آلاف ... أتفهمون ما معنى عشرة آلاف ؟ ؟ ومحمد ليس معه سوى ألف جندي ثلثهم من المنافقين ... والثلث الثاني جياع عراة والثلث الاخير ... سوف يمزقه الفزع والبرد والمصير المحتوم ... انها النهاية أيها الرجال ... وأنا إلى جواركم ... داخل حصونكم ... حتى نشهد معا ذلك المشهد العظيم ... محمدا وصحبه ... وهم ملقون على الثرى تنزف منهم الدماء ... وتلطخهم الأوحال ... انني معكم لنرى زوجات محمد وزوجات اصحابه من المهاجرين والانصار ... أسارى ... يتساقين كؤوس الذلة والهوان ... ويمضين مطأطئات الرؤوس ... ساكبات الدموع يجلل العار موكبهن الحزين .. معكم ... حتى نرى معاً ... أنف عمر بن الخطاب يمرغ في الرغام ... ولحية أبي بكر تخضبها الدماء وجبهة علي بن أبي طالب تحت الأقدام ... معكم يا بني قريظة ... في حصونكم المنيعة حتى النصر ... »

وصمت برهة ، ثم أصدر أوامره قائلاً :

- « يا كعب بن أسد ... هيا إلى الميدان العام ، ولتدع شعب بني قريظة إلى اجتماع عام ... يجب أن يتم كل شيء على وجه السرعة ... »

وابتسم حيي في دهاء وقال :

- « عندما يعلم محمد بنقضنا للعهد ، سينهار... سيرى اليهود من خلفه ، والأحزاب من أمامه ، والموت يحيط به من كل مكان ...

عندئذ سوف يعلن استسلامه ... بدون شروط ... أجل بدون شروط ... عندها سنقرر ذبح المحاربين ، وسبي النساء والذراري ... وأخذ الأموال غنيمة ... وينتهي كل شيء ... وتصبح قصة محمد قصة طريفة... ترويها العجائز للأطفال في الأمسيات القمرية الجميلة ... ها ... ها ... ها ... »

الفصل الثالث والعشرون

وقف حيي بن أخطب « وسط شعب اليهود من بني قريظة، وأخذ يجادلهم ويعتب عليهم :

— « يا معشر اليهود، ماذا تنتظرون ؟ ؟ لقد توافدت العرب من كل مكان للاطباق على محمد وجماعته، انها حرب لم ير محمد لها مثيلا، لقد أتى الطامعون من رجال القبائل، والحاقدون من كبار التجار في مكة، والساخطون من ارباب الأمجاد والسلطات الدينية القديمة ... والموتورون ممن أصيبوا في معركة من المعارك على يد المسلمين ... وعلى رأس هؤلاء أبو سفيان بن حرب من قريش، والحارث بن عوف من غطفان، ومسعر بن رخيلة من أشجع والله لتندمنّ على تقاعسكم يا بني قريظة، ولتلعننّ كل من دعاكم إلى الانكماش والوقوف موقف المحايد ... انظروا الآلاف المحيطة بالمدينة ... ولولا الخندق الذي حفره الخبثاء من رجال محمد لتدفقت قواتنا داخل المدينة، وانتهت المعركة بين يوم وليلة ... »

قال أحد الشيوخ من يهود بني قريظة :

— « أنت تعلم يا ابن اخطب ان بيننا وبين محمد تحالفا ... »

— « أي تحالف تقصد، إنك تراه يكاد ان يسقط بين سيوف القادمين من انحاء الجزيرة؟ »

— « لكأنك تريد أن تقول لنا ان التحالف لا قداسة له الا مع الأقوياء ... فاذا ما انتاب الضعف طرفا من الأطراف، فلا عهد له ولا ميثاق ... »

قال حيي بن أخطب في شيء من الضيق :

— « اني أرى فرصة ذهبية لإعادة مجدنا في الجزيرة وانقاذ بني قينقاع وبني النضير المضيعين في البوادي، والاجهاز على قوة محمد والمسلمين ... تلك فرصتنا الوحيدة، فاذا آزرنا المسلمين ، فلن نحقق من وراء صمودهم شيئاً يذكر، بل اني اعتبر ان كل نصر يحققه المسلمون انما سينعكس علينا في المستقبل وبالا وهزيمة، وكل تقاعس منا سيجعل قريشاً والقبائل تنظر الينا نظرتها إلى المسلمين ... ومن ثم نعرض أموالنا وانعامنا للسلب، ونساءنا وذرارينا للسبي ... اننا يا معشر اليهود في موقف اختيار، ولا بد ان نحسم الموقف

بسرعة ... » اقترب أحد رجالات بني قريظة من « حيي بن أخطب »، وأمسك بذراعه وأخذ يهزه في حنق وأخذ يقول في انفعال ظاهر :

— « اننا لا نستفيد من أخطائنا، بل ربما يكون بنا ميل موروث للشر والتردي في الخطأ ... لم لا تفكرون فيما حدث لبني قينقاع وبني النضير ؟ ؟ ؟ »

قاطعه حيي قائلا :

— « انني لا أطلب منكم ما أطلبه الا انقاذاً لمن بقي من اليهود، ومحاولة لاعادة بني قينقاع وبني النضير إلى ديارهم ... فكيف تتهمنا باننا لا نفكر فيهم ؟ ؟ »

رفع الرجل يده صائحاً :

— « أعني التفكير في مصيرهم بسبب ما وقعوا فيه من أخطاء ... »

قال حيي بن أخطب :

— « قد يكون تهور بني قينقاع وبني النضير من بعدهم خطأ فاحشا ... وصور الخطأ تتغير من وقت إلى آخر ... لقد تحرك بنو القينقاع في وقت غير مناسب، وبطريقة خاطئة وكذلك فعل بنو النضير، اما هذه المرة بالنسبة لكم يا بني قريظة، فان رويتكم وتعقلكم واعتصامكم بالعهد الذي بينكم وبين محمد سيكون حماقة ... حماقة كبرى هذه المرة...
وصاح رجل في مؤخرة الصفوف :

— « يا أبناء عمومتنا ... لا ندري ماذا نفعل، ان الذين يحاربون محمداً يظهرون دائماً تفسخاً وفوضى في نظامهم وقيادتهم وخططهم ... انهم يعرضون أنفسهم وحلفاءهم للخطر دائماً ... انهم يبدون منهزمين حتى في أوج انتصاراتهم ... اما محمد واتباعه فهم يعرفون ما يفعلون ... متماسكون حتى في أوقات الهزيمة ... حذرون حتى في نشوة ساعات النصر »

صرخ حيي بن أخطب :

— « لكل مقام مقال، أجئت لتقنعنا بضرورة الانصياع لمحمد والانضواء تحت رايته؟؟ »

قال الرجل في حزم :

— « أجل ... »

استشاط حيي غضباً وقال :

— « ايها المجنون، لو كان محمد يعرف أن لديه أقل أمل في النصر لما أختبأ وراء هذا الخندق، ولما لزم المدينة وظل متحصناً بها، لائذا ببيوتها وطرقاتها وموانعها ... ان عدم

خروج محمد إلى الميدان المكشوف ليس له سوى معنى واحد الا وهو أنه أضعف من أن يجابه هذه الحشود، ومن ثم فان نهايته قد قربت ... ان كل هم محمد هو الدفاع ... الدفاع ولا شيء غير ذلك، أتفهمون ؟ ؟

وسادت فترة صمت قال حيي بن أخطب بعدها :

— « ألا فلتعلموا ان هزيمة محمد مؤكدة، وهذه حقيقة يلمسها اقل الناس خبرة واوسطهم عقلا ... ألا فلتعلموا ان الاحزاب سوف يأخذون الاسلاب والسبايا من المدينة ... فاذا لم تضربوا بسيوفكم إلى جوار الأحزاب فستقعون أنتم ايضاً في ايدي المهاجمين ... لانكم ستكونون آنذاك حلفاء لمحمد، وشركاء للمسلمين في الهزيمة والاثم ... »
وأخذوا يتداولون الرأي فيما بينهم، وبدا جلياً أن الأمر ليس امر تحالف مع محمد، فما أسهل ان ينقض اليهود عهودهم، ولكن الحوار كان يدور حول المستقبل، ولمن تكون الغلبة، وان تردد اليهود في نقض عهدهم ليس بسبب الوفاء والصدق، وانما الخوف من تقاعس الاحزاب، وانفراد محمد بهم بعد ذلك، ومن ثم التنكيل بهم او على الاقل طردهم كما طرد من قبل بنو قينقاع وبنو النضير، وظل حيي بن أخطب يشرح لهم وجهة نظره باستفاضة وأخيراً قال :

— « يا بني قريظة ... ان المعركة القائمة تعلق عليكم آمالا كبيرة ... فالمسلمون الآن يعرفون جيداً انكم معهم، وتحمون ظهورهم، وتوازرونهم على عدوهم ... ان صمودكم إلى جوار المسلمين هبة من السماء اليهم ... والآن، أتدرون كيف يكون وقع انفصالكم عنهم، واعلانكم الحرب عليهم ؟ ؟ اتدرون ماذا يحدث ؟ ؟ لسوف ينهار المسلمون انهياراً تاماً ... سوف يسقطون اعياء ويأسا، معنى ذلك أن العرب قد حصروا المسلمين في حيز ضيق لا نجاة منه ولا مهرب ... لقد فقد المسلمون النصير والحليف ... ان انقلابكم على المسلمين يا بني قريظة سيكون العامل الحاسم في الحاق الهزيمة بهم ... ولهذا فأنا أدعوكم للحركة السريعة، ومرونة التصرف قبل أن تضيع الفرصة إلى الأبد .. الآن لتأت ملائكة السماء ... ان الملائكة لن يجدوا ثغرة او فرصة لحماية النبي المزعوم »

وسمعت ضجة وسط الساحة التي اجتمع فيها كبراء اليهود من بني قريظة، وصمت حيي بضع لحظات، ثم اتجه إلى الحارس الواقف إلى جواره وقال :

— « ماذا هناك ؟ ؟ هل داهم المكان أحد من المسلمين ؟ ؟ »

ابتسم الحارس في مكر وقال :

— « وكيف يخلصون الينا ؟ ؟ ان امرأة يهودية تلح في لقائك ... »

— « امرأة ؟ ؟ من تكون ؟ ؟ »

وانقذفت فجأة إلى داخل المقصورة المقامة، ودفعت الحارس دفعاً قوياً حتى كاد يسقط

— « ألا تعرفني يا حيي بن أخطب ؟ ؟ ألا تعرفونني يا معشر اليهود ؟ ؟ انني اشم رائحة غدر جديد ... وبالتالي أشم رائحة مأساة جديدة ... لقد انذرتكم أيام بني قينقاع وحذرتكم في بني النضير ... أتذكر ذلك يا ابن أخطب أنت والملعون الصريع عمرو بن جحاش ؟ ؟ أتذكر كيف وضعتموني في سجن، وقيدتم ساقي وغللتم يدي ؟ ؟ لقد جئت لأقول لكم كلمة واحدة يا يهود بني قريظة ... »

صاح رجل وسط الجالسين :

— « ما هي ؟ ؟ »

قالت اليهودية بصوت يخالطه البكاء :

— « جربوا الوفاء مرة ... مرة واحدة ... »

ثم ابتلعت ريقها وأخذت تقول :

— « لقد سرتم في طريق الغدر والخيانة، فلم تجنوا غير الشوك والمرارة والضياع والتمزق لماذا تحاربون محمداً ؟ ؟ انه لم يرغمكم على اعتناق دينه، ولم يسقكم إلى حظيرة الاسلام بسيفه، ولم ينكث بعهد، ولم ينقض اتفاقاً معكم ... لكنكم دائماً تشعلون الحرب ضده فاذا ما أخذكم بجرمكم حملتم عليه ورميتم المسلمين بكل نقيصة ... » قال حيي بن أخطب في شيء من الضيق :

— « نستطيع الآن أن نعاملك كعاقلة، على ان تقفي بهدوء وتناقشي الامر معنا ... اما ان تبكي وتثوري فهذه وسيلة لا أقرها في الوصول إلى الحق ... »

رمته بنظرات متشككة وقالت :

— « انك تعاملني برقة لم آلفها فيك، يبدو ان في موقفك ضعفاً، وان بني قريظة يعارضون أفكارك ...

— « ما هكذا تكون بداية الحوار يا امرأة ... »

— « انك يا حيي بن أخطب تحمل وزر الذاهبين من بني قينقاع وبني النضير، ولا اريد ان تضم اليك وزراً ثالثاً ... لا ... مثل هذا الوزر سيكون رهيباً ... »

وبذل حيي أقصى ما يستطيع من جهد كي يدخل في روعها أن أمر محمد قد انتهى، وان الهزيمة ستحيق به سواء انضم اليهود اليه او إلى الاعداء، وان الهدف من هذا الاجتماع هو الاسراع في الانحياز لاعداء محمد حتى يحقق اليهود كسباً بأدنى ثمن، بل لعله بلا ثمن على

الاطلاق، ولم توافق اليهودية على هذا المنحى من سرد الاحداث وتفسيرها، لقد كان يلح على فكرها، شيء واحد وهو ان هناك عهداً بين اليهود والمسلمين لا يصح ان ينقضه اليهود وان التجربة اثبتت ان الغدر قد جر على اليهود الوبال دائماً ... والكارثة انهم لا يتعلمون...

وقالت اليهودية وهي تنصرف حانقة :

— « لقد بعث اليكم محمد برجاله بالأمس يسألكم عن عهودكم ... أتذكرون بماذا أجبتم ؟ ؟ لقد أخبرتم الرسل انكم على العهد، وأنكم في صف المسلمين ضد الاعداء المهاجمين للمدينة ... اذكروا هذا جيداً ... وتصوروا انفسكم في وضع محمد ورجاله ثم انقضت عليكم خيانة كالتي تنوون ارتكابها ... ماذا يكون شعوركم ؟ ؟

يا حيي بن أخطب ... ان دم الرجال في عنقك ... يا حيي بن أخطب ان سبي النساء والذراري في عنقك ... يا حيي بن أخطب انت المسؤول عن رحلة الضياع والشقاء الطويلة ... »

●

كان الليل حالك السواد، شديد البرودة، ومع ذلك فقد كان جبين حيي بن أخطب ينضح بالعرق وهو يترك مكان الاجتماع ومعه جماعة من كبار اليهود، عازمين على زيارة بعض الاحبار للاستنارة برأيهم، ولم يجد حيي كبير مشقة في اجتلاب رضى الاحبار وانصياعهم لرأيه، وتحمسهم له، ثم أخذ « حيي » يشرح الطريقة التي ينقض بها اليهود على المسلمين وهم حول الخندق ... ان اليهود اذا استطاعوا اثارة الاضطراب في المدينة، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف، فسوف يحصرون المسلمين بين الخندق وبينهم ... ولا يمكن للمسلمين ان يدافعوا عن الخندق وفي الوقت نفسه يتصدون لمناوشات اليهود، وبذلك ستكون هناك فرصة طيبة لقريش والاحزاب، ومن ثم يمكنهم عبور الخندق الذي شكل عائقاً حقيقياً في وجه المهاجمين ...

وتطلع حيي بن أخطب عبر الظلام إلى بعيد ... إلى حيث تنتشر نقط النيران المضيئة إلى مسافات بعيدة حول المدينة ... وقال حيي في سعادة :

— « انظروا إلى نيران الاحزاب... انها تبدو كعيون الشياطين... ثم انظروا إلى المدينة والنار تحيط بها ... ترى إلى اين يهرب محمد هذه المرة ؟ ؟

اليوم يوم السيف والدم ... وليس فيه مجال للمعجزات ... بشرى ... بشرى يا يهود بني قريظة انتم الصخرة التي تحطمت عليها آمال محمد ... رسول الله ! ! » قالها ساخراً ثم مضى ...

الفصل الرابع والعشرون

حملت الأنباء إلى الرسول نوايا الغدر اليهودي، بل أكدت له عيونه ان بني قريظة قد نقضوا العهد، وانحازوا للأعداء، تألم الرسول ألماً شديداً، وحز في نفسه ان يغدر أهل الكتاب به في هذا الوقت العصيب، ومع ذلك فقد بقي شيء من الامل يراوده، ألا يجوز أن يكون في هذه الانباء المزعجة مبالغة ؟ ؟ واذا صدق الرواة ألا يمكن ان يعدل بنو قريظة عن غدرهم ونقضهم للعهد ؟ ؟ ان اجراء نوع من المفاوضات، يصحبه شيء من التذكير والتحذير، او النذير اللبق، قد يؤدي إلى خير في موقف هؤلاء المشبوهين ... ثم ان الرسول يريد ان يستوثق من صحة الخبر، حتى يمكنه ان يدبر شئونه، ويدبر أموره على أساس الحقائق التي جدت في الموقف، لهذا استدعى زعيمي الأوس والخزرج، واثنين آخرين من الانصار، وشكل منهم وفداً إلى بني قريظة، وحين بلغ الوفد بني قريظة، أدرك سعد بن معاذ سيد الأوس، وحليف اليهود في الجاهلية ما يرتسم على وجوههم من شماتة خفية، وحقد دفين وحين دلف إلى الحصن اليهودي الرئيسي حيث ينتظره زعماؤهم، همس في أذن سعد بن عبادة زعيم الخزرج :

— « اني أرى في عيونهم الغدر... »

— « هؤلاء الانجاس يا ابن معاذ لا أمان لهم ... »

— « لننتظر حتى نرى ... »

التأم شمل الوفدين، وفد الرسول، ووفد زعماء قريظة، وأخيراً قال سعد بن معاذ حليفهم القديم :

— « أي بني قريظة ... انكم ترون الاعداء يحاصرون المدينة من كل جانب، بل ان المناوشات قد بدأت فعلا... وبيننا وبينكم يا بني قريظة عهد. والعدوان علينا عدوان عليكم وفي مثل هذه الاوقات الحاسمة يجب ان توضع المحالفات موضع التنفيذ ... فما كانت هذه المحالفات بذات قيمة اذا لم تطبق تطبيقاً أكيداً ... ولقد ارسلنا النبي لنرى رأيكم في هذه الامور الخطيرة ... »

قال كعب بن أسد :

— « إن محمداً يجر على نفسه الوبال، ولسنا على استعداد لدفع الثمن من دمائنا واموالنا من أجل أخطائه وعداواته ... »

قال سعد بن معاذ :

— « ما معنى هذا الكلام ؟ ؟ »

قال كعب : — « معناه واضح ... نحن لا نعادي قريشاً، وليس بيننا وبين غطفان او أسد او غيرهما من القبائل ثارات قديمة ... فلم يريد محمد ان يجرنا لحرب هؤلاء ؟ ؟ »

قال سعد بن معاذ :

— « يا حلفائي الأقدمين ... اننا لا نجركم لحرب ، بل ندعوكم للدفاع عن أرضكم التزاماً بما بينكم وبين رسول الله من اتفاق ... »

احتقن وجه حيي بن أخطب غضباً وقال :

— « من هو رسول الله هذا ؟ ؟ اذا كان رسول الله حقاً فلينقذ نفسه من هذه الورطة...

أنبي مرسل من عند الله ويستجدي عوننا ؟ ؟ »

صاح سيد الخزرج سعد بن عبادة، وكان حاد الطبع، شديداً في الحق، وقال :

— « أيها اللؤماء ... الزموا حدودكم ... أتسخرون من رسول الله ؟ ؟ ماذا تظنون ؟ ؟

قال كعب بن أسد متدخلا :

— « إننا لن نغفر صفاقتك يا سيد الخزرج، ونستطيع أن نؤديك بسيوفنا ... »

هاج ابن عبادة وماج، لكن ابن معاذ برغم انه لم يتجاوز الأربعين — كان لبقاً حكيماً هادىء الطبع فجذب ابن عبادة من كمه، ودعاه إلى الصبر والهدوء، وذكر له ان الامر أكبر من العنجهيات والشتائم ...

وعاد سعد بن معاذ يوجه حديثه إلى كعب بن أسد :

— « يا كعب ... اننا ما جئنا لنشعل فتنة، أو نثير شقاقاً، بل جئنا لنرى ما أنتم عليه بخصوص ما بيننا وبينكم من عهد ... »

قال كعب في حدة :

— « لا عهد بيننا وبين محمد ... »

— « كيف ؟ ؟ »

عض كعب على شفته السفلى وقال :

— « الآن جئتم تطلبون منا الوفاء بالعهد الذي بيننا وبين محمد، وهو الذي كسر جناحنا، وأخرج اخواننا من بني النضير ؟ ؟ اذهبوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ... »
انتفض سعد بن عبادة وهتف مغتاظاً :

— « ان هؤلاء السفلة يظنون ان بيدهم الحياة والموت ... »

قال كعب ساخراً :

— « لماذا جئت الينا اذن يا سيد الخزرج ؟ ؟ »

— « جئت لاعلمكم درساً في الوفاء وحفظ العهود ... »

— « اللعنة عليك وعلى آلك ... »

وكادت تنشب معركة لولا ان اسرع سعد بن معاذ بالامساك بصاحبه، وهزه بعنف وعاد يكرر له خطورة المهمة التي قدموا من اجلها، ودقة الظروف التي يجتازونها، وضراوة المعركة التي تنتظرهم ، ومن ثم لا بد من الصبر والهدوء وكظم الغيظ ...

وعاد سعد بن معاذ يقول لزعماء اليهود :

— « يا بني قريظة ... أنتم تعرفون ودي اياكم، وصداقتي المتينة لكم، وتعرفون ما يكنه لكم قومي من الاوس من مشاعر طيبة، وذكريات أصيلة ... وحلفاؤكم في الماضي يتمسكون بالرباط الوثيق الذي يربط بينكم وبين الرسول ... وما عهدنا عليكم بالأمس القريب غدراً ولا نقضا، فلماذا تدوسون اليوم مقدسات العهود ؟ ؟ »

صوت واحد رد على سعد بن معاذ خالف الاصوات اليهودية كلها، انه عمرو بن سعدى .

— « أي سعد ... ان كلماتك تجد صدى طيباً في نفسي ، واني لأقرك على كل ما تقول حرفاً حرفاً ، فنحن لم نلق من محمد خيانة ولا نقصاً » ...

هاج الزعماء القريظيون، ورموا عمرو بن سعدى بالجبن والضعف، وجروه خارج الاجتماع ، وأكدوا لوفد الرسول اصرارهم على نقض العهد، وتحملهم لكافة التبعات، ورفضهم حتى موقف الحيدة ...

قال سعد بن معاذ :

— « هذه خطيئة لا تغتفر »

ــ « ليكن ... » قالها كعب بن أسد ساخراً، فرد سعد بن معاذ

ــ « ولها عواقب وخيمة ... »

ــ « ماذا تعني ؟ ؟

ــ « قد تقضي على كل علاقات الود القائم بينكم وبين المسلمين ... »

قهقه حيي بن أخطب قائلا :

ــ « ان بقي بالمدينة مسلمون بعد ذلك ... »

ــ « ان الله لا يخذل أولياءه يا حيي بن أخطب ... »

ــ « نحن أولياء الله وأحباؤه يا بن معاذ ... »

ــ « أولياء الله لا يدوسون العهود يا حيي ... »

ــ « انهم يدوسونها من أجل الله ... »

ــ « اتؤمن بذلك حقاً يا حيي ... »

ــ « انني أكرهكم ... ولن أحفظ لكم عهداً بعد اليوم ... »

قال سعد بن معاذ :

ــ « أتسمعون يا بني قريظة ؟ ؟ أتوافقون على كلمات حيي ؟ ؟ ما رأيك يا كعب بن أسد ؟ ؟ ألا وانني لأخاف عليكم يوماً مثل يوم بني النضير أو أمر منه ... »

وكم كانت دهشة سعد بن معاذ حينما تناهى إلى سمعه كلمات خسيسة تنضح بالفجور والبذاءة .

تقاطر العرق على جبينه، وارتعدت مفاصله، لكنه تماسك ... وطأطأ رأسه أسى وحزناً وخجلاً امام تلك الكلمات البذيئة، ثم قال سعد .

ــ « غير هذا القول كان أجمل بكم وأحسن يا بني قريظة ... »

وأخذ يجفف عرقه ويقول :

ــ « لقد جئتكم آملا، ويدفعني ود قديم، وآصرة لم تبل، وخشيت عليكم الدوائر، وجئتكم ايضاً لأقوى ظهري بعهدكم وسيوفكم في هذه الململة ... الا وان الله أقوى

الاقوياء ... ولو اجتمع أهل السماء والارض على أن يضرونا بشيء، لن يضرونا الا بشيء قد كتبه الله لنا ... والله يختص برحمته من شاء ... انني عائد لرسول الله، بعد أن أصابني اليأس منكم ... الا وان لكل غدرة عقابا ... »

قال كعب بن أسد ساخراً :

— « انصرفوا عنا، فلن يوثر تهديدكم في موقفنا ... ان بيننا وبينكم من العداء هوة سحيقة ليس بالمستطاع عبورها ... »

وخرج الانصار الاربعة من حصون اليهود المنيعة، ورأوا بأعينهم كيف تعد قريظة الرجال والسلاح وكيف يقوون الحصون، ويقيمون المتاريس، ويستعدون للحرب، وتمتم سعد بن عبادة وهم في الطريق : — « لوددت أن انقض على عنق بن أخطب بأسناني هذا الملعون هو الذي ركب رأس ذلك الزحف الاسود، وقاد موكب الحقد المجنون، القادم من غطفان وقريش، وهو الذي أوعز لبني قريظة .. »

قال سعد بن معاذ :

— « صبراً يا ابن عبادة ... انني أضرع إلى الله ألا ألقى منيتي حتى يزول الشر، وينحسر ظل الاعداء، وينتصر المسلمون ... ثم أرى بني قريظة ... أراهم وقد انصرف عنهم ما حشدوا، وبقوا وحدهم يغتالهم الرعب والجنون ... لكم أتمنى أن أحيا وأرى هذه الأمنية تتحقق ... »

وتمتم بن عبادة :

— « أجل ... كانوا يتكلمون في غرور، ويلتفتون في صلف، ويومئون في صفاقه ... يتصرفون وهم واثقون ان العدو قادر تماماً على سحقنا ... اعترف ان موقفنا عصيب، وان اعداءنا تكاثروا علينا من كل جانب ... وان المعركة عنيفة وقاسية ... لكني لن أعيش حتى أرى الهزيمة التي تحيق بنا « لن أعيش حتى أرى قريظة تسقيني كأس الهوان ... فسأظل أحارب ولو بقيت وحدي حتى الموت ... أتسمعني يا بن معاذ ؟ ؟ حتى الموت... والله لبطن الارض خير من ظهرها ...

وعادوا إلى الرسول ليحملوا اليه تأكيد الانباء السيئة التي سمعها عن قريظة، وليعلنوا له وحده ان اليهود غدروا، وانهم رفضوا حتى الالتزام بموقف الحياد، وانهم انحازوا صراحة للاعداء ...

وهمس سعد بن معاذ :

— « سيكون ذلك شديد الوقع على رسول الله ... »

الفصل الخامس والعشرون

« هذا يوم عصيب » تمتم عمر بينه وبين نفسه، ولم يكن بحاجة لكي ينطق بهذه العبارة، ان الانفعالات الواضحة على وجهه تعبر تمام التعبير عن الموقف الشائك، ونظراته المضطربة التي يبعث بها عبر الخندق إلى بعيد ... إلى حيث توافدت قريش وغطفان وأسد وغيرهما... وانهماك المسلمين في تجهيز الخندق، والتناوب في حراسته، واشتراك الرسول في الحفر وحمل الأتربة، وحث الجنود على العمل المتواصل، كلها تنبي عما كان يعتمل في نفس عمر بن الخطاب من اضطراب والم، انه يشعر بما يشبه الاختناق، يلتقط انفاسه بصعوبة بالغة، العالم في عينيه أضيق من سم الخياط ... لكأنما يشعر أن من حولهم بحاراً من الشر والحقد تموج وتمور ... العابثون من غطفان يريدون الغنائم، والمتغطرسون من قريش يرفعون سيوفهم من أجل كبرياء فارغة، ورجال التجارة لا يحملون بغير الدرهم والدينار، وبضائع الشام الجميلة ... مصالح وعبث وحماقات ... انهم لا يدرون ان هناك ما هو اعظم وابهى من ذلك كله ؟ ؟ الايمان بالله . الدعوة إلى الله ... لماذا لا يفكرون في حياد وروية ... انهم ان نالوا الدعوة الاسلامية، وحطموا معقلها، فسيخسرون كثيراً ... هم الخاسرون اولاً واخيراً ... والله — في النهاية — متم نوره ولو كره الكافرون ... أفكار كثيرة تتصارع في رأس عمر، ومن آن لآخر يتمتم في شرود « هذا يوم عصيب »

ومال سلمان الفارسي على اذن عمر قائلا :

— « لسوف يدفعون الثمن غالياً لو فكروا في عبور هذا الخندق ... »

— « الخندق وحده لا يكفي يا سلمان ... »

— « بالطبع يا عمر ... ان السيوف المؤمنة التي تحرسه ستجعل له قيمته الكبرى... »

تنحنح عمر وقال :

— « لولا هذا الخندق لاستمر القتل في شوارع المدينة، ولكانت الآن ميداناً رهيباً ومسيلاً للدماء ... شكراً لك يا سلمان ... »

ومر في ذلك الوقت شاعر الاسلام المعروف « حسان بن ثابت »، كان يهرول في عجلة .

قال عمر « إلى أين يا حسان ؟ ؟ »

— « انني اجهز عدتي للقيام بواجبي »

قال عمر :

— « وهل عدتك غير القرطاس والقلم ورصف أبيات من الشعر ؟ ؟ »

— « ماذا يا عمر ؟ ؟ الا تعلم ان الرسول قد جمع النساء والاطفال في بيوت قوية البنيان متينة التحصين ، حتى لا يستطيع الاعداء ان يتسللوا اليها اذا ما استطاعوا دخول المدينة ؟ ؟ انني سأشترك في حراسة هذه البيوت ... »

وعاد عمر يبعث بنظراته هنا وهناك ويردد في أسى :

— « على الرغم من كل الاحتياطات التي نتخذها ... فإنه يوم عصيب ... »

ثم التفت إلى سلمان قائلا :

— « لماذا يستسلم الرجال عند اليأس ؟ ؟ »

قال سلمان :

— « يستسلمون لانه لم يعد هناك شيء يحاربون من أجله ... ولم يعد هناك جدوى من التضحيات ... »

صاح عمر بن الخطاب في انفعال :

— « كيف ؟ ؟ اليأس موت ... الاستسلام موت ... لا بد من مواصلة الحرب ، اليأس والاستسلام هما الهزيمة ... الموت ليس هزيمة انه استمرار للجهاد ... مقاومة للهزيمة ، زحف نحو النصر والجنة ... ولذلك لو استطاع الاعداء عبور هذا الخندق ، فسنواصل الدفاع حتى آخر رمق ... »

هتف سلمان :

— « الجهاد حتى النهاية ، وانما كنت أجيبك على سؤال عام ، اما هنا فلن نستسلم ... »

— « لن نستسلم — بعون الله — يا سلمان . »

الجو شديد البرودة ، وأيدي الرجال تصلبت على مقابض السيوف والرماح ، وعيون الرجال مفتوحة تشق الظلام تكاد لا تطرف ، والصمت الرهيب يبسط رواقه فوق آفاق المدينة والروابي التي تحيط بها ، وأطراف الرجال لا ترتعد او ترتعش على الرغم من الهول والبرودة القارصة ...

تمتم عمر :

— « برغم الأهوال فانني أرى شيئاً رائعاً ... يا سلمان »

— « ماذا ترى ؟!؟ »

— « إنني أرى في أعين الرجال عزماً لا يموت ... »

— « أجل ... »

— « لا أستطيع أن أتصورهم يتراجعون أو يهزمون .... إنني أرى الآلاف يحيطون الآلاف يحيطون بالمدينة وأرى الشر يتربص بنا الدوائر ، لكني أشعر انه كل ذلك هباء ... »

قال سلمان محاولاً المزاح :

— « يبدو أنك تعلّمت الشعر من حسان ... »

— « إنني أرى ما أرى بقلبي ... »

— « أجل ... »

— « اليوم يوم عصيب ... لكن الله معنا ... »

وأتى علي بن أبي طالب ، ومال على أذن عمر ، وهمس ببضع كلمات ، فاعتدل عمر على أثرها ، وقرب حاجبيه في دهشة ، وساد الشحوب وجهه ، وقال ولحيته ترتجف :

— « هل فعلوها ؟ ؟ »

قال علي — « أجل ... »

قال عمر — « بنو قريظة ... »

وأردف علي قائلاً :

— « لقد اشتد الكرب بالمسلمين ، وبلغت القلوب الحناجر يا عمر ، إنها لحظات حرجة وحساسة ... كيف يجرؤ اليهود على نقض العهد ، في ذلك الوقت العصيب ؟ »

ورد أحد الحاضرين :

— « إن خروجنا من هذا المأزق يبدو مستحيلاً ... »

وقال عمر :

— « خيانة بني قريظة طعنة في الصميم ، لقد هدمت ثلاثة أرباع خطتنا ... لقد انكشف

ظهرنا لهم وللأعداء ... إنهم يريدون لنا الفناء المحقق ... أهكذا يكون الحلفاء ؟ ؟ لقد ظهرت نواياهم آخر الأمر، لو انتصر الاعداء فسيفعل اليهود بنا الأفاعيل ...»

وقال رجل من الصحابة :

— « يا عمر ... لقد قدمت غطفان وغيرها من القبائل طمعاً في الغنائم والأسلاب ، إنهم لا يفكرون في عقيدة، ولا يحاربون من أجل دين ... فلم لا نحاول الاتصال بهم ونعقد معهم صلحاً منفرداً على أن نعطيهم كل عام جزءً من ثمار المدينة ؟ ؟ يجب أن نفكر في حل يحفظ لنا قوتنا بل وجودنا حتى ينمو عودنا ويشتد ... الحرب خدعة، ومداراة ... يجب ان نبحث عن أسلحة أخرى نخذل بها أعداءنا، ونلوح بالغنيمة لبعضهم، ونترك البعض الآخر ... »

قال عمر :

— « هذا تصرف لا يروق لي، ولكن اعرضوا الامر على الرسول، والانصار ... »

●

انطلقت مجموعة من رجال قريش على رأسها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل، واندفعوا تحت وابل النبل عبر الخندق، وما ان عبروه حتى التحموا في معركة محدودة، استطاع علي بن أبي طالب خلالها أن يقتل عمرو بن عبد ود أحد فرسان قريش المعدودين، ونفذ المسلمون خطة الرسول، وهو قطع المدد عن هؤلاء العابرين المغامرين، ثم ضربهم بشدة مما جعل المهاجمين يفرون خارج الخندق، عائدين إلى مراكزهم الاولى بعد أن خسروا عدداً من الرجال ...

وقال عكرمة بن أبي جهل وهو ينسحب :

— « لقد خيّل إليّ بعد أن وجدت الخندق يفصل بيني وبين رجالي أنني في أرض بعيدة غريبة ... وانه ألقى بي في أعماق الجحيم ... ورأيت عمر بن عبد ود يسقط مضرجاً بدمائه، دون أن أستطيع مساعدته ... إن هذا الخندق الملعون كان تدبيراً محكماً ... السيف في المعارك لا يكفي وحده أيها الرجال ... انظروا إلى المسلمين إنهم قلة في العدد، على مساحة من الارض ضيقة ... لكني رأيتهم بعيني يجلسون كالنمور ... يفتحون عيونهم جيداً على كل ما يحدث ... يقيسون كل حركة، ويفعلون أي فعل حسب تدبير سابق ... » وأدرك الجميع بعد التجربة السابقة، أن الخندق يشكل عقبة قاسية، وأن الحصار قد يطول، والبرد الشديد، والقبائل لا طاقة لها على حصار طويل الأمد، فهم في حاجة إلى طعام وغطاء، وفي حاجة إلى سرعة التنفيذ في هذا الزمهرير القاتل ...

ونما إلى سمع « حيي بن أخطب » أن شيئاً ما يجري بين قبائل غطفان وبين الرسول، فاستشاط غضبا، وأرغى وأزبد، وذهب إلى زعيمهم الحارث بن عوف :

— « ألا فاعلم يا حارث أنني خبير بخفايا محمد وعميق أفكاره، وبعد نظره ... »

قال الحارث مقاطعاً عليه استرساله في الحديث :

— « اذا كنا نستطيع أن نحقق ما نصبو اليه دون إراقة دماء، ودون أن نخسر رجلا واحداً أو نضيع وقتا، فلماذا نصر على الحرب ؟ ؟ »

قال حيي بن أخطب غاضباً :

— « كيف ذلك يا حارث ؟ ؟ »

— « إن المسلمين على استعداد أن يعطونا كل عام ثلث ثمار المدينة إذا رجعنا إلى ديارنا وانصرفنا عن حربهم ... وإني اعتبر هذا العرض كسباً كبيراً لنا، ثم انه يعني استسلام المسلمين لقوتنا، وخوفهم منا، فلن يستطيعوا في المستقبل أن يرفعوا في وجهنا سيفاً، أو ينقضوا عهدا ... »

قهقه حيي بن أخطب « ساخراً وقال » :

— « إن محمدا يحاول ان يأكلكم فرادي بعد أن عجز عن أكلكم مجتمعين، انه يريد أن يمزق شملكم ببعض العروض التافهة ... مجرد وعد، فاذا ما جاءت الثمار، وحان قطافها وجد محمد نفسه غير مهدد بحرب أو أحزاب ... عندئذ لن يبعث اليكم بثلث الثمار، بل سيرسل إليكم ثلث جيشه لتأديبكم والقضاء على قوتكم ... »

يا حارث بن عوف ... يجب أن تفهم الموقف جيداً ... »

قال الحارث :

— « ماذا تريد أن تقول يا حيي بن أخطب ؟ ؟ »

— « لا بد من الحرب كما تعاهدنا واتفقنا ... »

— « فاذا حققنا غايتنا بلا حرب ... »

دق حيي الارض بقدمه قائلاً :

— « أقول مرة أخرى لا بد من الحرب ... الغاية هي القضاء على محمد ... »

— « لماذا ؟ ؟ »

وتمتم حيي بن أخطب :

— « إلى دار الرسول ... اذا سقط حصن القائد ... تفككت قوى جيشه ... اذا هوى السيف على رأس العقل المدبر ... تراخت أطراف الزحف الكبير ... لقد أفلت محمد يوم « أحد » ... فكيف يفلت اليوم ؟ ؟ اليهود من الخلف وقريش من أمام ... ولا شيء غير الاستسلام او الموت ... آه لكم أتمنى ان يقبضوا على محمد حيا ... وان يسلموه لي ... آخذه بنفسي إلى ميدان فسيح ... وأدق رأسه في صخرة عاتية ... امام أعين الناس ... فان كان نبياً أنقذته الملائكة من بين يدي ، وان كان غير ذلك ... ظللت أضرب وأضرب حتى يرتخي جفناه ... وينام إلى الأبد ... والمجد لك بعد ذلك يا حيي بن أخطب ... لا... بل سأجمع إلى رأسه رؤوس أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ... عشرين رأساً من أكابر المسلمين ... وسأستدعي هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ... لتشرب وتغني ... وتفرش النمارق .. وتعبث بالاكباد والاحشاء كما فعلت يوم أحد بحمزة بن عبد المطلب... آه ... هذا يوم المنى ... يوم النهاية ...

التحام عنيف بين المسلمين والمشركين ، الاعداء يتحركون باستماتة وبطء صوب بيت الرسول، والمجاهدون المؤمنون ينقذفون بأنفسهم في المعمعة المتأججة، وحيي بن أخطب يرمق المعركة من بعيد، ويغذي اشتعالها بوقود جديد ... يبعث بعدد آخر من الرجال ليقوى جناحاً من الاجنحة او جهة من الجهات، ويصرخ بأعلى صوتة مردداً أشعاراً لكعب بن الاشرف مذكراً بيوم بدر، وبسرايا الرسول التي أحبط فيها مطامع القبائل ... ثم يعود مرة أخرى يذكر ايام الاوس والخزرج وما كان بينهما من خلاف قديم قبل الاسلام ... انه يفعل كل ما يمكن فعله ... يحشد كل احقاده الموروثة، مجنداً كل ما يستطيع تجنيده من كلمات ورجال وأفكار ... وظلت المعركة محتدمة الأوار حتى المساء ...

وضاقت الدائرة حول المسلمين ... واستمر القتال ...

والشمس مالت نحو الغروب، ومال ابو سفيان على اذن حيي بن أخطب وهمس :

— « ان رجالنا قد نالهم التعب ... »

وقال حيي وهو يبدي امتعاضاً ظاهراً :

— « اضربوا بشدة ... لم يبق بينكم وبين النصر الا خطوة واحدة ... »

ويمضي المتحاربون في صراعهم الدامي، ويهمس أبو سفيان في أذن حيي بن أخطب مرة ثانية ويقول :

— « ان رجالنا يتقهقرون يا حيي ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « ألا تراهم ؟ ؟ لو انتظروا اكثر من ذلك لحل الظلام، ولاصطادهم المسلمون واحداً واحداً ... »

عض حيي على شفتيه من الغيظ وقال :

— « كان على رجالنا أن يحسموا المعركة قبل ان يحل الظلام ... ولكن ... » وجاء صوت أبي سفيان مقاطعاً :

— « يجب ان ينسحبوا فوراً والا فقدناهم جميعاً ... وغداً نبدأ المعركة، من جديد ... ان المسلمين يدافعون دفاع المستميت عن آخر معقل لهم، وعن آخر فرصة لهم في الحياة ... ومن الطبيعي ان تكون المعركة عنيفة وسجالا ... »

وطأطأ حيي بن أخطب رأسه قائلا في حنق :

— « أجل ... يجب ان ننسحب الآن خارج الخندق ... »

الفصل السادس والعشرون

عاد رابح مكدوداً شاحب الوجه، متقرح الجفون، جسده يرتجف من البرد والجوع والجزع، يجر خطاه جراً، ورأسه يكاد ينفجر، يزفر في مرارة، ويضغط على أسنانه في ضيق، يتطلع يمنة ويسرة، والألم يخالط نظراته الحائرة، ورأى هند مسمرة لدى باب الحجرة

فقال في نبرات خفيفة :

— « سلام الله عليك يا هند »

— « وعليك سلامه ورحمته وبركاته ... »

— « أريد تمراً ... وناراً ... »

— « لقد طالت غيبتك ... »

— « ليتني ما عدت ... الموت أهون مما نقاسيه ... الحياة مليئة بالمتناقضات ... الغدر في مكان ... نحن بشر ... »

ثم انفجر باكياً، وأخذ يردد :

— « نحن بشر يا هند ... الأرض حولنا تموج بالحقد، والشيطان يعبث بعقول الناس، فيصرفهم عن الجادة، والمؤمنون يقاسون الأهوال ... ويتعذبون، يتعذبون يا هند عذاباً لا طاقة لبشر باحتماله ... »

هرولت اليه، وأمسكت بيده الباردة، وأخذته إلى الداخل، واغلقت الباب ، والاضطراب يلف حركاتها ونظراتها، واشعلت النار صامتة، ثم أحضرت صرة بها قليل من التمر، ووضعتها امامه، كما أحضرت جرعات من ماء، وقليلا من لبن الشاه ...

وظل رابح ساكناً لا تمتد يده لطعام او شراب، واكتفى بان بسط راحتيه فوق النار المشتعلة، وبعد دقائق سرى الدفء في جسده .

— « لم لا تأكل يا رابح ؟ ؟ »

— « الرجال هناك ... جوار الخندق لا يجدون ما يأكلون واليهود قطعوا المؤن عنا ... نحن في أيام قحط وشتاء ... » وابتلع ريقه، ثم تنهد قائلا :

— « وفي الامكان تحمل الجوع والبرد ... اما الخيانة فلا ... لا يمكن تحملها في هذا الوقت العصيب الرهيب ... أتسمعين ؟ ؟ الخيانة ! ! »

— « تقصد بني قريظة ؟ ؟

— « لا ...

— « ماذا اذن ؟ ؟ »

— « المنافقون ... لقد رأوا بطش الاعداء، وكثرة عددهم، وسوء ما نحن فيه، فأخذوا يتفرقون عنا، لقد انسحب مئات من جنودنا ... عادوا إلى ديارهم . بحجج واهية، زعموا انهم يريدون حماية بيوتهم من غدر اليهود الذين قد ينقضون عليهم في أية لحظة ... مع أن الرسول قد رصد الدوريات لحماية النساء والاطفال ... وزعم آخرون انه لا طاقة لهم بحرب قريش والقبائل واليهود ... وان خوض المعركة جنون مطبق، وانتحار أكيد ... لا جدوى من المقاومة ... هكذا يقولون ... وآخرون يتبجحون ويسخرون من نبيهم ... يقولون ان محمداً وعدنا بكنوز كسرى وقيصر وتيجانهما ... وها نحن لا يستطيع احدنا ان يذهب إلى الغائط ... هكذا يقولون يا هند ... انهم يسخرون من كلمات الرسول يا هند ... ويسخرون من صمودنا وايماننا ... تلك هي حالنا ... ندرة في الطعام ... وندرة في اللباس ... وغدر وقت الشدة ... حتى ساد الذعر المسلمين، وبلغت القلوب الحناجر... والناس يظنون بالله الظنون يا هند ... ماذا جرى ؟ ؟ أيمكن ان يخذل الله نبيه ؟ ؟ ان المرابطين من المسلمين أصبحوا قلة ... والمنافقون ينسحبون ... ان ما يفعلونه أخطر علينا من قريظة وقريش وغطفان ... »

قالت هند ودموعها فوق خديها :

— « والرسول، ماذا يفعل ازاء هذه النكبات ؟ ؟

— « انه يرابط في أخطر المواقع حول الخندق كأي واحد منا ... ويخرج للحراسة والتجول ليلا مع مختلف السرايا ... انه يقاوم البرد والجوع والوهن الذي يشيعه المنافقون... ثم رفع رابح رأسه إلى زوجه وقال :

— « لكن الرسول شامخ كالطود ... ويبشر المسلمين بالنصر ... »

— « بالنصر ؟ ؟ »

— « أجل ... ألم يقل الله في كتابه : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ... لقد جاء بعض المسلمين إلى الرسول قائلين له : يا رسول الله لقد بلغت القلوب الحناجر ، فهل من شيء نقوله ؟ فقال لهم قولوا : « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » ... أجل يا هند ... لقد سيطر الرعب على القلوب ... ولذا رأينا الرسول يرفع يديه إلى السماء ويقول :

— « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الاحزاب ... اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم ... أيها الناس ... لا تمنوا لقاء العدو ، وأسألوا الله العافية ، فان لقيتم العدو فاصبروا ... واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف...

ثم يعود الرسول إلى دعائه يا هند فيقول : يا صريخ المكروبين ، يا مجيب المضطرين ، اكشف همي وغمي وكربي ، فانك ترى ما نزل باصحابي ... »

تناولت هند بضع تمرات بيدها ، ثم قدمتها إلى « رابح » وتبادلا نظرات صامتة تحمل آلاف المعاني والمشاعر ، فتناولها ، واخذ يدفعها واحدة واحدة إلى فمه ، ويلوكها في بطء وصمت ، ثم يرشف جرعات قليلة من اللبن .

أدركت هند ما يعانيه زوجها من آلام نفسية مبرحة ، فقد قضى ليالي طويلة يقظاً يحرس الثغرات ويقوم بالجولات على امتداد الخندق وداخل المدينة وتعرض لآلام الجوع والبرد وقاسى الكثير من العناء بسبب ما يرتكبه المنافقون والخونة من حماقات قاتلة في أحرج الاوقات ... وفكرت في أن ترفه عنه

وكم كانت دهشة رابح حينما سمعها تقول فجأة :

— « أما طاف خيالي ببالك في ليالي السهر والجهاد الشاق ؟ ؟ »

نظر إلى وجهها الشاحب الجميل ذي السمرة الجذابة ، وإلى اشراقة عينيها الواسعتين التي لم يستطع القلق القاتل ان يطفىء وهجها ، وإلى البراءة التي ترتسم على ملامحها وجبينها الرائق فدق قلبه ، و تمتم :

— « ماذا دهاك ؟ ؟ »

— « هل تراني أخطأت التعبير ؟ ؟

— « ان الجندي في المعركة يا هند لا يفكر الا في الموت... »

ابتسمت في وداعة وقالت :

— « ويفكر في الحياة أيضاً ... »

ثم خفضت بصرها ، واستطردت :

— « كن صريحاً ... »

— « ان قلبي تثقله الآلام يا هند ... ان الفناء يحيط بنا من كل جانب ... »

— « لم لا تثق في وعد الله ؟ ؟ أتخاف الموت ؟ ؟ »

— « أنا ؟ ؟

— « أجل ... »

— « اني نذرت نفسي لله يا هند، ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي ... لكنني أعيش المعركة بعنفها وصخبها وما يصطرع فيها من أحداث اني أعيشها ليلها ونهارها، يأسها وأملها ... اني أتقلب بين البرد والجوع والاشفاق، والتفكير في المستقبل ... اني بشر يا هند ... »

ابتسمت هند، وقالت :

— « وأنا بشر أيضاً ... »

عاد ينظر اليها من جديد، وأخذ قلبه يدق، وتمتم :

— « أجل يا هند ... كنت أفكر فيك ... كنت أرى وجهك يشرق في الظلمات... لم أشعر إطلاقاً بأنني وحدي ... ان وجهي صوب الخندق، لكن روحي تهوم نحوكم، أفكر في آلاف النسوة والاطفال في الحصون الخلفية، أيمكن ان تمتد اليهم يد بني قريظة بسوء ؟ ؟ أفكر فيكم جميعاً ... ومن مات دون عرضه فهو شهيد ... ألم يقل الرسول ذلك ؟ ؟ وانا ان مت فسأموت دفاعاً عن ديني، وعن عرضي ... عن كل المبادىء النبيلة التي علمنا اياها محمد ... »

قالت متململة :

— « أليس لي جانب خاص في هذا الزحام الذي يعمر قلبك ؟ ؟

— « ان قلبي هو قلبك ... والزحام الذي يشغل قلبي يشغل قلبك أنت الأخرى ... »

قالت وهي تدير رأسها في خجل :

— « هل اشتقت إليّ ؟ ؟ »

— « يعلم الله ما بقلبي من أشواق ملتهبة ... »

— « برغم البرد والجوع والعناء ؟ ؟ »

— « برغم كل شيء يا هند ... »

تورّدت وجنتاها ، ودب في جسده دبيب الحياة ، بعد أن بعث اشتعال النار الدفء في جسده وبعد ان نال قليلا من الراحة البدنية والنفسية ، وتمتم :

— « لن أقضي هنا غير بضع ساعات أعود بعدها إلى مواقع العمل ... لا بد أن أحظى بقسط من النوم ... »

●

واضطجعا بعد أن أديا الصلاة ...

السكينة تنشر خمارها على وجهين طيبين ...

والصبر والهدوء والايمان ، ينطبع على ملامحهما ، يتحدى في بساطة غريبة كل عوامل الفناء والخوف والجشع ، انهما ينامان في هــذا الجو المشحون بالرعب والاضطراب والمفاجآت ... وتنبعث أنفاسهما خافتة ...

فهناك قوة عليا تحرس الوجود كله ... قوة لا تقهر ولا تنام ... بيدها وحدها مصير الانام هذه الالوف بسيوفها وحديدها وتدابيرها امام هذه القوة الكبرى ... القوة الإلهية ... اسراب من نمل ضعيف ... وبنفخة واحدة تتبدد هذه الاسراب ، ويذوب حقد الحاقدين ومكر الأغبياء والحمقى ...

فلماذا لا تنام هند وينام رابح ؟ ؟

عندما أذن الفجر ، هب من نومه واقفاً ، لم تزل رأسه تدور من أثر النعاس ، لكنه هزها في عنف حتى يطرد كل أثر للخمول ، وهتف بهند كي تستيقظ ... وتعد له بعض الماء كي ينظف جسده ويسبغ وضوءه ، وبدا واضحاً انه أكثر اطمئناناً وهدوء بال من الامس ، وكانت هند كذلك ، وانهى بسرعة ما يقصده من اعمال ، ولبس درعه ، وامتشق سيفه ، وتناول قدراً آخر من التمر ثم نظر إلى هند ، وهو يزمع الرحيل ...

قالت : لم تنظر إليّ هكذا ؟ ؟ »

— « قد أعود وقد لا أعود »

— « دع هذا لله يا رابح... »

— « لكن لي أمنية جميلة تداعب خيالي ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « اذا وهبنا الله غلاماً فلنسمه محمدا ... أجل لأظل في حياتي ... ان عشت — أقول محمد ... محمد ... محمد ... وان مت، فليبق اسم محمد مقترناً باسمي، أبد الدهر ... ان هذا الاسم على لساني في الصلاة ... في أحاديثي ... أصبح ضرورة كالماء والهواء ... إنه الحياة ... »

أرادت ان تمازحه، وتبدد هذا الجو الانفعالي، فقالت :

— « واذا جاء المولود بنتاً ... »

ابتسم ، واحمر وجهه خجلا وقال :

— « آه ... نسيت أن أفكر في ذلك ... »

— « لنفكر معاً ان شاء الله بعد أن تعود منصوراً ...

فألقى عليها السلام ... ومضى ...

الفصل السّابع والعشرون

أرسل يهود بني قريظة رجلا منهم ليدخل المدينة أثناء انشغال المسلمين بالحرب، كان الرجل يقوم بمهمة استطلاعية داخل المدينة، ليعرف كيف تكون حراستها، وعدد القوات المرابطة داخلها، والاحتياطات التي اتخذها محمد لحماية الاطفال والنساء والشيوخ، وكان الرجل يدرس خطة لمداهمة المسلمين من الخلف اثناء انشغالهم بلقاء العدو القادم من الشمال ... ومنذ ان نقض اليهود اتفاقهم مع الرسول وهم لا يجرؤون على دخول المدينة، ومن البديهي لديهم ان محمدا قد غير الكثير من تنظيم قواته، وكان لا بد لهم ان يعرفوا ما طرأ على خطته من تغيير ... تطلعت امرأة من نافذة صغيرة وتمتمت :

— « هذا الرجل اني اراه يروح ويجيء، انني أكاد أعرفه ... أجل ... انه من يهود بني قريظة ... آه ... لو عاد هذا الرجل إلى قومه، وحمل اليهم شيئاً عن وضعنا وضعف حراستنا لاصابنا من العدو نكال شديد ... »

قالت اخرى « وماذا نفعل ؟ ؟ »

— « ألا يوجد أحد من الرجال ... »

— « اعتقد ان حسان بن ثابت في مكان قريب منا .. انه لا شك رآه ...

— « أوه ... ان حسان ليس رجل حرب وطعان ... انه يعرف الكثير عن مداخل الشعر ومخارجه، ولكنه لا يعرف ان يسحق خطراً داهماً كهذا ... لقد حادثته في الأمر فأبدى عذراً ... »

— « يجب ان نتصرف بسرعة ... لو عاد وأخبر اليهود عن أماكن الاطفال والنساء لانقضوا علينا وحالوا بيننا وبين رجالنا، واثاروا كثيراً من الارتباك والضعف في صفوفنا... واسرعت المرأة، وحملت عموداً خشبياً، وتوارت خلف جدار، ثم انقضت على رأسه بعمودها فجأة فسقط مضرجاً بدمائه ...

عرف عمر بن الخطاب هذا الحادث الصغير في المساء، وكانت معرفته به في معرض الحديث عن حسان بن ثابت، وتواريه عن الانظار اثناء وجود ذلك الجاسوس، وتعلل حسان بعديد من الحجج حتى لا يؤدي مهمته ضد اليهودي، وكان الامر مثاراً للضحك ...

قال عمر :

— « انتم تتندرون، وتهتمون بالجانب المضحك الذي يخص حسان ... اما والله لو علمتم ان قتل هذا اليهودي المتجسس قد وفر علينا جهداً كبيراً لعجبتم، لقد تيقنا ان اليهود كانوا على وشك القيام بضربة مفاجئة من الخلف ... وكانوا ينتظرون من يستطلع لهم الطريق ... لقد كانوا يخافون الكمائن، ولا يظنون ان قواتنا البسيطة التي يعد رجالها على الاصابع هي كل ما تركناه بداخل المدينة .. اما والله لو استطاع هذا اليهودي ان يعود إلى بني قريظة اذن لاستمر القتال من خلف وامام ... »

كان القلق بادياً على عمر، ان هجوم قريش بالامس صوب منزل الرسول وصمودهم في المعركة، قد أثار الخوف في قلب عمر، اذا استمر المشركون في هذا العناد وهذا الصمود فسيكبدون المسلمين خسائر فادحة، ان لديهم عدداً كبيراً من الرجال، وفي إمكانهم ان يغذوا المعركة بكثير من الرجال المدربين، الذين نالوا قسطاً من الراحة، اما المسلمون فانهم يقضون ليلهم أو أغلبه وكذلك نهارهم في حراسة ودفاع وضراب، والواضح ان قريشاً والاحزاب واليهود قد اصروا على مواصلة الحرب، والعودة إلى المناوشات من آن لآخر، إن عمر يدرك ان هذه هي الفرصة الاخيرة للاعداء ... أتنسحب قريش دون أن تريق دم المسلمين، وتنال قسطاً من الغنائم ؟ ؟ اتعود القبائل إلى ديارها بعد أن تكبدت المشاق، وانفقت على الانتقال والطعام الكثير من المال والجهد، اتعود بعد ذلك دون ان تنال كسباً ذا بال ؟ ؟ واليهود ... بعد ان نقضوا العهد والميثاق، وتبجحوا، وجاهروا بالعداء، هؤلاء اليهود، كيف يتراجعون ؟ ؟ الا أن المعركة كما يعتقد عمر قاسية، ومثيرة للبلبلة والخوف، ولعل هذا ما حدا بالرسول منذ أيام قلائل ان يفكر جدياً في قبول مبدأ المفاوضات مع غطفان كي تنسحب وتنال ثلث ثمار المدينة ! ! أجل ان الموقف عصيب... والمستقبل بيد الله ... ونذر الخطر تلوح في الافق ... فاذا ما اشتعل اوار المعركة، فالذي لا شك فيه هو ان المسلمين سيخسرون خسائر فادحة في الارواح، اما نتيجة المعركة فان التفكير فيها مؤلم، ويبعث على مزيد من الضيق والعناء ... ويمضي عمر في تفكيره، أتستمر حياتنا على هذا النسق من الجهاد المستمر، والتضحيات التي لا تتوقف، والمخاطر التي تحيق بنا من كل جانب ؟ ؟

ووثب إلى ذهن عمر بن الخطاب خاطر أزعجه ... ماذا لو مل الناس التضحية، وطول العناء ؟؟ ماذا لو يئسوا من طول المقاومة، ومداومة السهر والبذل ؟ ؟ أيمكن ان يألفوا هذا الكدح المتصل ؟ ؟ انهم بشر ...

ومال عمر على اذن سلمان الفارسي :

— « أخاف أن يندس المنافقون ... »

— « آه يا عمر ... ان خيانة بني قريظة لا تشبهها خيانة ... فكيف تخاف حفنة من المنافقين ؟ وعاد عمر يقول :

— « وأخاف ان ينصرف ضعفاء الايمان عنا ... والمنافقون وعبد الله بن أبي اخطر من قريظة ... أوكد لك ذلك ؟ ابتسم سلمان وقال :

— « ان رجالنا المؤمنين كبار النفوس ... لقد رفضوا ان ينزلوا عن ثلث الثمار لغطفان لا لشيء الا لأنهم يرفضون ان يشتم من ذلك رائحة استسلام أو هزيمة ... »

— « أعرف ... لكن فيهم من يهتز ايمانه عند الشدائد ... »

— « يحدث ذلك في كل زمان ومكان ... وفي أية دعوة ... لكن هذا لم يعق سير الحياة، ولم يخذل المؤمنين، ولم تتقاعس الفضائل عن التقدم والسير في الطريق الوعر الشائك ... »

قال عمر وهو يبتسم :

— « كلماتك تريحني يا سلمان ... تخفف عني ما اشعر به من عناء ... انني قلق يا سلمان ... او تظن ان قلقي يتنافى مع ايماني بالله ؟ ؟ اعني ... هل القلق مظهر من مظاهر ضعف الايمان ؟ ؟ انني قلق يا سلمان ... لكني قوي الايمان، ثابت العقيدة لا أتزعزع، أبداً ... لا أتزعزع ولو تقاطر ملايين البشر من كل مكان وحاصروا هذه المدينة الصغيرة ولو سحقوها تحت اقدامهم ... سأرفع رأسي وسأهتف باسم الله ... انني قلق ... لاني أفكر كل لحظة في أشياء كثيرة ... أفكر فيما يحدث الآن وما سيحدث غداً ... أفكر في الاعداء الذين غدروا وخانوا هناك في ديار بني قريظة، وهنا بين أظهرنا ... أفكر في قريش التي لا تكف عن عدائنا ... أفكر في غطفان وفزارة وأشجع ... هؤلاء الجنود الذين يحركهم الشيطان من كل حدب وصوب ... هذه العوائق التي تعترض سبيل الخير ... وتقف حجر عثرة في طريق نشر دعوة الله ... »

الليل ساج شديد البرودة، وعمر لا يستطيع النوم على الرغم من انه في فترة راحته هو وسلمان، ان نيران العدو الصغيرة تمتد إلى بعيد ... تضيء ثم تخمد، لكنها تنفث الحقد والترقب ... لكأنها نظرات حمراء تشتعل غيظاً ... »

— « اننا لا نجني يا سلمان نصراً سهلا أبداً ...

— « لعل في ذلك حكمة الهية تسمو على افهامنا يا عمر ...

— « لقد غدروا بنا يا سلمان ... في « أحد » استشهد عدد كبير من خيرة رجالنا ... وفي « الرجيع » قتلوا ستة من خيرة الدعاة ... ألم يطلبوا منا أن نبعث اليهم بمن يعلمهم الاسلام ؟ ؟

ثم ارسلناهم ... لقد أخذوهم على غرة ... قتلوهم يا سلمان ... هذا الغدر يثير في نفسي الحنق البالغ ، وفي « بئر معونة » ! ! يا لها من حادثة بشعة ! ! أيغدر رجال عامر ابن الطفيل بأربعين ؟ ؟ . . هذه الدمـــاء يا سليمان تحرق أمني وهنائي . . . أربعين داعية ؟ ؟ ماذا يريدون ؟ ؟ ان الاشرار يريدون منا أن نمل التضحيات... أن نكفر بالمبادئ الكبرى التي أوحى بها الله إلى نبيه ... لا ... لن نيأس ... لن نستسلم يا سلمان ... سنبقى صامدين ... نقدم التضحيات الغالية يا سلمان ... نبذل النفوس عن رضى ... لسوف نخوض المعارك ... ونرسل الدعاة ... ونفرح بالاستشهاد ونرحب بالموت ... بالنصب والسهر والقلق العظيم ... هكذا يكون البناء يا سلمان لخير أمة أخرجت لناس... »

تمتم سلمان وقد تبللت عيناه بالدموع :

— « أجل ... هكذا يكون ... »

— « وأعداؤنا يا سلمان يرتكبون كل موبقة ... يدوسون العهود ببساطة ويخونون ويغدرون ... ونحن نتحرج من فعل أي شيء ... لم نبدأ بعدوان، ولم ننقض عهداً أليست هـــذه مشكلة ؟ ؟ ان عدوك يسلك أي سبيل ، ويتخذ أية وسيلة ليصل إلى هدفه الشرير ... أما نحن يا سلمان ... فلا نفرق بين شرف الغاية وشرف السبيل المؤدي اليها وهذه الحرب يا سلمان تكلفنا الكثير لحفاظنا على هذه المبادىء ...

ألم يكن في امكاننا ان نستدرج عشرات بل مئات الرجال ... ونغدر بهم كما غدروا بدعاتنا ؟ ؟

وعاد عمر يجوب ببصره الآفاق ... نيران العدو تومض من بعيد ... الليل شديد السواد، قارص البرودة، عيون الرجال على الخندق، وأيديهم على مقابض السيوف، وألسنتهم تسبح باسم الله وتنطق بالشهادتين ، والاعداء يتراصون على السفوح وبين الاودية يأتون من فوق ومن أسفل ، هـــذا الجيش السري الذي ينظمه المنافقون، فيرجفون وينشرون الأكاذيب، ويجعلون من النصر حلما لن يتحقق ... لا... لا... بل النجاة مجرد النجاة ... أمر متعذر التحقيق ... وسمع عمر أثناء االيل رجلا حديث عهد بالاسلام يقول لزميل له في نقطة للحراسة :

— « اذا كنا رجال الله حقا فلم لا يبادر الله بسحق أعدائنا، وتعجيل النصر لنا ؟ ؟

لقد علمت ان الله معنا ... لاننا على حق ... لكنني كلما رفعت بصري إلى هؤلاء المشركين الذين يهبطون علينا من كل صوب، ازددت هلعاً وتردداً ... ماذا ؟ ؟ أأقول الحق ؟ ؟ ان ايماني يكاد يتزلزل ... لو انقض علينا هؤلاء الاعداء، لانتهى أمرنا ...

لم أتصور المعركة على هذه الصورة العسرة ... انها أيام عصيبة ... أهكذا تقاسون كل مرة ؟ ؟ لكم الله ... لقد اخترتم لانفسكم جانب الحياة الشاق ... »

قال عمر في مرارة لسلمان الفارسي :

— « أتسمع يا سلمان ؟ ؟ لم يعد الحديث همساً ... بعض الرجال يتكلمون بصوت عال وفي أمور شائكة ... أيعتبون على الله ؟ ؟ حاشا وكلا ... قل لهم يا سلمان ان النصر ليس مائدة ينزل بها الملائكة من السماء .. النصر يا سليمان يصنعه الصبر والايمان والدم الغالي .. ومن ثم فان النصر لا ينحاز إلى جانب المترددين والواهنين والضعفاء ... قل لهم ... النصر ليس سبايا وغنائم ... انما هو امتداد لكلمات الله ودعوته في حيز أكبر ... انه غزو لقلوب، وليس احتلالا لأرض ... وهكذا انتصر الذين استشهدوا في « بئر معونة » ومن قتلوا في « الرجيع » ... وانتصر حمزة واصحابه في يوم « أحد » ولهذا فإن الاعداء سيخذلون هذه المرة ... وسننتصر باذن الله حتى ولو احتل الاعداء المدينة ... قل لهم ذلك يا سلمان ...

وسمعت خطوات قليلة، قدم بعدها الرجل وقال :

— « لقد سمعت جيداً ما تقول ... ان كلماتك يا عمر تبعث في قلبي الأمل والحياة ... معذرة لما صدر مني من عبث ... انها مجرد لحظات من ضيق تنتاب الانسان فترده إلى شيء من عناء وملل ... أي عمر ... اني أرى الشر مستطيراً ... أراه منذ نعومة اظفاري وبرغم حشوده الضخمة فاني أتحداه ... كنت أتحداه ... أصاوله في تخبط وحقد .. لم أكن أعرف كيف أضرب ... وحينما لقيت محمدا ... وجدته يكره الشر مثلي ... ويكره أصنام البشر والحجر ... ولا يعبأ بحشود الشر الكبيرة ... آمنت بالله ... رأيت راية، وشهدت نظاماً، وعشت كلمات الله وهي تتحول إلى سلوك وعمل ... هنا وجدت نفسي التائهة »

قال عمر وقد تسربت الطمأنينة إلى قلبه :

— « فكيف اذن تعتب على الله ؟ ؟ »

انني لم أفعل ذلك تهجماً على مقام الربوبية، معاذ الله ... وانما طمعاً في عطفه سبحانه ... انني أتعجل النصر يا عمر ... انني أرتعد حينما أتصور أن الاشرار يستطيعون ان يغزوا هذه المدينة ... أكاد أجن كلما فكرت في ذلك... أيزعجك ان تعلم الحقيقة ؟ ؟ الرجال على استعداد للموت، ولا يرهبون العدو، لكنهم في كرب شديد يا عمر ... الرجال يعانون شقاء بالغاً ... انهم لا يخافون الموت ... لكنهم ينظرون إلى المستقبل ... لقد زلزل الناس زلزالا شديداً يا عمر ... لكنهم ينسون العناء والشقاء كلما طلع عليهم الرسول ...

كلما رأوه يحمل التراب على كتفه ... ويأخذ دوره في الحراسة ... ويأكل مما يأكلون ... ويعمل كما يعملون ... ان كلماته من القلب ... ومن ثم تصل إلى القلب ... انني أحب ان أراه أمامي دائماً ... ان امنيتي ان أموت وعيناي ترمقانه ... »

هز عمر رأسه، وتمتم :

— « أجل ... انها أيام عصيبة ... »

وفي هذه اللحظات قدم علي بن أبي طالب وقال :

— « هل بلغكم آخر الأنباء ؟ ؟ »

قال عمر في لهفة :

— « هل جد جديد ؟ ؟ »

وكم كانت دهشة عمر حينما أخبره ان أحد المشركين من الاحزاب قد أتى إلى الرسول يعلن اسلامه ...

تمتم عمر :

— « اسلامه ؟ ؟ وفي هذا الوقت؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « ونحن نندحر، ونعيش في كرب ما بعده كرب ؟ ؟ »

— « أجل ...

— « أعرف أن الناس قد يهرعون ليجنوا ثمار النصر، اما ان يتسابقوا ليذوقوا مرارة الهزيمة فهذا شيء عجيب ... »

ثم التفت عمر إلى الرجل الذي كان يحادثه منذ لحظات، ثم قال :

— « تلك ارادة الله ... لعلك الآن فهمت معنى النصر ... النصر الذي كنت أحدثك عنه .

هز الرجل رأسه قائلا :

— « الآن فهمت ... »

وبقي سلمان وعمر وعلي وحدهم، وتساءل عمر :

— « من هذا القادم الذي أتى يعلن اسلامه ؟ ؟ »

قال علي :

— «نعيم بن مسعود ... »

قال عمر في دهشة :

انني أعرفه ... من غطفان هو... انه نديم اليهود في الجاهلية، وأثير لدى قريش، وغير متهم لدى القبائل ... انه رجل له مكانة وكلمة مسموعة. ويحظى بثقة الجميع ... وأظنه يعد كسباً كبيراً، ولا نزكي على الله أحداً ... »

الفصل الثامن والعشرون

نظر عمر بن الخطاب إلى نعيم بن مسعود نظرات مستفسرة وقال :

— « عجيب أمرك يا ابن مسعود، تعتنق الاسلام وهو في أعنف أزماته، وتترك القوة والجيش الكبير ، وتأتي إلى المحن ورين الذين يدافعون عن رقعتهم الضيقة في استماتة .. تأتي الينا لتشاركنا البأساء والضراء ... إن أمرك لجد عجيب يا نعيم بن مسعود ... »
قال نعيم ووجهه ينطلق بشرا :

— « وهذا ما يبهجني ، لقد هداني الله إلى الحق في هذه الأوقات العصيبة، فشددت الرحال اليكم تاركاً ورائي المجد والكثرة والكبرياء واحلام النصر لدى قريش والقبائل ... لقد أتيتكم طامعاً في عفو الله، مستعداً للتضحية والفداء ... ان الايمان يا عمر يجعل المر حلوا، والعـ بر جنة، ويحيل العذاب والعناء إلى لذة ومتعة ... »

وصمت نعيم برهة ثم قال :

— « انني أشعر منذ فترة ليست بالقصيرة بالحيرة ... أشعر اني تائه ... اتحرك كالنائم، أحمل السيف وأحارب دون حماسة، أشارك في الحديث وأنا أضيق به، وأدلي بالرأي وأنا أعرف مدى تفاهته ... حياة سمجة لعل الموت أروح منها ... تلك كانت أيامي الاخيرة يا عمر... لقد ضقت ذرعاً بقريش وخيلائها ... اصبحت احتقر أفكارهم وتدابيرهم الرخيصة ... انهم يحاربون بلا معنى ، او يندفعون وراء أوهام جوفاء ... جلست بيني وبين نفسي أعقد المقارنة بين قريش والمسلمين ... قلت لنفسي اخلع نفسك عن الجانبين ... قف موقف المحايد ... ثم احكم بالعدل ... هذا هو محمد ماذا يقول ؟ ؟ ماذا يريد ؟ ؟ وما مدى انطباق أفعاله على أقواله ؟ ؟ سرت عبر شوارع المدينة ... رأيت المسلمين وهم يتعاملون ... ويأكلون ويشربون ... ويعبدون الله ... رأيتهم وهم يتكلمون، ويتفقون ويختلفون .. انني أقرأ على وجوههم صفاء من نوع غريب ... وألمس في تعاملهم صدقاً ما سمعت به من قبل ... رأيت قوماً يألفون ويؤلفون، ويؤثرون على أنفسهم، شجعان في غير قسوة، متواضعين في غير ضعف، شديدي الايمان في غير تعصب، متوكلين بلا تواكل ... أجل رأيت أمة جديدة تولد ... رأيت معجزة الهية تبهر بروعتها الانظار ... »

تناول نعيم جرعة ماء، ثم استطرد في حديثه وعمر يستمع اليه في شغف، وقال نعيم :

— « وعاشرت قريشاً كانوا يفكرون في الحرب، ووسائلها وطريقة القضاء على المسلمين وتدمير قوتهم، ويحصون الرجال والسيوف ... ولم أرهم يبذلون جهداً يذكر في مناقشة الدعوة التي أتى بها محمد ... انهم يصدون عنها دون مناقشة ... كبرياء غاشمة ... وجود أعمى ... انهم يعيشون في رعب قاتل من أي جديد ... يخافون التعبير ... يصدون عن كلمات الله ولو نظروا اليها نظرة محايدة لتجلت لهم روعتها، ولعلموا انها كلمات جادة رائعة ... تتفق ومنطق الحق والفضيلة ... لقد عرفت ذلك يا عمر ... مارست خطاياهم ... لست نادماً على ما فات ... لقد تعلمت الكثير ... ان ممارسة الخطأ تصيب القلوب بالقسوة والتبلد ... لكنها في بعض الاحيان تكشف الزيف، وتقود إلى الحقيقة الفاضلة ... انه خطأ التجربة ... لا خطأ الاصرار والعناد ... وخرجت من ذلك المجتمع يا عمر بعد أن تمزقت روحي وكلت قدماي ... انني أولد بينكم من جديد ... لم أعد أدين الا لله الواحد القهار لكم يسعدني أن أموت على هذه العقيدة ... »

وابتلع نعيم ريقه، وقال عمر :

— « ان ايماناً مثل ايمانك، أتى بعد تلك التجارب العنيفة، يكون مصدراً للذة رائعة ... لقد جربت قبلك شيئاً من هذا ... »

ثم عاد عمر يقول :

— « لكن كيف تركت القوم ؟ ؟ وكيف استقبلوا نبأ اسلامك ؟ ؟ »

— « اسلامي ؟ ؟ ان أحداً لم يعرف عنه شيئاً ... »

قال عمر : — « هذا أفضل، اذ لو علموا بذلك لامتدت اليك سيوفهم ... »

فهقه نعيم قائلا :

— « لم أرهب سيفهم، ولم أخش سطوتهم، لكني فكرت في شيء آخر ... »

قال عمر : — « ماذا تقصد ؟ ؟ »

— « لقد كتمت اسلامي يا عمر، وأتيت اليكم، وفي ظني ان الرسول قد يكلفني بمهمة من المهام، لعلي استطيع أن أودي دوراً بين الأحزاب، أنهم يثقون فيّ ثقة كبرى، وينصاعون لرأيي ... انني على استعداد لأن أذهب اليهم، ان اشارك في تدمير ذلك التجمع الظالم الذي يخفي وراء واجهته الظالمة الاثم والطغيان والنوايا السيئة ... »

هز عمر رأسه في رضى، ان الله جلت قدرته يبعث في الليل المدلهم ما ينير لهم الطريق،

ويخفف عنهم الكرب، ان اسلام نعيم في هذا الوقت له دلالته الكبرى، ان الزحف لا يقف، والحائل الضخم الذي أقامه المشركون واليهود حول المدينة لم يستطع ان يحجب النور عن الشرفاء من الناس ... لقد كان المسلمون في مسيس الحاجة لمن يدلهم على عورات الأعداء، ويكشف لهم خططهم ونواياهم، وها هو رجل من أكابرهم يأتي مسلما، ويعرض حياته للخطر ويبدي استعداده لتنفيذ ما يطلب منه من أعمال ...

وهز نعيم رأسه هو الآخر وقال : — « لقد حادثت الرسول فما كان منه الا أن قال لي :

— « يا نعيم ... انما أنت رجل واحد، فخذّل عنا ما استطعت، فان الحرب خدعة »، ان الرسول يثق بي، لم يرسم لي خطة معينة، انني اعرف هؤلاء الاوغاد من المنافقين والمشركين واليهود ... انهم يتعاملون في حذر، ويضمرون غير ما يظهرون، ليس بينهم تلك الرابطة السحرية التي تجمع المسلمين في سلك واحد ... وتجعلهم ينبضون نبضاً متسقاً ... الكيان الواحد مفقود لدى المشركين ... هنالك ألف ثغرة وثغرة أستطيع أنفذ منها اليهم ... دعوني وشأني ... ان نعيم بن مسعود يعرف كيف ينتقم لخطاياه ... ولسنوات الجهل والعقم التي قضاها بين أظهرهم ... دعوني وشأني ... »

تسلل نعيم تحت جنح الظلام خارجاً من المدينة حتى بلغ بني قريظة، ورأى اليهود في شغل شاغل، انهم يدبرون للهجوم الكبير الساحق، وهم أكثر الأحزاب تحمساً لخوض المعركة، لان المعركة ان لم تقم، فسينصرف المشركون، ويتركون بني قريظة وحدهم في مواجهة محمد، وهذه مواجهة خطرة قد يكون فيها الفناء والدمار ...

رأى نعيم بعينيه ما ينهض به بنو قريظة من جهود واستعدادات، فعض على شفته السفلى « اللهم إنْ تُرِكَ هؤلاء اليهود وشأنهم فلسوف يشعلون النيران في أنحاء المدينة، وستتحول البلد الطيب إلى مسيل للدماء ... هؤلاء اليهود هم الذين حرضونا، وحشدوا القبائل بألاعيبهم ومغرياتهم ... تا لله لأضربنهم ضربة لا يفيقون منها .. »

قام الرجال لاستقبال نعيم وحينما رأوه . قال حيي بن أخطب :

— « مرحباً بك في بيتك ... يا نديم الليالي الغابرة، ورفيق السمر والطرب ... »

ابتسم نعيم في مكر وقال :

— « هذا هو شعوري دائماً، لكم أحن إلى هذه البقاع ... أشعر أني في موطني كلما وطأت قدماي هذا التراب العزيز ... »

ثم تلفت حوله في دهشة وقال :

— « ماذا أرى ؟ ؟ انكم على وشك ان تفعلوا شيئاً كبيراً، هذا ما أشعر به ... »

قال حيي بن أخطب :

— « آن الاوان يا نعيم ... يجب ان نضع خاتمة لمأساة محمد ... »

— « أنتم يا حيي ؟ ؟ »

— « نحن وحلفاؤنا من قريش وغطفان ... »

ابتسم نعيم في أسى ظاهر ، ثم قال :

— « قريش وغطفان ! ! لست أدري كيف تفكرون يا حيي بن أخطب ! ! »

— « ماذا ؟ ؟ ألك رأى آخر ؟ ؟ ان هؤلاء الألوف لم يجتمعوا الا للقضاء على المسلمين قضاء مبرماً ... اننا لم نحرك هذه الجموع ، ولم نفرض هذا الحصار الا بغية القضاء التام على سلطان المسلمين وأفكارهم الخطرة ... »

قال نعيم فيما يشبه التأكيد ، وقد بدت في كلماته رنة الاخلاص والوفاء :

— « يا حيي بن أخطب ... لقد عرفتم ودي اياكم ... وقد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد ، وليسوا مثلكم ... البلد يا معشر يهود بني قريظة — بلدكم ، به أموالكم وابناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا عنه ، وان قريشاً وغطفان ان رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين دين محمد ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم حتى تناجزوا محمداً ... »

حملق حيي بن أخطب فيه دهشاً ، ان كلمات نعيم معقولة ، وأصابت كبد الحقيقة ، بل ان أحداث الأيام الماضية تثبت ذلك ، ألم تحاول غطفان أن تعقد صلحاً منفرداً مع محمد مقابل ثلث ثمار المدينة ؟ ؟ ألم يبد أبو سفيان شيئاً من الفتور والملل ؟ ؟ »

وعاد نعيم يقول :

— « يا حيي بن أخطب لا تجعل بني قريظة يغامرون بمصيرهم ، ويخوضون الحرب الفاصلة ضد محمد ما لم تأخذوا هذا الرهن من أشراف قريش وغطفان عند ذلك سيواصلون الحرب إلى جواركم ، وتضمنون القضاء على محمد قضاء تاماً ... »

قال الرجال من بني قريظة ، وعلى رأسهم حيي بن أخطب :

— « صدقت يا نعيم ... لقد أشرت بالنصح ، ولست عندنا بمتهم ... »

ودارت الأرض بحيي بن أخطب ، لقد كان يظن انه على وشك تحقيق أمله ، ومحو اسطورة محمد الذي لا يقهر ، ها هي الألوف من خلفه ، القبائل وقريش واليهود ، بين

فارس وراجل، ودارع، لو اندفعوا لسحقوا المدينة، ولملأوا الخندق بنعالهم ... لكن نعيم يقول كلاماً خطيراً ... ان قريشاً تكفل لنفسها الحماية، في بلد آمن، ولديها من الرجال والعتاد والمال ما يمنعها، والقبائل قد تمل المقام، فتعود إلى خيامها ومضاربها ومراعي ابلها .. ونبقى وحدنا ... وحدنا مع العذاب والانتقام المرير ...

وصاح حيي بن أخطب في حقد :

— « لا بد من الحرب ... لا بد من الحرب ... »

ثم توقف لحظة وقلبه يضرب بشدة، وأخذ يقول :

— « ولن يخدع اليهود مرة ثالثة ... لا بد من أخذ الرهائن من قريش وغطفان ؟ ؟ »

ابتسم نعيم في سعادة وقال :

— « هذا عين الصواب »

ولم يستجب نعيم لقضاء بعض الوقت لدى بني قريظة، لم يكن في حاجة إلى ندامى وسمر وكؤوس ... وأسرع صوب قريش، حيث يعسكر ابو سفيان، وأكثر من ستة آلاف من رجالات مكة يرفعون الرايات العتيقة، ويدافعون عن مجد الآباء.

— « يا أبا سفيان ... يا أبا سفيان ... يا كبراء قريش ... »

قال أبو سفيان :

— « ماذا وراءك يا نعيم ؟ ؟ انك تبدو شاحباً متعباً مهموماً ... »

— « وكيف لا ؟ ؟ لقد وقعنا في قبضة فئة من الانذال ... ولن نعود من هذه المعركة الا كما عدنا يوم « بدر » الحزين ... »

بدت الدهشة على وجه أبي سفيان، وقرب حاجبيه، ورمى نعيم بنظرات متفحصة وقال :

— « ماذا وراءك ؟ ؟ انني أفضل أن تلقي ما لديك من أنباء بسرعة، ولا عليك، فقد تعودت أن أواجه الحقائق كما يواجهها الرجال الأشداء ... انك تعرفني جيداً يا نعيم ...

قال نعيم وهو يتلفت يمنة ويسرة :

— « اذن فلتسمح لي بالانفراد معك، وبعدد قليل موثوق به من رجالات قريش ... »

وما أن اجتمع أبو سفيان والرجال، حتى قال نعيم بن مسعود :

— « تذكرون جيداً أن اليهود قد حرضونا على حرب محمد، أتوا ليقنعونا بذلك، وطافوا بغطفان والقبائل، تعرفون ذلك جيداً ... »

قال أبو سفيان معلقاً :

— « أذكر ذلك ... وأنا لم أظاهر اليهود وأستجيب لآرائهم الا لأني اتفق معهم في ضرورة القضاء على المسلمين ودعوتهم وسطوتهم التي هددت قريشاً ومجدها العريق ... كنت أعرف أن كل من نهض لحرب محمد له هدف يختلف عن الآخرين، وان اتفقت الوسيلة بينهما ... لست من الغباء بحيث يخفى عليّ ذلك ... »

قال نعيم في تأكيد وثقة :

— « لكن هناك شيئاً لا تعلمه ... »

— « ما هو ؟ ؟ »

— « يا أبا سفيان ... بلغني أن قريظة ندموا — وقد ارسلوا إلى محمدا قائلين : هل يرضيك يا محمد أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم ؟ ؟ فأجابهم محمد، أن نعم ... هذا ما دار يا أبا سفيان بين بني قريظة وبين المسلمين ... لا تحاولوا ان تشكوا فيما أحمله اليكم من أنباء دقيقة ... لتنتظروا بعض الوقت، وسترون صدق كلماتي ... لكن لي نصيحة واحدة، اذا طلبت قريظة منكم رهناً من رجالكم . فلا تسلموا لهم رجلا واحدا ... ان الذين تأخذهم قريظة لن يعودوا ... أبداً لن يعودوا ... وقريظة لم تتحالف معكم لتتحمل جزءاً من تبعة الحرب، به لتستغلكم ، وتجني من ورائكم ما بذلتم في سبيله العرق والدم والسهر ... »

استبد الشك بقريش، وماجت نفس أبي سفيان ثورة وحنقاً، وأخذت شتى المشاعر تتجاذبه أيقدم ؟ ؟ أيحجم ؟ ؟ أيعاقب قريظة أم يبطش بمحمد ؟ ؟ ومع ذلك فقد آثر ان ينتظر لعل الايام تكشف له عن جديد في الأمر .

ولم يتوان نعيم بن مسعود في الذهاب إلى غطفان، لقد ترك وراءه رجالات قريش يتململون حقداً وغيظاً، وترك وراءه اليهود من بني قريظة ينتابهم القلق والرعب، وعندما بلغ غطفان قال لهم « انتم أهلي وعشيرتي ... وما كان لي أن أغلق فمي عن خطر يتهددكم ثم أخذ يروي لهم ما رواه لقريش ...

كانوا على أهبة المعركة الفاصلة ... قريش تشحذ سيوفها، واليهود يتوعدون ويحلمون بيوم الثأر، وغطفان والقبائل يمنون أنفسهم بالغنائم والاسلاب والعود الحميد إلى الديار والنساء والأبناء ... وكان المسلمون في نفس الوقت يربصون خلف الخندق، وفوق الأسطح والقمم الصخرية يرمقون الطريق بعيون لا تنام، ويبتهلون إلى الله بأحر الدعوات ...

غمغم أبو سفيان :

— « لقد طال الانتظار ، ولا مفر من الهجوم ، فلا جدوى من الحصار بلا معارك ، ورجالنا لا يستطيعون الصبر أكثر من ذلك في ليالي البرد القاسية ... »

وفي مكان آخر كان الحارث بن عوف يقول لغطفان : — « لم يكن يدور بخلدنا ان يطول مقامنا حول المدينة ، وان يمتد بنا الحصار هذا الوقت الطويل ، ولا طاقة لنا بالجمود والترقب أكثر من ذلك ... »

وفي بني قريظة ، ثارت ثائرة حيي بن أخطب ، وأخذ يهذي : — « لا بد من قتل محمد ... لا بد من حرق المدينة بكل من فيها ... انها فرصة العمر ... لتهجم غطفان ... ولتهجم فزارة وأسد ... ولتضرب قريش ضربتها — هذا حشد لن تجمع العرب مثله لمواجهة محمد ... »

وفي ليلة سبت ، استدعي ابو سفيان عكرمة بن أبي جهل وقال له :

فلتأخذ معك رجالا من غطفان وآخرين من قريش... ولتذهب إلى بني قريظة ، وتطلب منهم أن يستعدوا للهجوم الماحق غداً ... دون إبطاء ... »

الفصل التاسع والعشرون

قصد عكرمة ديار بني قريظة في ضواحي المدينة، ووجد اليهود في لباس الحرب، يتقدون حماساً، ولكن في عيونهم ترتسم حيرة ممزوجة بالخوف، يتطلعون إلى رجال الوفد في توجس أيحاربون ؟ أينتظرون ؟ ؟ في هذه اللحظات الحاسمة، وفي الوقت الذي كان محدداً للقضاء على محمد تحدث هذه الحيرة، وينتابهم هذا التردد، والتقى عكرمة بن أبي جهل بحيي بن أخطب وكعب بن أسد ...

قال عكرمة لحيي بن أخطب :

— « لم يعد هناك مجال للتأجيل، ولا بد ان تزحف قواتنا من جميع الجهات نحو تجمعات المسلمين بالمدينة، وقد حدد موعد الهجوم غداً ... »

نظر إليه حيي بن أخطب في شك، أين الثقة القديمة؟؟ ليتها تعود، أحقاً يريدون أن تشتعل المعركة ؟ هذا غاية المنى، لكم تحرق شوقاً لهذا اليوم الموعود، لكن ماذا لو لم يستطيعوا كسر المسلمين، وإلحاق الهزيمة بهم ؟؟ أترحل قريش وغطفان كما فعلوا يوم « أحد » ويخلون السبيل لمحمد كي يجتاح الحونة من بني قريظة ؟ ؟ واضطرب حيي بن أخطب، لا بد أن يكون هناك ضمان حتى لا تنسحب قريش وتتركهم فريسة في أيدي المسلمين هذا الضمان أصبح ضرورة لا بد منها .

قال كعب بن أسد في اصرار :

— « يا عكرمة ... قل لأبي سفيان اننا لا نستطيع الهجوم غداً »

— « لماذا ؟ ؟ »

— « نحن لا نحارب يوم السبت، لأن هذا محرم في ديننا كما تعلمون ... هذه واحدة ...

قال عكرمة في شيء من الضيق :

— « والثانية ؟ ؟ »

تلكأ كعب بن أسد وتلعثم، وأطرق في حيرة، ثم استجمع شجاعته وقال :

— « والثانية ... نحن نريد رهائن من قريش وغطفان من أشراف الرجال ... قبل ان نشرع في القتال ... »

قال عكرمة دهشاً :

— « رهائن ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « اذا لم يكن هناك ثقة فلا محل لان نحارب جنباً لجنب ، ان طلب الرهائن اهانة بالغة تلحق بقريش وغطفان ومن معهما ... »

— « لم نقصد ذلك يا عكرمة بن أبي جهل ... »

— « ماذا تقصدون اذن ؟ ؟ »

— « ان تتجمع الأحزاب ولا ترجع عن الحرب وتدمير المسلمين حتى النهاية ... أخاف أن تقنعوا بنصر جزئي ثم ترجعوا إلى دياركم ، ومن ثم يتلقفنا المسلمون ويثأروا منا ... »

ضحك عكرمة ساخراً وقال :

— « وماذا تفعلون بالرهائن ، لو انصرفنا عن الحرب بعد عدة جولات لظروف قاهرة ، فوق ارادتنا وفوق ارادتكم ؟ ؟ ماذا تفعلون بالرهائن ؟ ؟ »

— « معنى انصرافكم هو القضاء علينا ... »

— « لظروف قاهرة مثلا يا كعب بن أسد ... »

— « ليست هناك ظروف ألعن من تركنا وحدنا بين يدي محمد ... الرهائن يجب ان تكون تحت ايدينا ... »

— « لماذا ؟ ؟ »

وابتلع حيي بن أخطب ريقه ، وقال متدخلا :

— « تضرب أعناقهم عند الغدر ... »

تمتم عكرمة في حنق :

— « الغدر ؟ ؟ »

وسادت فترة صمت قال عكرمة بعدها :

— « سنعود إلى أبي سفيان بما تراه، والرأي له ولرجالات قريش وغطفان ... ألا وان ما بيننا من وفاق قد عبثت به يد الشك والريبة، ألا وان محمدا أصبح في مأمن من سيوفنا القاهرة ... وهذا ما يبعث الأسى والحزن في نفسي ... »

وعاد عكرمة ومعه الرجال من قريش وغطفان إلى « مجمع الاسيال » حيث تعسكر قريش، وشرح لأبي سفيان ما دار بينه وبين قريظة، فهز القريشيون رؤوسهم في أسف وقالوا :

— « لقد صدق نعيم بن مسعود يريد اليهود أن يضمنوا لانفسهم حق الحياة، وان يدرأوا عن أنفسهم عقاب المسلمين، بعد أن غدروا وكذبوا وتآمروا، ولم يروا ثمناً يستطيعون دفعه لمحمد الا الرهائن التي طلبوها منا ... هؤلاء الانجاس حرضونا على الحرب، وزينوا لنا الطريق، وعندما شعروا ان محمدا لم يزل صامداً برغم قلة رجاله، وضعف مركزه، ورأوا غطفان تبحث عن كسب مادي كي تعود أدراجها، عندما رأوا ذلك اسرعوا ببيع صداقتنا، والتضحية بعلاقات الود القديمة ... اللعنة على هؤلاء اليهود ... »

وقال الحارث بن عوف سيد غطفان :

— « الحقيقة ان محمداً يرعى العهد، ولا ينقض الميثاق، ويعترف بأخطاء رجاله ... اما اليهود فلا وفاء لهم ولا عهد ... »

وصمت برهة ثم عاد يقول :

— « ومع ذلك فلن نتراجع، لا بد من الحرب، ماذا يقول العرب عنا اذا رجعنا بخفي حنين ؟ ؟ ماذا تقول القبائل ونحن نعود ادراجنا حفاة عراة جياعاً، دون أن ننال أيسر نيل من محمد ؟ ؟ وماذا نحمل معنا للنساء والاطفال بعد هذا الغياب الطويل ؟ ؟ ألا ان عودتنا على هذه الصورة سوف تضعف من الثقة بقواتنا واحلافنا، وستزيد من احترام العرب لمحمد، وفي نفس الوقت اذا فكرنا ثانية في أن نحشد جيشاً لمنازلة محمد فلن يتبعنا احد... أجل لن يتبعنا أحد ! ! وكيف ننصرف دون حرب، ونحن نملك الرجال والمال والسلاح... والتفوق على المسلمين في كل شيء ؟ ؟ لا بد ان نخوضها حرباً شعواء ضد محمد، ولن نعتمد على اليهود في شيء لن نعطي اليهود الرهائن، ولن ننتظر اشتراكهم في المعركة، يجب ان نمضي وحدنا حفظاً لكرامتنا وماء وجوهنا ... ولأن هزيمة المسلمين أمر مؤكد لا خلاف عليه ... ثم التفت إلى أبي سفيان قائلا :

— « ما رأيك يا أبا سفيان ؟ ؟ »

قال أبو سفيان :

— « دعني أعيد النظر وأفكر في الأمر من جديد ... »

ومال الحارث بن عوف على عكرمة بن أبي جهل وقال :

— « وأنت يا عكرمة ؟ ؟ »

— « انني أؤيدك في كل ما قلته ... »

قال أبو سفيان في شيء من الهدوء :

— « صبراً يا عكرمة ، لا يصح ان يبت في كبريات الامور هكذا على وجه السرعة ... لنفكر الليلة باهتمام وجد ... وسنعود لتبادل الرأي يا حارث بن عوف في الغد ... »

وتركهم الحارث غاضباً ، وأخذ سمته نحو مضارب غطفان ، وهو أشدهم اصراراً على شن الهجوم الخاطف على المسلمين في قلب المدينة ، وتمتم لنفسه : — ولو استطعنا قهر المسلمين فلن يفلت بنو قريظة منا ... هؤلاء الغادرون الجبناء المترددون لسوف نلقنهم درساً لن ينسوه ...

التفت ابو سفيان ناحية عكرمة بن أبي جهل بعد انصراف الحارث وقال له :

— « يا عكرمة ... الا ان هؤلاء الرجال من قريش أمانة في عنقي ، ولن القي بهم في تهلكة ، أو أخوض بهم معركة يائسة ... ان محمدا على جانب كبير من الحيطة والذكاء ، وهو يضن بالتضحية بأتفه الرجال واحقرهم شأناً على الرغم من انه يؤكد لرجاله ان شهيدهم في الجنة ... أتريد يا عكرمة من أبي سفيان ان يكون أقل من محمد خوفاً على رجاله ، واهتماماً بهم ؟ ؟ يا عكرمة ان اليهود ماكرون ، يبحثون عن منفعتهم الشخصية ، ويبيعون أغلى المقدسات للحفاظ على انفسهم ، ولقد صدق نعيم بن مسعود حينما حذرنا من اعطائهم الرهائن ... فكيف نحارب في صف واحد مع هؤلاء اليهود ... ثم هناك غطفان يا عكرمة ! ! أنسيتم انهم كانوا على وشك ان يعقدوا صلحاً منفرداً مع محمد مقابل ثلث ثمار المدينة ؟ ؟ لقد تناسوا ما بيننا من عهود ، وداسوا الحلف باقدامهم من أجل ثلث الثمار ، فهل غطفان جديرة بعد ذلك بان نحارب إلى جوارها ، ونحن مطمئنون لنواياها ومواثيقها ؟ ؟ لقد كان خطأ كبيراً ان نتحرك من مكة ، ونستمع لصراخ اليهود ومزاعم حيي بن أخطب ، ونزوات غطفان ... انني يا عكرمة لن أفرط في رجالنا في هذه المعركة الغامضة ... ولن نعطي المسلمين فرصة كي يسحقوا كبرياءنا كما سحقوها في بدر ...

وزأرت العواصف فجأة ...

كان الليل بارداً مظلماً ، والسحب تغطي السماء باستارها القاتمة ، والريح تصفر في

جنون حتى أنها اقتلعت بعض الخيام، وقلبت كثيراً من قدور الطعام، وحملت النيران المشتعلة قسراً من مكان إلى مكان ... فاشتعلت بعض الحرائق ...

وهتف عكرمة :

— « ماذا جرى ؟ ؟ لكأنما قد انقضت الشياطين على عسكرنا ... »

قال رجل في الظلام :

— « أخاف أن يكون المسلمون قد داهمونا فجأة ... انني اسمع قعقعة سلاح وصهيل جياد ... وتكبير الجنود وتهليلهم ... »

قال عكرمة في حنق :

— « انه وهم يجسمه الظلام والخوف والعواصف ...

وصاح أبو سفيان في رعب حقيقي :

— « الرحيل ... الرحيل ... اسرجوا الخيول، واعدوا الابل وانتزعوا الاوتاد والحبال، ولترجعوا إلى مكة ... إن جنوداً لا حصر لها تحاصر المكان ... هذا ما أعتقده ... »

هز عكرمة رأسه في أسى وقال :

— « لقد خسرنا معركة ونحن في اوج قوتنا ... ما معنى ذلك ؟ ؟ وكيف حدث هذا؟؟ انني لا أكاد اصدق ما أرى واسمع ... »

●

أفاقت غطفان على الحقيقة المرة، لقد علمت ان قريشاً ترحل إلى ديارها دون استشارتها وأخذ الحارث بن عوف يشد لحيته في عصبية وضيق، ماذا يفعل هو ورجاله ؟ ؟ لا بد ان يرجعوا من حيث جاءوا ...

وصاح وجسده كله يرتجف :

— « يا رجال غطفان والقبائل ... اعدوا انفسكم للرحيل ... لم يعد من بقائنا فائدة تذكر ... اللعنة على قريش ... وعلى قريظة ... تحركوا قبل أن يفضحنا نور الصبح، وينظر الينا المسلمون في استهزاء وسخرية ... »

وبلغ النبأ مسامع حيي بن أخطب ...

كاد يجن جنونه، وأخذ يجري هنا وهناك، ويصرخ صوب معسكر الحلفاء وهو يعلم ان صوته لن يبلغهم ...

— « أيها الحقراء المجرمون أين تذهبون ؟ ؟ لقد حكمتم على انفسكم بالفناء ... ان محمدا لن يتر ككم غدا ، بل سيغزوكم في عقر داركم ، فكيف تضيعون اعظم فرصة أتيحت لكم ؟ ؟ لن يتر ككم محمد ... »

ثم انفجر باكياً والقى بجسده المنهك على التراب وهو يقول :

— « ولن يتركنا أيضاً .. لقد ضاع كل شيء ... »

ثم صمت وهو يجفف دموعه ، يقول :

— « لقد صدق نعيم بن مسعود ... »

وسعل من خلفه شيخ عجوز ، ثم اقترب منه وقال :

— « وصدقت اليهودية ... ان كل شيء ينهار ... لم أعد أرى في الافق الاسود الا الحزن والضياع والعار ... ولم لا ؟؟ نفس الحكايات القديمة ... ادفعوا ثمن الغدر ونقض العهود ... يا أبناء اليهود ... على نفسها جنت براقش ... اعدوا انفسكم ليوم هول جديد »

هب حيي بن أخطب واقفاً وقال :

— « لا ... لن نستسلم حتى آخر قطرة من دم ... ولدينا الوقت الكافي لتدبير امورنا ، فلا داعي للهرج والمرج ... »

واعاد النظر إلى الأفق البعيد ، وظل يقظاً حتى الصباح يتطلع إلى هناك ... اين مضارب الجند من غطفان وقريش واسد وفزارة ؟ ؟ لقد رحلوا ... واين احلام النصر والخلاص والثأر للضائعين ؟ ؟ لقد تحولت الاحلام الوردية إلى كومة من رماد تختلط بالقاذورات والعفن... أهذا هو الحصاد يا بني قريظة ؟ ؟ لقد رحلوا ... حلفاؤنا رحلوا إلى مكة وغطفان ... هناك يجدون الحماية ، بعيدين عن النار والثأر والعقاب ... بعيدين عن المدينة ... اما نحن ... آه ... الطريق يمتد أمامي أسود فاحماً كوجه ابليس ... وعلى جانبيه الافاعي ... ينتثر على ثراه الشوك والعذاب والحفر... وهيهات ان يعود الصفاء والسلام ! !

الفصل الثلاثون

ساد الذعر معسكر بني قريظة، وانتابهم ارتباك شديد، وأخذوا يتخبطون في آرائهم يمنة ويسرة، واختلط الصياح بالانتحاب، أصوات رجال ونساء وأطفال، لا يكاد السامع يتبين تفاصيل ما يلقي من أحاديث ونقاش، الشيوخ يقولون في صوت راجف: لقد حذرناكم مغبة سوء التصرف، والشباب يقولون: لقد أخطأ القادة التصرف، وقذفوا بنا في أعماق تهلكة لا قرار لها، والنسوة يهتفن في لوعة:

« لقد أحلتم أمننا إلى خوف، وهدوءنا إلى اضطراب، وسعادتنا إلى شقاء، فابحثوا لنا ولكم عن حل... ويبكي الأطفال في حسرة، ويتساءلون في براءة... ماذا جرى ؟ ؟ اننا سنذبح ذبح الشياه في وقت قريب...

وصاح كعب بن أسد :

— « أين المجرم حيي بن أخطب ؟ ؟ »

لقد اختفى حيي، انهم يبحثون عنه، وسط الرجال فلا يجدونه...

— « لو وجدت حيي بن أخطب لمزقته ارباً ارباً... دلوني عليه يا قوم... »

ورد رجل آخر :

— « ولِمَ العجلة؟ ؟ انتظروا حتى نرى كيف يحل الاشكال المدمر الذي ورطنا فيه... »

لم يكن أحد يدري كيف اختفى حيي بن أخطب ولا إلى أين ذهب، ومن ثم أخذ رجال بني قريظة يتحدثون عنه في غيظ، ويرمونه بالحماقة والأنانية، انهم يحسبون انه قد هرب... كما هرب بن أبي الحقيق منذ ساعات... أيمكن أن يكون حيي هو الآخر قد هرب ؟ ؟ أهكذا يكون القادة والمسئولون من كبراء القوم وخيرة الرجال ؟ ؟ ان قريظة ترى الهارب في هذا الوقت خائناً يرتكب في حق الدين والوطن أكبر خيانة، ولا يمكن ان تغتفر جريمة الهروب في هذه اللحظات، وخاصة من حيي بن أخطب الذي عاهدهم على البقاء إلى جوارهم حتى النهاية، فهو الذي رسم طريق الحرب، ودعا اليها، وسار بشأنها إلى القبائل من غطفان وأسد وغيرهما، وهو الذي أقنع قريشاً بان تسوق جنودها إلى المعركة الفاصلة، ثم إنه أولا وآخرا هو الذي ألح على بني قريظة كي تنقض العهد، وتتملص من وعودها

مع محمد، فكان أن طعن اليهود المسلمين في أحرج الاوقات طعنة نجلاء لا تنسى ! !
أيمكن أن ينسى المسلمون أمر كهذا ؟ ؟ ان حيي بن أخطب هو الذي قاد هذا التمرد،
وهو الذي ساهم بنصيب الأسد في تحريك تلك الفتنة لاشعال حرب كبرى تبيد المسلمين
عن آخرهم ... فكيف يهرب هو ويترك ضحاياه يسقطون في مأزق خطر كهذا ؟ ؟
ان الواجب عليه ان يبقى مسئولا وقائدا ... كما كان قبل النكبة ... ليبق لا حبا فيه، ولا
ايماناً بخطبه الفاشلة في اثارة العرب ضد المسلمين، ولا حفاظاً على رجل مخلص عظيم في
يده الخلاص ... لا ... ليبق حيي بن أخطب وليقف في المقدمة كما كان... فان حلت كارثة
أخرى وقعت على رأسه قبل رؤوسنا، وذاق مرارتها مثلما نذوق، وشعر بما يشعر به التعساء
المعذبون من بني قومه ...

ولقد كان حيي بن أخطب عند حسن ظنهم ... انه لم يهرب، فبعد أن رأى رحيل قريش
وغطفان وغيرهما، أيقن أن الضربة التي كان ينوي توجيهها إلى محمد قد باءت بالفشل،
وأن محمداً بقيَ كما هو طوداً شامخاً، وقوة لم تضعف أو تنهار، وأيقن أن هذه الأزمة سوف
تزيد المسلمين قوة إلى قوتهم، وستجعل قلوب الناس تهفو اليهم، فيكثر أتباعهم ولم لا
تهفو مشاعر الخلق نحو التوحيد والحرية ... نحو راية القرآن الذي يجمع بين دفتيه خير الدنيا
والآخرة ...

والأهم من هذا كله، ماذا سيفعل محمد بيهود بني قريظة، أولئك الذين نقضوا العهد في
أحرج الأوقات، وكادوا يتسببون في فناء حقيقي للمسلمين، ويجعلون الدائرة تدور عليهم؟
هذا هو السؤال الذي يطن في رأس حيي بن أخطب ورأس كعب بن أسد، وهو نفس
السؤال الذي يتردد في أروقة البيوت والشوارع والحوانيت، انه السؤال الذي يشغل قريظة
كلها ... أيمكن أن يكون مصيرهم مثل مصير بني قينقاع وبني النضير ؟ ؟ ماذا لو
أرسلوا الرسل إلى محمد، وبعثوا اليه بالهدايا، واعتذروا له عما بدر منهم، وأبدوا أسفهم
العميق لما حدث ؟ ؟ أيمكن أن يعفو عنهم، ويكتفي بأن يفرض عليهم غرامة مادية، ثم
يعود كتابة العهد المنقوض من جديد ؟ ؟

وشعر حيي بن أخطب أن رأسه يكاد ينفجر. انه غريق في بحر لجي من الحيرة والاضطراب
والرعب... أجل ... الرعب ... يبحث عن قشة يمسك بها لعلها تأخذه إلى الشاطىء البعيد..
شاطىء النجاة ... والبحر مضطرب ثائر، والسماء سوداء ليس فيها بصيص من نور ...
وسمعه يزدحم بضجيج وصراخ وعواء ... انه يكاد يجن ... أين أذهب ؟ ؟ آه ... لقد
تذكرها ... تلك المجنونة ... العاقلة ... اليهودية ... تلك التي حذرتنا يوم بني قينقاع ...
ونصحتنا قبل أن تحدث مأساة بني النضير ... والتي كادت تجن وهي ترانا نرتكب الخطأ
الثالث في بني قريظة لقد حقرنا من شأنها، وسفهنا آراءها، ورميناها بالجنون والعته ... ان
لهذه المرأة كلمات واضحة صريحة وأحياناً لها تأثير نفسي طيب ... لسوف أذهب اليها ...

وأخذ حيي بن أخطب يتحسس الطريق اليها، وقصد إلى بيت صغير تأوي اليه ... كانت تجلس منهكة شاردة النظرات، لم تنطمس بعد معالم وجهها الجميل ... وعندما رأته كشفت عن وجهها الشاحب وقالت :

— « هل أتيت ؟ ؟ »

— « أتيت محطماً عاجزاً أبحث عن نور ... »

طأطأت رأسها في حزن وقالت :

— « لقد خلفت النور وراءك يوم أن غدرت بعهد محمد ... »

— « أما من عودة إلى هذا الطريق ؟ ؟ ليس من أجلي ... ولكن من أجل المفزعين من بني قومنا ... »

— « لست أملك الاجابة يا حيي بن أخطب ... »

ودهش حيي إذ رآها هادئة حزينة، وليست كما رآها لآخر مرة حينما كانت تصرخ وتصيح وتحذر، وتعترض، وتلقي بعض الكلمات الجارحة ... وتمتم حيي .

— « ما بك ؟ ؟ »

— « لا شيء يا ابن أخطب ...

— « أراك هادئة ... ألا تعرفين أنهم رحلوا ... رحلت قريش والقبائل، وتفرقت الأحزاب ... وبقينا وحدنا ... ننتظر ... »

قالت ودموع تتسرب من خلف أهدابها :

— « أجل ... انني هادئة ... لأن كل شيء قد انتهى ... »

— « ماذا تعنين ؟ ؟ »

— « لقد استسلمت ... لم يعد هناك جدوى من فعل شيء ... انني الآن أعيش على أمل الموت ... أقتات الحزن، وأذرف الدمع، واستشعر مرارة الندم ... »

قال حيي وقد دق قلبه :

— « ألا تفكرين في مصير التعساء من بني قريظة ؟ ؟ ألا تفكرين فيما ينتظرهم ؟ ؟ »

— « لقد فكرت يا حيي عندما كان هناك جدوى من التفكير ... أما الآن ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « ليدفع الغادرون ثمن غدرهم ، وليجاز الخونة على خيانتهم ... هذا هو العدل ... »

قال حيي في ضيق :

— « العدل ... »

— « أجل يا حيي بن أخطب ... وماذا تنتظر من رجل أردت أن تقتله ؟ ؟ وبأي وجه يقابلك المسلمون وقد غدرت بهم في أحرج الأوقات ، ورسمت الخطط الرهيبة للقضاء عليهم وافنائهم ؟ ؟ ألا تعتقد يا حيي بن أخطب أن الجزاء من جنس العمل ... وأن في القصاص حياة ؟ ؟ »

لم ينكر حيي بن أخطب انه ارتكب خطأ فادحاً ، وأن بني قريظة قد أتوا إثماً باهظاً لا يمكن الافلات منه ، لكن حيي يبحث عن وسيلة يقترب بها إلى المسلمين ، ويترضى بها محمدا ، لهذا جاء إلى اليهودية يسألها الرأي كي يستنير بتوجيهاتها ...

وقال حيي :

— « ان محمدا ذو قلب طيب كبير ، يتسع صفحه لكل الخطاة ... »

سددت اليه اليهودية نظرات فاحصة وقالت :

— « أتعتقد ذلك حقاً ؟ ؟ »

— « بكل تأكيد ، أنت تعرفين ... »

— « أعرف أنك رميته بالقسوة و ... وأشياء كثيرة أراني في غنى عن سردها . إنك تريد الافلات لتدبر المكائد من جديد يا حيي بن أخطب ... انني أفهمك جيداً ... »

قال متنهداً :

— «آه ... انني أعتب عليه ما فعله في بني قينقاع وبني النضير ، ولهذا رميته بالقسوة

— « وماذا تقول عن نفسك وعن بني قريظة ... أثناء تجمع الأحزاب ، وانحيازكم إلى المعتدين في ذلك الوقت العصيب ؟ ؟

وسمعت دقات على الباب الخارجي ، ودخل أحد الرجال وقال في صوت متحشرج لاهث :

— « يا حيي بن أخطب ... ألم تسمع ما جرى ؟ ؟

— « ماذا ؟ ؟ »

— « ان المسلمين بقيادة محمد في الطريق الينا ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « هذا ما حدث ... »

— « اذن فلتسرعوا إلى حصونكم وقلاعكم ، والبسوا لباس الحرب ، وأعدوا أنفسكم ليوم عصيب ... ان لدينا من الأقوات والسلاح والرجال ما يكفي لصمودنا فترة طويلة.. »
وضحكت اليهودية في مرارة وهي تقول : « ألا تعرف كيف حدث ذلك يا حيي بن أخطب ؟ ؟ » وأسرع حيي خارجاً ، وكم كانت دهشته حينما رأى اليهود يعانون من ضيق شديد ، ورعب قاتل ، فلو صحت شائعة قدوم المسلمين إلى هنا ، فليس هناك مدعاة لذلك الرعب كله ، ان لدى اليهود من الاستعدادات المختلفة ما يجعلهم في أمان لفترة طويلة ، وحصونهم منيعة لا يمكن اختراقها بسهولة ، ثم ان المسلمين ليس من المعقول أن يخرجوا لحرب قريظة في اليوم التالي لرحيل الأحزاب ، ان المسلمين قد نالهم كثير من التعب والعناء وهم يحرسون حول المدينة ، ويرابطون إلى جوار الخندق ، وينازلون الأعداء في معارك متعددة ... فهل يصدق عاقل أنهم يخرجون توا لحرب قريظة ، وهم أشد ما يكونون ارهاقاً ، وأشد ما يكونون لهفة للقاء أزواجهم وأولادهم ؟ ؟ وأمام ما تموج به جموع قريظة من خوف وهلع ، وقف حيي بن أخطب بينهم خطيباً وقال :

— « يا بني قريظة ...

أراكم في هم قاتل ... ألا انكم لتهزمون أنفسكم دون أن توجه اليكم سهام من عدوكم ، وتمهدون لنصره عليكم ، وانتم في ايديكم القوة والصبر على البلاء ، والصمود في الصباح والمساء ، يا بني قريظة ... انكم أوفر مالا من محمد ، وأكثر ماء ، وأقوى شكيمة ، وأمنع حصوناً ... »

وصاح رجل وسط الجموع الهادرة وقال :

— « يا حيي بن أخطب ... انك تخدعنا ... »

صمت حيي برهه ، ثم مضى في خطبته ...

— « لقد أردت لكم الخير دائماً ... حاولت جاهداً أن ارتفع باسمكم إلى عنان السماء ، وأن أكيد لعدوكم ، وأرفع من شأن دينكم ، وحاولت أن أحشد العرب لحماية تراثكم ، والنيل من محمد وصحبه ... أما وقد جدت أمور لا حيلة لي فيها ، فليس معنى ذلك أنني أخدعكم ... »

وصاح رجل آخر من بني قريظة مقاطعاً :

— « يا حيي بن أخطب أنت ترمي بنا في المهالك ... »

صاح حيي بن أخطب بصوت محتبس :

— لقد أردت لكم النجاة يا بني قريظة ... لم أكن أهدف الا إلى السلام والمنعة لكم ولسلطانكم في بلاد العرب ، وكنت أفكر في اخوان لكم ساروا في الدروب الطويلة وسط الصحارى القاحلة ، يجرون خطاهم الذليلة في أرض العذاب والضياع ... »

وحدثت همهمات واعتراضات صاخبة ، كلها يتهم حيي بن أخطب بالخطأ وسوء التقدير وأدرك حيي أنه من العسير عليه أن يرد إلى هذه الجموع أمنها واطمئنانها بهذا الاسلوب لا بد أن يبحث عن اسلوب آخر يناسب هؤلاء الذين تحطمت آمالهم ، وتلوثت بالقاذورات أسلوب يتفق مع ما يسودهم من ذعر وجبن بالغَيْن ، اذ أن الكارثة وشيكة الوقوع ، والعقاب محقق ، وذلك لأن محمدا أقوى الجميع في ذلك الوقت ، واندحار الأحزاب قد قوى من جبهته ، ورفع من روح جنوده ، ولأن جريمة اليهود وادانتهم أمر لا يختلف فيه اثنان ... لهذا تصرف حيي بن أخطب بسرعة ، وغير أسلوبه في الحديث ، واستطرد يخطب :

— « يا بني قريظة ...

يكفي ما تعرضنا له من هجوم ومآسي ، وأراكم فعلا متعبين وفي مسيس الحاجة إلى أيام من الدعة والهدوء ، حتى تسكن نفوسكم وأرواحكم ، وتستقر أفئدتكم ... ولهذا سوف أوفد الرسل إلى محمد بن عبد الله ، مستعيناً بحلفائنا الأقدمين من الأوس والخزرج ... وسنبدي له أسفنا واعتذارنا ، بل واستعدادنا المطلق لكل ما يطلبه منا ... مقابل الصفح عما ارتكبناه في حقه من نقض للعهد ... لقد كان في نيتنا يا بني قريظة أن نغتال محمدا وان نقضي على المسلمين ... لكن شيئاً من ذلك لم يوضع موضع التنفيذ ... ومن ثم فان فرصة الصلح مع محمد فرصة كبيرة ... وبعدها يعود الوئام والاطمئنان وتسود روح الود والصداقة بين اليهود والمسلمين من جديد ... »

وساد الصمت فترة وجيزة ...

وعاد حيي بن أخطب يصيح قائلاً :

— « ما رأيكم ؟ ؟ »

قال أحد الشيوخ :

— « لعل هذا هو التصرف الوحيد الذي قد يؤدي إلى حقن الدماء ، وسيادة السلام وما أظن أن هناك بديلاً لهذا التصرّف ...

وقال حيي بن أخطب معلقاً :

— « ومع ذلك يجب أن نكون على حذر ... سيوفنا في أيدينا ... ورجالنا في قلاعهم

وحصونهم ... ومداخلنا محروسة ... والجميع على أهبة الاستعداد ... انه قد تجد أمور يا بني قريظة ... فلا مناص من الحيطة ... »

•

وارتفعت ضحكة ساخرة ...

وتلفت حيي بن أخطب، ليرى من هذا الذي لا يحترم مشاعر الأسى العام الذي لف الربوع، وحط على قلوب الناس ووجوههم .

— « من ؟ ؟ كعب بن أسد ؟ ؟ أين كنت ؟ ؟ ولم تضحك ؟ ؟ »

استجمع كعب كل شجاعته وقوته، ثم بصق ... بصق بقوة في وجه حيي بن أخطب. وصرخ قائلا :

— « ألم أقل لك أنك امرؤ مشؤوم ؟ ؟

ألم أقل لك يا حيي بن أخطب ... أنك جئتني بذل الدهر، وكل ما يخشى ... جئتني بجهام قد أهريق ماؤه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ؟ ؟

ألم أقل لك يا حيي ... دعني وما أنا عليه ... فاني لم أر من محمد الا صدقاً ووفاء ... عمّ تتحدث الآن أيها الشيطان ؟ ؟ لقد أحاط بنا الفناء من كل جانب ... ان الشيء الوحيد الذي يبرد غلتي، ويهدىء من ثورتي ... هو أنك معنا ... معنا ... لتشرب من نفس الكأس المريرة المذاق ... تلك التي سنشربها حتى الثمالة ... أيها الملعون ... »

الفصل الواحد والثلاثون

— « صدق الله وعده »

هذا ما قاله عم بن الخطاب حينما جاءه نبأ انسحاب الأحزاب، ان ما حدث أمر عجيب حقاً، بل هو بالمعجزة أشبه، أيأتي هذا الجيش الضخم، ويداهم المسلمين وهم في حالة من القحط والقلة لا مثيل لها، يأتي اليهم هذا الجيش، وقد غدرت قريظة، وانسل المنافقون لائذين بالفرار، وملك الرعب الناس لما يتحققونه من أخطار محدقة ... ثم ... بعد هذا كله تنسحب الأحزاب ؟ ؟ الله أكبر ...

— « أحقاً رحل الأحزاب يا ابن الخطاب ؟ ؟ »

— « من ؟ ؟ رابح ؟ ؟ »

— « أجل ... لقد انتشر النبأ في كل مكان ... المنافقون لا يصدقون ... ويرفضون الخروج من أوكارهم، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وبنو قريظة تحشد الرجال والسلاح..

خبرني يا عمر ... الفجر لم يطلع بعد ... والحقيقة تائهة ... »

هز عمر رأسه وقال ووجهه يطفح بشراً :

— « صدق الله وعده يا رابح ... ونصر عبده ... وأعز جنده ... وهزم الأحزاب وحده. « ثم التفت إلى رابح الذي هزته موجة عارمة من الفرح، وقال :

— « رابح ... »

— « ماذا يا ابن الخطاب ؟ ؟ »

أشار عمر عبر العتمة إلى ناحية مساكن بني قريظة، وقال في حزم :

— « للمعركة ذيولها ... لا بد من القضاء على ذلك الحزب الباقي الذي يكمن خلف ظهورنا كالثعبان ... »

— « بنو قريظة أجل ... سددوا الطعنة الينا في الظلام، فعلوها في وقت عصيب ... لكن ... »

قال عمر في دهشة :

— « لكن ماذا ؟ ؟ »

— « الرجال متعبون ... في حاجة إلى الدفء والطعام والنوم ... والتزود بنظرة إلى عيالهم ونسائهم بعد هذه الايام الشاقة ... »

ودق قلب رابح حينما تذكر العيال والنساء ... دق بقوة وسرعة ... لكنه عاد يقول :

— « دعني أجري يا عمر وسط الشوارع ... وعبر الساحات ... وبين مرابط الجند ... دعني أجري وأصيح في كل مكان بالمدينة ، وأقول ... الله أكبر ... لا اله الا الله وحده ... صدق وعده ... ونصر عبده ... وأعز جنده ... وهزم الاحزاب وحده ... دعني أملأ الآفاق فرحاً وبشرا ... دعني أعيد إلى نفوس الخائفين الأمن والرضى ... وإلى نفوس المترددين اليقين والثقة بالله ... دعني أفجع المنافقين في آمالهم الخبيثة ، وأحلامهم المريضة .. دعني أملأ الآفاق ترنيماً بفضل الله ونعمته علينا وعلى الناس ... هذا يوم عظيم يا عمر ... من أيام الله الخالدة ... ولم لا ؟ ؟ ألم ينصرنا الله بعد أن بلغت القلوب الحناجر ، وظننا بالله الظنون ؟ ؟ »

ولم ينتظر « رابح » رد عمر عليه ، بل انطلق صائحاً « يا معشر المسلمين ... » وأخذ ينشر الأنباء الجديدة عند مطلع الصبح ، فامتلأت الشوارع بالأطفال ، وتطلعت أعين النسوة من الأزقة والأبواب النصف مغلقة ، ورفع الشيوخ أبصارهم الكليلة نحو السماء ... هذا يوم الشكر لله ..

•

عاد الرسول في الصباح إلى المدينة ، كان يلهج بالشكر لله ، انه يرى البسمة تعلو وجوه المتعبين والساهرين ، واشراقة الأمل تلمع فوق جبين الخائفين ، وأمارات اليقين تتردد على شفاه المؤمنين الذي لم يراودهم الوهن أو الشك في وعد الله ... انه يوم مشهود ، واحتشد المقاتلون ومعظم أهل المدينة يباركون للرسول ذلك النصر المؤزر ، وكل جوارحهم تهتف بالشكر لله ... والناس ينظرون إلى فترة من الراحة والاستجمام ... العيون التي طالما هدها السهر ، والقلوب التي طالما أرجفها الخوف ، وليالي الحرمان والجوع والبرد ... كلها مبررات كافية لفترة من الدعة والراحة ...

لكن الرسول يأمر المسلمين أمراً لا رجوع فيه ، وكيف يترددون وهم يعلمون ان دعوة الرسول الفورية لمحاصرة بني قريظة ان هي الا أمر الوحي ... أمر الله ؟ ؟

ونادى عمر — « ان الرسول يأمركم بان تصلوا العصر في بني قريظة ... » وكان

الوقت ظهراً ... في بني قريظة ؟؟ كيف ؟؟ لو قدر لمعركة ان تنشب الآن بين المسلمين وبين بني قريظة فانها ستكون معركة شاقة، فبنو قريظة مساوون في العدد — بالنسبة للجنود المقاتلين — للمسلمين وبنو قريظة لم يرهقهم سهر وجوع وخوف، ولديهم الكثير من المال والماء والطعام... والمسلمون على ما هم عليه من قحط وتعب وارهاق ... هذا ما كان يختلج في نفوس المجاهدين المسلمين، وعلى الرغم من ذلك الا أنهم، لم يتراجعوا، كانوا يعدون العدة، ويحملون السلاح، وينظرون إلى حصون بني قريظة التي تلوح في الأفق القريب ...

وقال عمر لمن حوله من جند المسلمين :

— « أراكم تتثاقلون، وكأنكم تتذرعون بالتعب وما حل بكم في الليالي العصيبة ... ألا فاعلموا أن ترك بني قريظة يجعل من نصركم نصراً ناقصاً ... ان بقاء قريظة، سيمد في حبل المؤامرات والدسائس ، وفيهم حيي بن أخطب، لسوف يعيدون الكرة، ويحشدون الناس لحربكم ويتصلون بيهود خيبر ... فلا يصح أن نتركهم ليتدبروا أمرهم، ويحاولوا الاتصال بحلفائهم، يجب أن نجهز عليهم، وهم في ذهول وحيرة، ان انصراف الأحزاب عنهم ، ضربة في الصميم، فاذا ما أتيناهم وهم على ما هم عليه من الوهن والخوف، قضينا عليهم القضاء النافذ، وأنفذنا أمر الله فيهم، ونالوا على أيدينا — جزاء خيانتهم وغدرهم اذ لولا لطف الله لقطعوا رؤوسكم، وسبوا نساءكم وذراريكم، وسلبوا كل ما تملكون... »

قال رابح وهو يحرك سيفه في سعادة :

— « أو تظننا ننكل عن أمر الله ورسوله يا ابن الخطاب ؟؟ لقد كفانا الله مؤنة جيش يربو على عشرة آلاف، ولعله ادخرنا ليوم قريظة الملعونة ... »

وأقبل سعد بن معاذ سيد الأوس، وقال :

— « لكم الويل يا بني قريظة ... لقد حذرتكم سوء المآل، وألححت عليكم في الحفاظ على عهدكم مع رسول الله... لكنكم أبيتم الا المبادرة بالغدر، وأظهرتم فظاظتكم وأحقادكم ووجهتم إليّ كلمات بذيئة ... يخجل اللسان من ترديدها ... »

لكم يؤلمني أن تلقوا بأنفسكم إلى هذه التهلكة التي لا مهرب منها ... »

ضحك عمر بن الخطاب وقال :

— « إلى من توجه الحديث ؟؟ انتظر حتى تبلغ ديارهم ... »

قال سعد بن معاذ شارداً :

— « لم أزل أذكر جيداً ما حدث ... أذكر حيي بن أخطب وهو يسخر ويسب،

ويوجه أقذع الكلمات الي ... وإلى رسول الله ... وأذكر كعب بن أسد ... الحقيقة أن كعب بن أسد كان يخشى الدوائر وان لم يفصح لنا عن شيء من خوفه ... كنت ألحظ على وجهه شيئاً من التردد لكنه كان يقاوم ضعفه ... أما عمرو بن سعدى ... فقد قال « والله لا أغدر بمحمد أبداً ... » كنت أرى في وجوه الجميع — عدا عمرو بن سعدي — الشماتة والحقة ... انهم حلفائي في الجاهلية يا عمر ... ولقد كنت حريصاً تمام الحرص الا يقعوا في خطأ جسيم ... كنت أخاف عليهم يوماً أبشع من يوم بني النضير ... لكن حيي بن أخطب ملأ قلوبهم بالحقد الأسود والغرور » وأخذ عمر يتحدث عما حدث، محاولا تفسيره، انها ارادة الله، ان الغدر الذي يخالط مشاعر اليهود، ويسيطر على أفكارهم، لا بد وأن يكون له نهاية، فوجوده خطر على الاسلام والمسلمين ، وقد شاء الله أن يكشف بنو قريظة عن نواياهم المختبئة حينما أيقنوا — أو هكذا صور لهم الوهم — ان هذه الحشود من قريش وغطفان وغيرهما قادرة على سحق المسلمين، والقضاء عليهم قضاء تاماً ... ومن ثم أفحشوا في القول لوفد الرسول، وقذفوا بكلماتهم البذيئة في قحة لم يألفها سعد بن معاذ ...

ثم قال عمر :

— « ان القضاء على حيي بن أخطب أمر ضروري ... »

قال سعد بن معاذ :

— « أو تعتقد أنه لم يغادر بني قريظة ؟ ؟ انه يفر في مثل هذه الاوقات الحرجة ... »

— « لقد علمت يا سعد ان كعب بن أسد سيد قريظة اشترط على حيي بن أخطب ان يبقى بحصونهم ليشاركهم في تحمل ما قد يلحق بهم من اضرار، اذا اراد ان ينحاز بنو قريظة للاحزاب ... »

— « أعرف ذلك ... »

وقبيل المساء كان المسلمون قد أكملوا حشودهم حول حصون بني قريظة بقيادة الرسول..

تطلع كعب بن أسد من ثغرة من الثغور ... فرأى عدداً كبيراً من جنود المسلمين يحيطون بديار بني قريظة ... ثم مد بصره إلى بعيد ... آه ... هذا يوم الفصل ... لقد ذهبت قريش وعادت ادراجها إلى مكة، لتنحر الجزر، وتشرب الكوؤس المترعة، ولتستمع إلى عزف القيان والمطربين والمطربات ...

وعادت غطفان إلى باديتها، تنعم بالحرية والانطلاق ... أما نحن ... آه ... يا لهول المصير المزعج ... النساء يولولن يا كعب بن أسد ... والأطفال يبكون وينوحون يا كعب

بن أسد ... والفنـــاء يتهدد الجميع يا مسكين ... ومحمد كما هو كالطود الشامخ محمد كالعهد به يحيل الهزيمة إلى نصر ... ويواجه العالم بأسره لا يخاف ... وينتصر ... ينتصر دائماً ... يا للكارثة ! ! بنو قريظة — وأنا سيدهم — يتهددها الفناء ... بنو قريظة جنى عليها سفهي وغبائي ، وانصياعي لأحقاد حيي بن أخطب ..

وسمع كعب خلفه صوتاً يهتف به :

— « لا عليك يا كعب ... ان لدينا من المؤن والذخائر والماء ما يكفي لمدة عام ... »

التفت خلفه وقال :

— « من ؟ ؟ حيي بن أخطب ؟ ؟ ألديك بقية من عقل يفكر ؟ ؟ أترى المصير الاسود يا ابن أخطب ؟ ؟ قل انك تراه وتلمسه ... قل ولا تنكر ... اعترف بالحقيقة المرة ولو مرة واحدة ... انظر ... كيف جئتني بعز الدهر ... أهذا هو عز الدهر يا حيي بن أخطب

قال حيي الشاحب الوجه :

— « لا جدوى من هذا الكلام ... »

— « انك تهرب من خطاياك ... »

— « خطاياي ؟ ؟ لقد أردت لكم الخير ، فأخطأت ... »

— « هذه الدماء التي توشك أن تصبغ الرمال ... في عنقك أنت ... »

— « في عنقي أنا ؟ ؟ انني لم أرغمك على اتباع خطتي يا كعب بن أسد ، لقد كان لي وجهة نظر ... وكنت مؤمنا بها أعمق الايمان ، لم يخالجني شك في نجاح خطتي ... لهذا دعوتك اليها في اخلاص ... أنت وافقت بعد تفكير ... ووافق معك زعماء بني قريظة لماذا وافقتم ؟؟ تكلم ... كنتم تأملون في سحق محمد ، واجتياح المسلمين ، وارتفاع ذكركم ، وعودة السلطة اليكم ... ألم يكن الأمر كذلك ؟ ؟ لم يخطر ببالي أو ببالكم أن نمنى بهذا الفشل الذريع ... »

وعاد كعب بن أسد أدراجه ، ومعه حيي بن أخطب ، وعادا إلى الشارع ...

— « انظر يا ابن أخطب ، كيف نسيطر على هذه الجماهير المذعورة ؟ ؟ »

— « كما سيطر محمد على المسلمين في ساعات الروع القاتل ... »

— « آه ... دع محمدا وشأنه ... فنحن هنا في بني قريظة التي انفض حلفاؤها ، ووهنت أرواحها ، وأعول رجالها قبل نسوتها ... انظر الأسى الدامي يصبغ الوجوه وحتى الأبنية

والأرض والسماء ... كل شيء ينوح ويدمع يا ابن أخطب ... ترى أي شيطان قذف بك الينا في هذه الايام السوداء ؟ ؟

قال حيي وهو يجفف عرقه برغم البرودة الضارية :

— « ما جدوى هذا الكلام ؟ لنبحث عن حل .. »

— « عن حل ؟ ؟ »

قالها كعب بن أسد وهو يهز رأسه، ثم أردف :

— « ابحثوا أنتم، فأنا لا أرى أمامي بصيصاً من نور . »

هتف حيي :

— « لا ملجأ الا إلى سيوفنا ... الجِلادُ حتى الموت أو النصر ... »

قال كعب ساخراً : — « النصر ؟ ؟ هذا أمر بعيد المنال ... انظر إلى المسلمين وهم يكبرون ويهللون، انظر إلى وجوههم الضامرة، وقد نجاهم الله من كيد الأحزاب ... انهم على استعداد لان يتسلقوا الحصون المشتعلة، أن يصعدوا إلى السماء، أو يخوضوا البحار... أية قوة قادرة على صدهم ؟ ؟ تحدث يا حيي بن أخطب عن شيء آخر غير النصر ... »

زمجر حيي، وصاح محتداً :

— « اننا بهذه الروح لن نستطيع أن نواجه عدواً ... »

— « أنا أو أنت ... من منا يستطيع أن « يصوغ الروح القوية » لهذه الجموع المذعورة؟ الروح القوية لا يمكن خلقها في لحظات ... ان البذرة في جوف الثرى لا يمكن أن تقفز إلى نبتة ثم ثمرة مكتملة ... »

— « لِمَ نفكرُ في هذه الأمور ؟ ؟ ليس هناك سوى أن نحمل سيوفنا وندفع عن ديارنا وحصوننا حتى يخف لنجدتنا رجال من يهود « خيبر » وهم كما تعلم أصهاري وعشيرتي أو نبحث عن أعداء لمحمد كي يسرعوا لنصرتنا ... »

هز كعب بن أسد رأسه، وقال :

— « أما أنا فاني أفكر في أمر آخر ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « أن نعتنق الاسلام ... »

وثب حيي بن أخطب كمن لدغته عقرب، وصرخ :

— « ماذا ؟ ؟ »

— « ذلك هو طريق النجاة ... »

— « أصمت يا كعب بن أسد ... »

— « انني أعتقد أن محمداً على حق، انه يؤمن بموسى وبالتوراة، وبالأنبياء من قبله، لا يفرق بين أحد من رسل الله ... فما الذي يمكن أن نعيبه عليه ؟ ؟ ألم تبشر كتبنا بظهور نبي في هذا الزمان ؟ ؟ ألم يعتنق « ابن سلام » الاسلام وهو حبرنا الأكبر ، وعالمنا الفذ ؟ ؟

قال حيي بن أخطب :

« لو لم تكن كعب بن أسد لضربت عنقك ... »

وقدم عدد من رجالات قريظة، وحاولوا تهدئة الخواطر، وقال أحدهم :

— « ماذا ؟ ؟ أتريدون أن تقيموا معركة هنا » تريقون فيها دماء اخوانكم، والعدو يقف خلف الاسوار؟ ؟

وبعد أن ساد الاضطراب والهرج فترة قصيرة، هدأت الخواطر قليلا، وعاد الرجال يتدارسون الأمور، وكان رأي كعب بن أسد الذي أصر عليه اصرارا هو أنه لا سبيل إلى حل الا عن أحد طريقين، أما أن نعلن اسلامنا، واما ان ننزل من الحصون للقاء المسلمين وليكن ما يكون ...

وبسط الموضوع على شعب قريظة، لكن رفض الجميع أن يعتنقوا الاسلام ما عدا ثلاثة على رأسهم عمرو بن سعدي، كما رفضوا أيضاً النزول لحرب محمد والمسلمين ...

— « ماذا تريدون اذن ؟ ؟ »

سؤال هام عاد كعب بن أسد يوجهه إلى جمهرة اليهود، دون أن يتلقى عليه جواباً، فما كان منهم الا أن لاذوا بحصونهم، وتركوا الأمر معلقاً، لكنها كانت أياماً عصيبة بالنسبة لليهود، لانها تمر عليهم بطيئة ثقيلة، مشحونة بالخوف والانتظار القاتل، والمصير الغامض المعذب، ولقد كان من رأي حيي بن أخطب الحرب، لكنه لم يجد صدى لدعوته بين جموع بني قريظة الذي خارت قواهم، وانحطت أرواحهم، وضعفت معنوياتهم لحد بعيد، كما كان من رأي كعب أن يشهروا اسلامهم ما داموا يهابون الحرب، لكنهم استكثروا وهم أصحاب كتاب قديم ان ينصاعوا للنبي الجديد، وينضووا تحت لوائه ... ولم يكن رفضهم قائماً على منطق سليم، أو موقف فكري محدد، وانما استجابة لكبرياء غامضة، ومنفعة عاجلة، وسلطان دنيوي، واستصغاراً لشأن المسلمين ونبيهم، وحقداً موروثاً لصيقاً بهم منذ أمد بعيد ...

وهز كعب رأسه، وقال :

— « أرى أنه لو سمح لنا محمد بالرحيل إلى « أذرعات » ، وترك ديارنا وبيوتنا كما فعل بنو قينقاع وبني النضير ... لو سمح محمد بذلك لحققنا كسباً عظيماً ... »

قال حيي بن أخطب ساخراً :

— « الكسب ؟ ؟ وهل الكسب أن تطرد من وطنك، وتقذف بأطفالك ونسائك في عرض البراري والقفار ؟ ؟ »

— « انه أفضل من الفناء الشامل ... »

— « بل الفناء أفضل يا كعب بن أسد ... »

التفت اليه كعب في غيظ وقال :

— « يا حيي بن أخطب ... انك تفكر في رعونة وحقد، مشاعر الكراهية ضد محمد والمسلمين لا تفتأ تسيطر على أفكارك ... وبهذه الطريقة لن تتمكن من ادراك الأمور بطريقة واضحة لن تصل إلى رأي نزيه سليم ... ان قريظة عن بكرة أبيها تريد الخلاص ... لا تبغي سوى النجاة بأنفسها، وليذهبوا إلى أي مكان ... تلك هي الحقيقة ... انني كممثل لهؤلاء الناس، وكسيد لهم لا بد أن أفكر فيما يرضيهم، ويحقق لهم النجاة ... هم يريدون ذلك ... انني اشعر بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقي ... هذا عذاب ما بعده عذاب... أما أن أفكر في مصير هؤلاء الناس تفكيراً ينبع عن مشاعري وعواطفي الخاصة بما فيها من انحياز او انحراف ... فسأجر عليهم الوبال ... وعلى نفسي أيضاً، ومع ذلك فان الأمر يختلف حينما تفكر في مصيرك الخاص عندما تفكر في مصير التعساء من قومك، أعني اولئك الذين قد جعلتك الاقدار حاكماً عليهم » . توقفت الكلمات في حلقه، وافلتت دمعتان من بين اهدابه، فأسرع بتجفيفهما، ثم عاد يقول في انفعال : — « لم أكره منصبي في يوم من الايام كما أكرهه في هذه الاوقات الرهيبة ... انني ألعن اليوم الذي اصبحت فيه سيداً لبني قريظة ... لقد كانت سيادتي عليكم يا بني قريظة هموماً متصلة، وعناءً بالغاً، ومتاعب لا حد لها ... وها هي النهاية ... النهاية التي لا أعرف كيف تكون، لكنها ستكون بالتأكيد سيئة على أي وجه من الوجوه ... »

الفصل الثاني والثلاثون

جلس سعد بن معاذ سيد الأوس وحده، كان يفكر فيما يجري به الأيام، يتذكر منذ أن قدم رسول الله إلى المدينة، وتبعه بضعة نفر — المهاجرون — وأحاط به أهل البيعة من الانصار، اكان يتصور سعد يومها ان العرب ستهب ذات يوم، وتفد من قريش وغطفان وأسد وفزارة وغيرهم وتأتي لحرب ذلك المهاجر المسالم ومن معه من رجال طيبين، قلة في العدد والعدة ؟ ؟ والاعجب من ذلك كله ما جرى لسعد نفسه ... انه يحاول المقارنة بين سعد في جاهليته، وسعد الآن ... فيهوله الفارق الضخم ... أين أيام الحدة والانطلاق الأعمى والكوؤس والنساء والتجبر، وحروب القبائل، ومجالس الفخر، والدين القديم بما فيه من مضحكات وترهـــات ... وأعاجيب ... ان سعداً لم يتغير وحده ... بل وجه المدينة الخالدة، قد جرى عليها ما جرى على سعد ... أصابها التغيير في نظامها ومجتمعها وعلاقاتها الانسانية والتجارية ... تبدلت اهتماماتها وتطلعاتها ... المباني هي المباني ... والأسماء هي الأسماء ... لكن روحاً جديدة سرت بين الناس فتركت بصماتها على الوجوه، والكلمات والنظرات والخطوات ... لكأنما مر دهر طويل على المدينة منذ أن أتى اليها محمد ... واستطرد سعد في تفكيره العميق ... يوم بدر المشهود، لم يخطر على بال أحد من الناس أن هذا المهاجر الفار بدينه وبالمؤمنين من رجاله ... لم يخطر على بال أحد أنه قادر على أن يمرغ أنف قريش في الرغام، وأن يجندل أبطالها، ويطحن كبرياءها وعنجهيتها وجبروتها تحت أقدام رجاله الحفاة ...

وفي يوم « أحد » حيث الابتلاء والامتحان والدرس الذي لا ينسى ... مات حمزة بن عبد المطلب، ومات غيره من كبار القلوب، لم يستسلموا بل واصلوا النضال حتى آخر رمق ... يا له من يوم ! ! ان أشق ما فيه زعمهم ان محمدا قد قتل ... يا رعاك الله أيها النبي العظيم ... تخرج من الغبار واللهيب والدخان الأسود، تخرج مشرق الوجه، تدعو الرجال للصمود والتجمع، وتعاود الكرة لتستخلص النصر من بين براثن الهزيمة، بعزم لا يكل، وقلب لا يفزع، ومع هذا الصمود والثبات كنت يا رسول الله تبكي ... تبكي الرجال الأوفياء الذين ذهبوا إلى جنة الله ...

وبالأمس القريب ... جاء العدو في أكثر من عشرة آلاف ... وضربوا حول المدينة حصاراً عنيداً ... وتذكر سعد، كيف ان الرسول قد أسف لما أصاب المدينة من كوارث

قحط، وكيف أنه فكر في تخفيف العبء عن المساكين من سكانها، فحاول أن يعقد صلحاً مع غطفان، كي تعود من حيث أتت مقابل ثلث ثمار المدينة ... لم تضعف عزيمة الرسول، ولم يرهب الصراع، وانما كان يفكر في المدينة وسكانها وما يعانون من متاعب مختلفة ... ويفكر أيضاً في تمزيق وحدة الأحزاب الذين قدموا للقضاء على المسلمين ... تذكر سعد كل ذلك ... ثم تذكر كلمات الرسول عن هذه الاتفاقية المنتظرة وتذكر أيضاً كيف انه قال لرسول الله : — « يا رسول الله أيكون هذا أمراً تحبه فتصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ ؟ فان كان أمراً من السماء فامض له، وان كان أمراً لم تؤمر به، وللك فيه هوى فسمع وطاعة. وان كان انما هو الرأي، فما لهم عندنا الا السيف ... « فقال رسول الله : « لو أمرني الله ما شاورتكم، والله ما أصنع ذلك الا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكثر شوكتهم إلى أمر ما » وابتسم سعد بن معاذ وهو يذكر رده القوي على تعليق رسول الله : « يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم (غطفان) على الشرك بالله، وعبادة الاوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون في أن يأكلوا منا ثمرة الا قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالاسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نُقطِعهم أموالنا ؟ ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ... »

ويذكر سعد ابتسامة رسول الله آنذاك، ويذكر أيضاً كيف اكفهرت وجوه سادة غطفان، وهم يستمعون إلى كلمات سعد، سعد المحاصر الذي أحاطت به وبالمسلمين وبرسول الله الأعداء من كل جانب ...

لقد مرت الأيام، وانسحب الأعداء، وخرج المحاصرون من مدينتهم ليحاصروا حزباً من الأحزاب المخذولة، ليحاصروا بني قريظة ... أجل ان ارادة الله فوق كل ارادة ... هذه هي قريظة التي آذته وسبته وداست على نصائحه، ولم تكترث للود القديم، « ها هم جنود الله يطوقونها من كل جانب ... والعجيب ان قريظة، قد بعثت تخطب ود الرسول، وتتوسل اليه ان يتركها ترحل إلى بعيد ... وعندما أصر الرسول على أن يكون تسليم قريظة بدون شروط مسبقة، او قيود معينه ... هرعت قريظة إليّ تطلب وساطتي، وتعلن انها موافقة على تحكيمي في القضية الخطرة ... لسوف أذهب إلى قريظة لاسمع منهم ... لن أشمخ بأنفي ... لن تأخذني عزة المنتصر المنتقم، بل سأبقى كما أنا ... سأنسى إلى حين كلماتهم البذيئة، وشتائمهم لي ولرسول الله ... لا يصح ان أذكر الاساءات القديمة، انني سأكون في موضع القاضي ... في مكان مقدس ارتضاه الرسول وارتضته قريظة ... ولن تأخذني في الله لومة لائم أيها المسلمون ... ولن أحكم الا بالعدل يا حلفائي الأقدمين... يا بني قريظة ... »

●

دخل سعد إلى ديار بني قريظة، استقبله الرجال بالتجلة والاحترام، انه شيء يختلف تماماً عن الاستقبال السابق يوم وفد الرسول، لكن سعد بن معاذ يرى شيئاً آخر يمزق نياط القلوب النسوة يعولن، والاطفال يبكون ويصيحون ... الذعر يسود الجميع ...

— « أحسن في مواليك يا سعد بن معاذ ... »

— « هل ارتضيتموني حكماً ؟ ؟ »

— « ونعم الحكم ! ! »

قال كعب بن أسد :

— « ان انكار الحق حماقة ... لقد وقعنا في خطأ جسيم ... سمه جريمة ان شئت ! !

لكن محمداً يستطيع ان يصفح عنا ... انه يتحلى بالرحمة والعطف والتسامح... وما أظنه يضن علينا بتركنا نرحل إلى أذرعات »

هز سعد رأسه :

— « لقد فوضتم الأمر إليّ ... أليس كذلك ؟ ؟ »

— « نعلم ذلك ... »

— « ولم يعد هناك مجال للحديث عن رحيلكم لاذرعات او غيره ... انني أدرك قداسة ودقة الحكم الذي يتعلق بمصير الرجال والنساء والاطفال ... أعرف ذلك جيداً ... »
وسمع سعد صوتاً من خلفه، انه يعرف ذلك الصوت جيداً :

— « لكنك يا سعد تعرف جيداً أيضاً أننا أسأنا اليك حينما وفدت لمفاوضتنا ... »

— « انني أحكم بالعدل ... بما أراني الله ... أهو حيي بن أخطب ؟ ؟ »

أدار سعد وجهه، فالتقت نظراته بنظرات حيي بن أخطب الذي قال :

— « انه أنا ... أنت تعلم يا سعد بن معاذ اننا نستطيع الحرب، والصبر على الحصار فترة طويلة، وسيتكبد المسلمون الكثير من التضحيات والوقت والمال حتى يتمكنوا من هزيمتنا ... اننا نريد أن نوفر اراقة الدماء، وألا نضيع الوقت في الصراع الدامي الذي لا طائل تحته ... »

حدجه سعد بنظرات دهشة، لم يزل الملعون يتكلم من عل، ويعلن عن هزيمته في صوت قوي، ويبدي تخاذله وراء أستار زائفة من الهيبة والسيطرة، لم يزل حيي بن أخطب يتكلم بصوت أجش، لم يزل يتحدى وهو يحني رأسه، ويقاوم وهو ملقى في قيود الذل والهزيمة

ويستعطف وهو يستعلي بنبراته ومنطقه ... وفكر سعد ان يحرجه، أن يشرح له ما لا يحتاج إلى شرح، ويذكره بأنه يستسلم بدون قيد او شرط، ويلفت نظره للنسوة اللاتي يولولن، والاطفال الذين يصيحون، والرجال الذين يستعطفون ... لكن سعداً لا يريد أن يفعل ذلك إن سعداً في مكانة القاضي، وهو الحكم، ولا بد أن ينجو بنفسه من شباك الحقد الذاتي، ان كعب بن أسد يدرك القضية أكثر مما يدركها الملعون حيي بن أخطب ...

ان الرجل المسئول يعاني من جراء خطئه، ويرمي نفسه وحزبه بالاجرام ... لكن حيياً لم يزل يحمل في قلبه الحقد الذي لا يزول، ولو تركت له الفرصة مرة أخرى، فلسوف يحاول حشد الاعداء وجمع المشركين والمنافقين من شتى انحاء الجزيرة العربية ... ليعيد الكرة ... وليشعل نيران حرب جديدة ...

وأدرك كعب بن أسد ما حالف كلمات حيي من حماقة وعدم لباقة، فقال بعد فترة صمت :

— « يا سعد بن معاذ ... نحن نطلب الصفح من محمد ... يا سعد بن معاذ اننا نطلب منك ان تحسن في مواليك وحلفائك القدامى، كما فعل « ابن أبيّ » مع حلفائه من قبل ... يا سعد بن معاذ ...

اننا اخترناك لعدلك وحلمك وتقواك ... »

صاح حيي بن أخطب، ووجهه الشاحب، وعيناه المحتقنتان ينبئان عن مشاعره المصطرعة :

— « انك تريق ماء وجهك يا ابن أسد، وتمرغ شرف قومك في الذل والهوان ... »

التفت اليه كعب، ورماه بعين شزراء وقال :

— « انني أحمي التعساء الذين ساقوا أنفسهم وراءنا إلى مستنقعات الاثم والغدر ... وأنا على استعداد لأن أكون نعلا لمحمد كي أرد عن قومي العذاب ... والضياع ... »

— « فلا كانت الحياة يا ابن أسد ... »

ومضوا بسعد في الشوارع والحارات، ليرى ويسمع لعل قلبه يرق، لكن سعداً كان في شغل شاغل عن ذلك كله، انه يحدد كل شيء ... المتهم : بنو قريظة ... الجريمة : نقض العهد في احلك الاوقات، ومؤازرة الاعداء ... ومحاولة التسلل خلف ظهر المسلمين كي يسوقوا النساء والاطفال سبايا ... والعمل على افناء المسلمين ... والقضاء على الرسول ودعوته قضاء تاماً ... والآن ما هو العقاب الواجب ؟ ؟ »

وتمم سعد بن معاذ : — « لن تأخذني في الله لومة لائم ... بحق العناء الذي عشناه طوال الحصار المرير ، وبحق الشقاء الذي لف المسلمين خلف الخندق ، في ليالي الجوع والظمأ والبرد والخوف...

بحق هذا كله لن ألتزم إلا بالحق ... الحق وحده ... »

والتفت سعد إلى بني قريظة :

— « يا بني قريظة ... لقد رضيتموني حكماً ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « فاسمعوا وأطيعوا لأوامري ... »

— « سنفعل ... »

— « استعدوا ... »

— « نحن على استعداد ... »

الفصل الثالث والثلاثون

أصدر سعد حكمه وهو : أن ينزل بنو قريظة من حصونهم وان يضعوا السلاح ... »
تمتم حيي بن أخطب : « ننزل من حصوننا ؟ ؟ كيف ؟ ؟ ونضع السلاح ؟ ؟ هذا أمر عجيب ! ! وأدرك سعد ما هم فيه من خوف وتردد فعاد يقول :

— « لقد أخذت عليكم العهود والمواثيق ان تنزلوا على حكمي ، وما أظنكم تغدرون بعهودكم مرة ثانية ... فافعلوا ما أمرتكم اختصاراً للوقت . ولكي نسرع بالوصول إلى النتيجة المحتومة ... »

همس حيي في أذن كعب بن أسد :

— « ليس لنا ملجأ سوى سيوفنا ، فكيف نضعها يا زعيم القوم ؟ ؟ »

قال كعب في يأس :

— « وماذا تفعل سيوفنا أمام الحشد الذي أقامه محمد من حولنا ؟ ؟ لن أنكث بعهدي مرة ثانية ... »

ومن خلفهما قهقهت اليهودية ، وقالت :

— « وداعاً يا حيي بن أخطب »

قال حيي : « ماذا ؟ ؟ أتنوين الهرب ؟ ؟ أظن ذلك أمراً صعباً ... »

ابتسمت وقد جلل الشحوب وجهها وقالت :

— « الوداع يا بؤرة الفساد والعناد ومحرك المآسي ... »

— « اصمتي يا فاجرة ... »

— « فاجرة ؟ ؟ ها ... ها ... ها ... كان ذلك في زمن الغباء والطيش ... ان الايام السوداء والصراع الدامي الذي عشته الليالي الطويلة ، قد كفر عن خطاياي ، ومع ذلك فأنت أفجر مني ... »

هتف في غيظ :

— « كيف ؟ ؟ انك تسيئين إلى سيدك اساءة بالغة ... أيتها الحقيرة ... »

هزت رأسها قائلة :

— « ترفع رأسك في كبرياء وانت على اعتاب الفناء ... »

— « أنت واهمة، فان حيياً لا يستسلم الا لينطلق من جديد ... »

عادت تقهقه : ها ... ها ... ها ... من جديد ؟ ؟

وهاج كعب بن أسد وماج، واعترض على ذلك النقاش العقيم في ذلك الوقت العصيب، وامرهم ان ينزلوا على رأي سعد بن معاذ حليفهم القديم، اذ لا شك انه سوف يحسن في مواليه، وكل ما يرجوه ان ينجوا بجلودهم من هذه الورطة، ولتذهب اموالهم وانعامهم إلى الجحيم وقال حيي وهو يصر على أسنانه :

— « ألا ان حليفك القديم قد يغدر بنا ... »

قال كعب في حدة وصبر نافذ :

— « لقد غدرنا بهم عشرات المرات، وليكن ما يكون ... »

وشرد حيي بضع لحظات، ثم قال :

— « لست أدري لماذا لم يتحرك يهود « خيبر » لنجدتنا، ان فيهم ابني صفية وزوجها كنانة بن الربيع سيدهم ... ماذا ينتظرون ؟ ؟ ألم يحرضونا على ذلك الفعل ؟ ؟ ألم يشاركوا في التدبير والاتصال بقريش والقبائل ؟ ؟ وكيف نعتب على انصراف الاحزاب عنا، ثم لا نعتب على أبناء جلدتنا في « خيبر » ؟ ؟

فرد عليه كعب :

— « لقد فات أوان العتاب ... انني أرى بعيني الطريق الكالح الذي سار فيه بنو قينقاع وبنو النضير ... »

تنهد حيي بن أخطب في حسرة وقال :

— « يا ليت ! ! »

ووفد عليهم عمرو بن سعدي صامتاً، وتمتم حيي :

— « أرى على وجهك الاطمئنان، لكأنك واثق من نجاتك »

— « انني لا أعرف مصيري مثلكم، لكني أصررت على حفاظي على عهد محمد ... هذا ما استطعته انا والرجلان اللذان معي ... »

— « ومحمد لا ينسى الأوفياء يا عمرو ... »

وجاءهم صوت سعد بن معاذ صائحاً :

— « لتنزلوا من حصونكم، وتضعوا السلاح ... »

وثب كعب بن أسد من مكانه، وقال :

— « انا لفاعلون ... »

ثم التفت إلى بني قريظة، وصاح بهم :

— « ماذا تنتظرون ؟ ؟ هيا انزلوا ... »

لحظات قاتلة رهيبة، الطابور الطويل يهبط من الحصون في صمت مذهل، والوجوه ترهقها ذلة وشحوب، والعيون الساهرة تنظر في رعب قاتل، والخطوات متعثرة واهنة مرتجفة، والشمس تغمر المكان بضوئها الساطع برغم برودة الجو، وحيي بن أخطب يخطو في ذهول، ينظر يمنة ويسرة، فيرى آلاف العيون ترمقه، وجنود المسلمين يحيطون بالطابور الآثم ... أهي النهاية يا حيي بن أخطب ؟؟ مستحيل، إن قلبه ينغل بالمؤامرات والاحقاد، لم يزل يحلم بيوم الثأر الاحمر، يوم ان يرى محمداً يرسف في الاغلال ينشد العفو والرحمة، ويرى ابن الخطاب وعليا وعثمان وابا بكر وابا عبيدة وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وغيرهم من المهاجرين والانصار صرعى تنزف منهم الدماء او أسارى يرفلون في ثياب الذل والعار ... لم يزل حيي يحلم بالمستقبل وبالآلاف من جنود قريش والقبائل تأتي مرة أخرى لتسحق كلمة الاسلام، وتبدد شمل تجمعه، وتطفىء وهج الايمان والإباء في نفوس الرجال المؤمنين ...

وصاح سعد بن معاذ ...

— « أقسم بالله ان أحكم بالعدل، وأن أنطق كلمة القاضي النزيه . . » ، ارتاع حيي بن أخطب وهو يستمع لكلمة « العدل » انها كلمة مخيفة، ان الحكم بالعدل على الجاني هو الادانة، وحيي لا يريد حكماً بالعدل، يريد صفحاً، يريد من سعد بن معاذ ان يحسن في مواليه وحلفائه الأقدمين ... اما العدل فانه أمر جد خطير ... وقال سعد بن معاذ :

— « استمعوا إلى حكمي »

تعلقت به العيون، وتطاولت اليه الاعناق، وارهفت الآذان الأسماع ليقل سعد ما شاء، فانه لا شك لن يقسو على حلفائه الأقدمين، بل ولن ينفذ فيهم حكم العدالة لأنه قاس رهيب

وقال سعد :

— « الحكم هو أن يقتل المقاتلون من بني قريظة، وان تقسم الاموال، وتسبى الذراري والنساء ... »

وصرخ حيي بن أخطب :

— « لقد خدعنا ... أين سيفي ؟ ؟ »

لا وجود لسيفه، والحشود المسلحة من المسلمين تحيط بالجناة، الذين سينالون نفس الجزاء الذي أرادوا أن يطبق على المسلمين، الجزاء الذي داسوا من أجله العهود والمواثيق، في أخطر اللحظات العصيبة ...

الفصل الرابع والثلاثون

مالت اليهودية على أذن حيي بن أخطب قائلة : « لقد جاء دورك يا حيي ... أراك مرتبكاً شاحباً حزيناً . » لم يجد أدنى رغبة في أن يرد اليها الصفعة ، كان يفكر في كل شيء في لحظاته الأخيرة ... الماضي والحاضر والمستقبل ... كان وكان ... آه ... ذكريات طويلة وليال من السهر والكراهية والجهد الجهيد ... واليوم ... الدماء تسيل ... النهاية الفاصلة الحاسمة الي لا نجاة منها ... لماذا يموت على هذه الصورة ؟ ؟ اللعنة عليك يا كعب بن أسد ... اللعنة على كل اليهود ؟؟ لماذا لم يستمعوا لنصحي ويحملوا سلاحهم ، ويخوضوا المعركة ويموتوا على الاسوار ، وفي الشوارع ، وعلى عتبات البيوت ، بدلا من أن يستسلموا كالنعاج الخائفة ؟ ؟ ها هو محمد يرفع رأسه ... انه يعطينا درساً قاتلا في الأدب حتى لا نغدر مرة ثانية ؟ ؟ نغدر ؟ ؟ وكيف يغدر الموتى ؟ ؟ أحقاً جاءت نهايتي على هذه الصورة المزرية ؟ ؟ ألن يكون هناك شيء اسمه حيي بن أخطب بعد ذلك ؟ ؟ ألن أتصدر المحافل ، وأجلس على رأس المؤتمرات ، وأذهب إلى سادات قريش وغطفان ، وأحرك الألوف بكلماتي الساحرة ؟ ؟ وهل انتصر محمد ؟ ؟ وهل ستجلجل أصوات المؤذنين في كل مكان ، وتهز الآفاق ، وتُدخل الحسرةَ في قلوب اعداء الاسلام ؟ ؟ أيكبر جيش محمد وتنطلق دعوته في شتى الانحاء ، ويخرج في جيش لجب ، ليؤدب المارقين واحداً واحداً ، ويصطاد الاحزاب حزباً حزباً ؟ ؟ لكم الويل يا أغبياء قريش ! ! أتظنون أنكم نجوتم بجلودكم ؟ كلا ... فمحمد سيغزوكم في عقر داركم ، ولن يترككم حتى تخروا سجداً ، وتعلنوا استسلامكم وولاءكم ... أجل ... وتعلنوا اسلامكم ... هيهات ... لقد ضاعت الفرصة إلى الأبد ... لشد ما أكره محمداً ... هذا الرجل يعيش ، وهذا يعذبني ... انه ينتصر ، وهذا ما يؤلمني ... لن يؤلمني سيفه وهو يحتز رأسي ، ويفصلها عن جسدي ... ان ما أفكر فيه أكبر من ذلك بكثير . آه .. آه ... أين أنت يا ابنتي يا صفية ؟ ؟ لا شك أنك ستولولين وتملأين الربوع دموعاً وصياحاً ... وسيأتي اليك نسوة « خيبر » ويقدمن لك التعازي ... كان أبوك يا صفية رجلا عظيماً ... وكنت أنت يا صفية تعترضين دائماً على مخططاتي ... وكنت تفضلين مصالحة محمد ، والعيش في جواره ، والوفاء بعهوده ... هل كنت يا صفية أبعد نظراً مني ، أم ان قلبك كان يحدثك بهذا الموقف الرهيب الذي يقفه أبوك ؟ ؟ لا يا صفية ... ان أباك عاش بطلا ومات بطلا ... لقد ظللت وفياً لمبادئي — أياً كانت هذه المبادىء — حتى النهاية ... لم أفرط في ذرة منها ... الوفاء لقومي من اليهود ..

الكراهية الكبرى لمحمد ودعوته ... ضحيت بكل شيء من أجل أن أقهره ... بذلت كل ما في وسعي لسحقه ، وكدت أنجح نجاحاً باهراً يا صفية يا ابنتي الحبيبة ... لكن الاقدار وقفت في طريقي ... عاندتني الاقدار يا صفية ... دمرت كل ما كنت أبنيه ... لماذا ؟ ؟ لماذا حدث ذلك يا صفية ؟ ؟ هل لأني لم أكن على حق ؟ ؟ هل محمد على حق ؟ ؟ ؟ على الرغم من أني أفكر في هذا الأمر ، الا أنه لم يعد يعنيني يا صفية، ولست على استعداد ان أتحول عن عقيدتي في اللحظات الاخيرة من حياتي ، ماذا يقول اليهود عني اذا ما اعتنقت الاسلام ؟ ؟ وماذا يقول العرب عني ؟ ؟ سيقولون ان حيي بن أخطب قد أعلن اسلامه ليحفظ حياته، سيقولون أنني غيرت عقيدتي جبناً ونذالة ... لا ... لا لن أكون هذا الرجل الضعيف الهزيل، لسوف ألقى الموت قوياً مرفوع الهامة، لن أدمر كبريائي... ليست المسألة مسألة حق وباطل، بل هي كرامتي قبل كل شيء ... وهل بقي من العمر اكثر مما مضى يا صفية ... آه ... أين أنت يا صفية يا ابنتي الحبيبة ؟ ؟ انك لا تسمعينني الآن، وهذا ما يعذبني ، ويملأ قلبي بالأسى والاحزان ... لا... لا... لا... انني لا أتمنى أن تريني في هذا الموقف الصعب ... لو حضرت الآن يا صفية اقلت لك اذهبي إلى حيث كنت ... لا يصح ان تريني على هذه الصورة ...

وأفاق حيي بن أخطب من أفكاره المصطرعة، انه يسمع هديراً من الصياح والعويل، ويسمع بني قريظة يكيلون له الشتائم والسباب ... انهم يودعونه أسوأ وداع ... « اللعنة عليكم جميعاً أيها الأوباش ... »

— « لقد جاء دورك يا حيي بن أخطب يا عدو الله ... « هذا ما سمعه، ليكن ان الذي يعادي الله لا بد وان يكون عنيداً شجاعاً ... آه ... أنت تضحك على نفسك يا مسكين ... من أنت بالنسبة لله ؟ ؟ انك مخلوق ضعيف ستخمد أنفاسك بعد ضربة سيف ... لكن الله باق ... وكلماته باقية ... لن تموت ... وجذبته يد قوية .
فتح عينيه فرأى السيف يلمع ...

— « أنت يا حيي بن أخطب قد أجرمت في حق الله ... وفي حق قومك ... انت مجرم حرب غير شريفة، نكثت فيها بالعهود، وحرضت على الغدر واراقة الدماء، وعرضت الابرياء للموت والدمار والشر ... »

هز رأسه في عناد وقال :

— « ولو عشت لفعلت مثلما فعلت من قبل ... »

وقدم اليه رسول الله وقال :

— « ألم يخزك الله يا حيي ؟ ؟ »

وأجاب حيي في استخذاء لئيم :

— « كل نفس ذائقة الموت ، ولي أجل لا أعدوه ، والله ما لمت نفسي في عداوتك قط يا محمد ، ولكن الله يخذل من يخذله ... »

والتفت حيي إلى جموع اليهود ، كان يحاول التماسك ، ويتظاهر بالشجاعة ، فرآهم نهباً للرعب القاتل والخوف الفظيع ، كانوا ينتظرون مصيرهم المحتوم ، وفي ذلك الوقت الرهيب ... وقت الانتظار الصعب ... كانوا يلعنونه ... ويذكرونه بانه سبب الكارثة التي حلت بهم ، والنكبة التي حاقت بهم ... فواجههم قائلا :

— « يا بني قريظة ... لا بأس بأمر الله ... كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني اسرائيل ! ! ! »

وجاءه صوت اليهودية من بعيد .

— « أنت صانع المأساة أيها الملعون ... »

وتدلت شفتاه في ابتسامة بلهاء ، وزاغت نظراته ، واختلطت المرئيات أمام عينيه ... لم يعد يرى سوى وجه محمد يشرق بالثقة والنور والأمل وسمع رسول الله يتمتم ببعض آيات الله التي نزل بها الوحي :

— « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون ، وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم ، وأموالهم ، وأرضاً لم تطأوها ، وكان الله على كل شيء قديراً [1] » ... صدق الله العظيم ...

وتمتم حيي بن أخطب :

— « أجل ... غنيمة باردة ... »

ثم رجع عدو الله إلى مكان العقاب ...

وأطاح النصل بعنقه ...

وصاحت اليهودية في فرح مجنون :

— « لقد حذرتك يا حيي بن أخطب ... يا فاتح طريق المتاهات والعذاب والضياع ... عليك اللعنة ... »

---

(١) سورة الأحزاب .

ونادى منادي المسلمين :

— « لن يصاب النساء بأذى

ولن يصاب الأطفال بأذى

ولن يصاب الذين أسلموا بأذى

ولن يصاب الذين حافظوا على عهدهم بأذى ... هنيئاً لك يا عمرو بن سعدي أنت وصاحباك ... » وانطلق المسلمون إلى حصون بني قريظة وبيوتهم يرثون الارض التي كتبها الله لهم، وأخذت اليهودية ترمق الزحف الصاعد، والدموع على خديها :

— « هذا يوم الحساب ... الحزن يجلل الديار ... والنداء الجديد يرج الانحاء ... ويتردد صداه بين الأروقة ... الله أكبر ... صدق وعده ... ونصر عبده ...، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده ... »

وهمست في اذن جارتها :

— « ألا تسمعين... انهم لا يمنون بشيء ... يعزون النصر كله لله ... هزم الاحزاب وحده ... لقد صمدوا وصبروا وصابروا ... وعاشوا أياماً سوداً ... حتى تفتحت لدعواتهم أبواب السماوات ... ثم عادت تقول : — « انظري إلى عمر بن الخطاب ... هذا الرجل الفارع الطويل ... أنه يرفع يديه إلى السماء ... حيث يوجد قلبه ... لقد صدق قرآنهم حينما قال « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر ... وما بدلوا تبديلا » ... أجل وقالت جارتها وهي تجفف دموعها :

— « انهم لم يسوقونا إلى دينهم على الرغم منا ... لقد تركوا لنا حرية الاختيار ... لم يسيئوا الينا قط ... لكن ما قيمة الحياة بعد أن فقدنا الزوج والولد، وضاعت بهجة الحياة... لقد شربنا كأس الهوان المر المذاق ... »

وقالت اليهودية :

— « لقد اردنا نحن ذلك ... لماذا لم نثر في وجه الرجال ؟ ؟ لماذا لم نمنع وقوع الكارثة ! »

— « كان الملعون حيي بن أخطب يزوق لنا المنى، كلماته كانت كالسحر، وآماله الخادعة كانت خلابة ... فسرنا وراء السراب ... »

وتمتمت اليهودية :

— « حتى تجلت شمس الحقيقة فاماطت اللثام عن حياة الزيف والخداع ... »

— « أجل ... »

— « بعد أن دفعنا الثمن غالياً ... »

ثم عادت اليهودية تقول :

— « لقد كنت في كل مرة آوي إلى اليهود بعد نكبتنا ... بعد بني قينقاع قصدت ديار بني النضير، وبعد بني النضير قصدت قريظة، والآن لن أذهب إلى خيبر ... هذه المرة سأبقى هنا لأفكر تفكيراً آخر ... »

— « ماذا تعنين ؟ ؟ »

— « انني يجب ان أفكر في دعوة محمد على ضوء جديد ... الا تعتقدين انه على حق ؟ »

قالت المرأة في أسى وقد عادت دموعها للانهمار :

— « لا أستطيع التفكير الآن ... »

— « لا ... لا يصح ان نترك هذا السؤال الحاسم معلقاً دون اجابة ... »

— « أتريدين الحقيقة ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « هذه الحقيقة نعرفها من زمن بعيد ... انه رسول الله حقاً، ولم نر في دعوته، وسلوكه وسلوك رجاله الا صورة صادقة لآيات الله وأحكامه وتعاليمه ... »

— « فماذا ننتظر ؟ ؟ »

— « ننتظر حتى تجف الدماء ... وينسدل الستار على المشهد الرهيب ... ثم نشهد انه لا اله الا الله، وأن ... » وصمتت

قالت اليهودية : « وان محمداً رسول الله ... » وطأطأت المرأة رأسها قائلة :

— « أجل ... »

الفصل الخامس والثلاثون

ران الصمت على يهود « خيبر »، واتشحت النسوة بالسواد، وماجت صدور الرجال بالحقد الممتزج بالخوف، وأدار سيدهم « كنانة بن الربيع » رأسه إلى الآفاق الرحبة الممتدة إلى بعيد، يمسح الرمال الصفراء بنظرات حزينة، وتغلي رأسه بأفكار مضطربة واجفة ... أهكذا تكون نهاية بني قريظة ؟ ؟ أهكذا تكون نهاية صهره الغالي العزيز « حيي بن أخطب » والد زوجته الأثيرة صفية ؟ ؟ لو يملك سيد خيبر العدد الكافي من الرجال والسلاح لانقض على « المدينة » وجعل عاليها سافلها، ودمر مبانيها على رأس محمد وصحبه وأشعل النار في مساجدهم ومرابعهم، وأحرق الرجال والنساء والأطفال أحياء ... أجل أحياء حى يتلذذ بما يقاسونه من عذاب وهوان، لكنها أمنيات عاجزة مقهورة ... والعجز قاس رهيب يبعث المرارة في مذاق الحياة، ويحيل بهجتها إلى أسى وضياع وحسرة ... الحقد يأكل قلب سيد « خيبر »، وحيثما يكون الحقد، لا يفسح مجالا للتفكير السليم او المنطق الواضح الصحيح ... الحقد يعمي العينين عن رؤية الحقيقة، ويسد في العقل منافذ التحرر والانصاف ... الحقد أبكم وأصم وأعمى ... لا يفعل سوى أن ينفخ النيران، ويبعث بمخالبه لتمزق وتريق الدم ... الحقد رذيلة كبرى ...

على الرغم مما حدث من مآس، فان سيد « خيبر » لن يهادن محمداً ولو أن محمداً أصبح أقوى منه، وسيد خيبر سيثيرها حرباً شعواء ... لقد كان « حيي بن أخطب » على حق حينما حشد قريشا والقبائل واليهود في صف واحد لضرب محمد، ولن تنجح أية حركة تقوم ضد محمد الا اذا سارت في نفس الطريق الذي سار فيه « حيي » ... مع محاولة تجنب سوء الحظ الذي حالف التكتل السابق ... ان على خيبر أن تعد نفسها ليوم مشهود، وأن تحشد كل امكانياتها من مال وسلاح وأقوات ورجال ليوم المعركة الكبرى ... ان دماء قريظة تصرخ بالثأر ... وذبح « حيي بن أخطب » كما تذبح الشاة مأساة كبرى لن يكون اليهود يهوداً الا اذا مسحوا عارها وأساها العميق ... أيكون هناك نصر بغير تضحيات ؟ ؟ أتشتعل معركة دون ما حقد دفين ؟ ؟ انه الوقود الذي سيدفع خيبر إلى خوض غمار حرب ضارية تأكل الأخضر واليابس ... ووقف « كنانة بن الربيع » يتقبل العزاء في صهره، وأخذ رجالات خيبر يتقدمون اليه واحداً واحداً، انه يصافحهم وهو في ذهول وكرب شديد، هيهات تغني الكلمات عن المصاب الفادح . ووقف « ابن الربيع » بينهم خطيباً :

— « يا رجالات خيبر ... لقد فقدنا رجلا عظيماً، ولسوف يمر وقت طويل قبل أن تجود السماء برجل مثله ... ان حيي بن أخطب فلتة من فلتات الزمان، كان يعرف جيداً ماذا يفعل وكان يدرك أبعاد الخطر الاسلامي الداهم منذ البداية ... عندما هاجر محمد إلى المدينة هارباً برجاله القلائل، بعد أن كادت قريش أن تقتله، وفكر محمد في عقد حلف مع يهود المدينة وضواحيها، رفض حيي بن أخطب التوقيع على هذا الحلف في البداية، وحذر اليهود من مغبة ذلك ... وأفهمهم أن الموافقة على الاتفاق المزمع عقده يجعل من محمد ملكاً على المدينة وما حولها ... ويقوي من شوكته، ويحمي ظهره، ويجعله في منعة — وأما يشبه المنعة — من أعدائه القريشيين ... كان محمد يا رجالات خيبر رجلا يحمل مبدأ وعقيدة، من السهل فهمها، وتقبلهما لدى عقول العامة ... ولم تكن قريش تملك هذا الرصيد ... ومن ثم فان قريشا لا تشكل خطراً حقيقياً على محمد ودعوته ... نحن اليهود نشكل الخطر الحقيقي وحدنا ... ومحمد كان يدرك ذلك ... ولهذا حرص على التحالف معنا حتى يفرغ لاعدائه القريشيين وغيرهم من القبائل الجاهلة ... على أمل أن يزداد أتباعه وتقوى شكيمته، ويصبح القوة الوحيدة المهابة التي لا يستطيع اليهود ولا غيرهم التصدي له ... كان « حيي » يدرك ذلك ... ولما لم يستجب اليهود له، وأظهروا عدم مبالاتهم وكذلك استهتارهم بنوايا محمد ومطامعه ... لم يطمئن حيي بن أخطب ... وقف متيقظاً يرقب الأحداث، ويرى الخطر ينمو، فاندفع يدبر، ويحشد الحشود، ويضرب القوى النامية في قلب الجزيرة العربية ... إلى ... إلى أن مات حيي بن أخطب شهيداً ... »
وجفف كنانة دمعة سقطت من عينيه، واستطرد قائلا :

— « ... ورأينا بأعيننا طرد بني قينقاع، وشهدنا رحيل بني النضير الحزين الباكي ... ثم كانت الطامة الكبرى يوم ذبح المقاتلون من قريظة، وعلى رأسهم رب السيف والفكر والعقيدة حيي بن أخطب ... »

ثم صاح بصوت جريح :

— « أترى تغيب شمسنا عن أرض العرب، ويضع محمد بسيوفه النهاية الأليمة لملحمة النضال اليهودي الصابر ؟ ؟ والله ان بطن الأرض خير من ظاهرها، وهيهات أن تقر لنا عين، أو يهدأ لنا بال ونحن نعيش تحت سيطرة محمد وتهديده ... »

وصاح رجل في المؤخرة :

— « يا كنانة بن الربيع ... ليست الخطورة كامنة في سيوف محمد، ولكنها في أفكاره.. في سطور الكتاب المنزل عليه ... »

اهتاج ابن الربيع وهتف :

— « دع أفكار محمد وقرآنه ... نحن نتحدث عن الثأر والحرب ... ان الحديث في مثل هذه الأمور يبعث الوهن في النفوس، ويوقع بيننا الخلاف والتردد، لسنا على استعداد لأن نناقش أفكاره الآن، لقد فات الأوان، وجرت الدماء بيننا وبينه، ونحن مؤمنون بديننا، ونرفض أي شيء جديد ... نرفضه بشدة، ودون تردد ... افهموا ذلك جيداً يا أبناء خيبر الأبطال ... »

وعاد رجل المؤخرة يقول :

— « كلمات محمد يا سيدنا هي العامل الحاسم في المعركة، لماذا نضع رؤوسنا في الرمال، ونتجاهل الحقائق الواضحة الصارخة ؟ ؟ كلمات محمد هي التي صنعت رجاله، وشكلت النسق الجديد لسلوكهم وأفكارهم، والبطولات التي ظهرت بين يدي محمد، وانبثقت من تعاليمه، هي التي تهزمنا ... »

وهتف كنانة بن الربيع :

— « وماذا نفعل اذن ؟ ؟ »

— « ندرس الرجل وأفكاره على ضوء جديد ... »

قهقه كنانة في حسرة :

— « ندرس ؟ ؟ انه لشيء مضحك ! ! عندما تتم دراستك يكون كل شيء قد انتهى.. يكون محمد قد استعد استعداداً كاملا، وأطبق علينا من كل صوب ... أو يكون نصف رجالنا ضعاف الايمان، قد تحولوا إلى دينه، وصبأوا عن دين الآباء والأجداد ... هذا هو الموقف بصراحة ...

اني يا رجالات خيبر لم أقف بينكم خطيباً لأترنم بالقصائد في رثاء قريظة وحيي بن أخطب، ولم أتحدث اليكم لكي نتدارس أفكار محمد وكلماته وانعكاسها على رجاله ... اني أحدثكم فقط عن الخطر المحدق، وأذكركم بالثأر الذي يصرخ بكم ... وأدعوكم لكي تعيشوا رجالا أو تموتوا رجالا ... ولا شيء غير ذلك ... وسأغلق سمعي عن تلقي أي حديث أو رأي خارج عن هذا النطاق ... »

طأطأ الرجال رؤوسهم صامتين، ولم يمنعهم ذلك من الحديث حول أفكار محمد وكلماته المنزلة، من عند الله، وما يرويه القرآن عن بني اسرائيل ... عن تاريخهم وكأن محمدا كان حاضراً في تلك الأزمنة السحيقة ... أيام موسى وهارون ... وداوود وسليمان ... وزكريا ويحيى وعيسى ... وألوان الغدر التي عرف بها بنو اسرائيل، وانحرافاتهم القديمة ... كل شيء يعرفه محمد ... ان كلماته حق ... لو لم يكن لدى محمد معجزة لكفاه ما يكشف عنه من أقاصيص وأسرار ... بل ان معجزته الكبرى هو ذلك الجيل الذي أخرجه محمد إلى الوجود.

الجيل الذي استخلصه من بين تقاليد الجاهلية ونزاعاتها وصراعاتها القبلية ... وثاراتها الموروثة، وعقائدها المتعفنة الخاطئة ...

قال رجل يهودي حكيم :

— « أخطر ما في محمد أنه استطاع أن يحرر طاقات الانسان فأبدع ... »

ورجل آخر قال : — « بل أرسى قواعد التوحيد في نفوس رجاله، فأصبحوا لا يعبدون بحق الا الله، ولا يخافون سواه ... »

وقال ثالث : — « كل واحد من رجاله يحاول أن يلحق بمرتبة النبوة، وطوال الطريق إلى ذلك يتطهرون بالجهاد الدائب، والعبادة المتصلة ... كل شيء عندهم عبادة ... العمل الصالح عبادة ... حفظ آيات الله عبادة ... النوم عبادة ... الأكل الحلال عبادة ... الصدق والوفاء والأخوة ... الفضائل كلها عبادة ... »

وقال رابع : — « ان كلمات محمد قد استجابت لأشواق الانسان التائه الحائر، فوجد في ظلها الأمن ... انظروا أيها السادة إلى محمد حينما يقول : « من بات آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها »

تنهد الرجل الذي كان يصيح في المؤخرة وقال :

— « فكيف تهزمون رجلا هذا شأنه ؟ ؟ فلنبحث لنا عن طريق آخر غير الحرب... »

وكان هناك حبر من الأحبار يستمع اليهم، ويلتقط كل كلمة يتفوهون بها، فقال :

— « ربما يكون الصواب قد حالفكم فيما تبدون من آراء، لكن هذه الآراء قد تتغير اذا ما كنتم في مركز المنتصر، ان الهزيمة التي حاقت بنا قد جعلت كفة العدو هي الراجحة، وأظهرت مبادئه في صورة من القوة والاشراق لا يمكن التصدي لها، ولو انتصرنا لبحثتم عن روعة مبادئنا، ولجلوتموها بصورة مشرقة، واني لأرى رأي « كنانة بن الربيع » لنسترد كرامتنا، ونقف على أرجلنا في ثبات وقوة وثقة ... ثم ننظر في عقيدتنا وعقيدة عدونا ... عندئذ يكون الحكم صائباً ...

لم يعد هناك من طريق سوى الحرب ... ولا شيء غير الحرب ... وهذا هو رأي قائد جيشنا سلام بن مشكم ... ورأي كنانة أيضاً ... »

●

وعاد كنانة بن الربيع « إلى بيته، وانقبض صدره حينما تناهى إلى سمعه صرخات ملتاعة، هذه صرخات « زوجه صفية بنت حيي بن أخطب » ... انها تندب أباها، وحق لها أن ترتدي السواد وتشق الجيوب، وتلطم الخدود، وتضع التراب على رأسها ... حق لك ان تفعلي ذلك يا زوجتي المسكينة ...

وعندما دخل كنانة مطأطئ الرأس، رفعت اليه صفية عينين دامعتين ممتلئتين بالدموع، وصاحت :

— « مات أبي يا كنانة »

غمغم ابن الربيع :

— « لقد لاقى الله بطلا شهيداً ... »

— « أنتم تخدعونني ؟ ؟ »

— « أوَ تشكين في ذلك يا امرأة ؟ ؟ »

— « أنتم الذين دفعتموه إلى الفناء ... تركتموه يسقط دون مبرر ... »

— « أنت تخطئين يا صفية ... لقد سقط دفاعاً عن شرفه وشرف عقيدته ...

مات وهو يردد ... لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بني اسرائيل هكذا كان يقول ... لم يتزعزع ايمانه، أو يفقد ثقته بنفسه ... تحدى السيوف والموت وتقريع محمد له ... لو كان كل اليهود على شاكلة أبيك لحطمنا محمدا منذ زمن بعيد ... »

وعادت تولول وتقول :

— « قولوا ما شئتم، فليس في رأسي سوى حقيقة واحدة ... حقيقة مرة أليمة وهي أن أبي مات ... مات حزيناً تعساً ... وأنتم هنا تنعمون بالحياة ... وتأكلون وتشربون ... »

اكفهر وجهه وهتف :

— « تعست حياتنا اذا لم نقضها في مواصلة الصراع، والعمل على الأخذ بثأره من محمد وأتباعه ... »

— « أو تعودون للشقاء مرة ثانية ... »

— « لن ننكص أو نتراجع ... »

وشردت بنظراتها الدامعة، وأخذت تقول :

— « قلت لأبي محذرة دعك من هذا الصراع الذي لا طائل تحته، فاذا كان محمد نبياً فلا مجال لمعاداته، بل الأوفق الايمان بدعوته، وان كان غير ذلك فسيضع الله حداً للدعاوى الباطلة ... »

زم شفتيه، وقرب حاجبيه، وهتف :

— « السيوف وحدها هي التي تضع الحد للدعاوى الباطلة ... »

وابتلع ريقه، ثم عاد يقول :

— « ان فداحة المصاب قد أوعزت اليك بالأراجيف، وبذرت في نفسك الوهن، لا كنت صفية بنت حيي إذا لم تطربي لاستشهاد أبيك، وتسيري على نهجه ... »

فلم يرق لها حديث زوجها، بل أخذت تستمع اليه في ضيق وامتعاض، وتمنت في هذه اللحظات، أن تجرف الأوحال بيديها، وتلطخ وجه زوجها بها، وتصرخ فيه :

— « أنتم تكذبون ... أنتم عصارة الحقد النجس، والزيغ القديم، والانحراف الأزلي ... ان محمدا على حق، وأنتم على باطل ... انني أعرفكم جيداً ... وأعرف البشارات التي أنبأت عن ظهور النبي الجديد ... البشارات التي تخفونها وتنكرونها ... لكنها لم تستطع أن تنطق بمثل هذه الكلمات ... ان صورة أبيها الذبيح ... ودمه المراق ... ولحيته البيضاء ... وموقف الذلة والهوان ... شيء لا يمكن أن تنساه ... وشيء آخر يشب إلى ذهنها من آن لآخر في هذا الموقف المؤلم الحزين ... آه ... تلك الرؤيا الغريبة ! ! ذلك القمر القادم من المدينة إلى خيبر ... ذلك القمر الذي مال عن أفقه، وانحدر صوبها، ثم استقر في حجرها ... يا لها من رؤيا غريبة ! ! وهل تنسى أن زوجها كنانة بن الربيع قد سدد إلى وجهها لكمة قوية عندما أخبرته بالرويا ؟ ؟

لكن أباها مات ...

لا يصح أن تستسلم للهواجس، وتتذكر هذه الرؤيا في معمعان الحزن الداهم، والأسى الصاخب الذي يلقي ظلاله الكئيبة على الربوع، ويوشح الأفق المعتم بأرديته السوداء.

وعادت تصرخ :

— « واكرباه ! ! ! واحبيباه ! ! ! وامصيبتاه ! ! ! . . »

وإلى اللقاء في القسم الثاني من القصة ...

دبي في ٢٠ رمضان سنة ١٣٨٨ هجرية

١٠ ديسمبر سنة ١٩٦٨ م

نجيب الكيلاني

كتب للمؤلف

روايات

١ – الطريق الطويل
٢ – في الظلام
٣ – عذراء القرية
٤ – اليوم الموعود
٥ – الربيع العاصف
٦ – رأس الشيطان
٧ – ليل الخطايا
٨ – طلائع الفجر
٩ – الرايات السوداء
١٠ – أرض الأنبياء
١١ – النداء الخالد
١٢ – الذين يحترقون
١٣ – الكأس الفارغة
١٤ – ابتسامة في قلب شيطان
١٥ – يوميات الكلب شملول
١٦ – ليل العبيد
١٧ – قاتل حمزة

مجموعات القصص القصيرة

١٨ – موعدنا غداً
١٩ – دموع الامير
٢٠ – العالم الضيق
٢١ – عند الرحيل

دراسات

شعر

مسرحيات